حسن الشيخ

الرَّئِيسُ العَيْثَانُ

ترجمة للشيخ محمد العيثان بمناسبة الذكرى المئوية الأولى على رحيله

٢٦-١٢-١٣٣١هـ

دار الحجة البيضاء

Dar Kumait
دار كميت

الرئيس العيثان

ترجمة للشيخ محمّد العيثان

بمناسبة الذكرى المئوية الأولى على رحيله

الرئيس العيثان

ترجمة للشيخ محمّد العيثان

بمناسبة الذكرى المئوية الأولى على رحيله

٢٦-١٢-١٣٣١

تأليف

حسن الشيخ

دار كميل

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ ٢٠١٠م

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٢٠

تقديم

لانرغب من هذه الترجمة إعادة كتابة التاريخ؛ لأن التاريخ قد كتبته يوما سيرة الرجال. فلا حاجة لنا بإعادة كتابته. كما أننا لا نهدف من هذه الترجمة للشيخ محمد بن عبدالله آل عيثان الأحسائي أن ننتصر لشخصه بسبب العرق أو النسب أو السكنى؛ لأن من مثله ليس بحاجة إلى كل ذلك.

ومن جهة أخرى فإن هذه الدراسة لن تتحامل على أي فكر أو مدرسة أو حتى رأي يختلف مع آراء مدرسة آل البيت الحكمية التي ينتمي إليها الشيخ العيثان؛ لأن مساحة الكتابة بها متسعة للجميع، وقادرة على استيعاب كل الآراء والأفكار والمدارس الإسلامية على حد سواء. فكيف لا؟ وهي تستقي من منبع واحد ومن كتاب واحد لا ينطق عن الهوى.

نعم شيخنا الرئيس العيثان ينتمي في منهجه الحكمي إلى مدرسة آل البيت الحكمية رافضا فلسفات أرسطو وأفلاطون الوثنية، وتلك ميزة في منهجه له لا عليه.

إن هذه الدراسة تسعى لأن تكون دراسة جادة، تحاكي الدراسات العلمية في منهجها ألتوثيقي، وتماثل الدراسات المنصفة في تحليلها الحيادي، متكئة على المنهج التاريخي في تحليل الحوادث التاريخية؛ حتى تكون دراسة جديرة في أن تتصدر أرفف مكتباتنا العربية، مثل غيرها من الدراسات الأخرى عن حياة علمائنا

ومفكرينا وعظمائنا.

ولا بد أن نشير ونحن على عتبات البداية لهذه الترجمة، أن في سيرة علمائنا الأحسائيين العديد من نواحي العظمة والشموخ، ما يجعلها تقف في الصدارة إلى جنب ترجمات مراجعنا وعلمائنا الكبار في شتى أنحاء العالم الإسلامي.

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن طموح هذه الدراسة عن شيخنا العيثان، السعي لأن تكون الرائدة في المكتبة الإسلامية، ليس في موضوعيتها فقط، بل وفي إطار التصدي لحملات التشويه المتعمدة لترجمة حياة الشيخ العيثان، ولتشويه منهجه الفكري -مدرسة آل البيت الحكمية- الذي ينتمي إليه، ولتشويه سيرة أعلام هذا المنهج الفكري في هذا الوقت بالذات، وفي كل وقت يسعى البعض -في الخفاء- لأن ينسج خيوط ذلك التشويه بحجج (كهنوتية) قديمة، تارة باسم الدين، وتارة باسم الوطن، وثالثة باسم الجماهير التي لا صوت لها، معاهدين أنفسنا أن نكون منصفين لا مبالغين مع من نحب، ولا متحاملين على من نختلف معه.

الفصل الأول

الإطار التاريخي

مفردات الترجمة

من المسلم به اليوم أن التاريخ كان دائما عنصرا رئيسيا من عناصر تكوين روح الانتماء إلى الجماعة. بل إن علماء الاجتماع يذهبون إلى أبعد من ذلك بكثير في تعريفهم لعلم الاجتماع. فليس علم الاجتماع إلا جمع لشتات من الموضوعات المتعددة في موضوع واحد شامل. أي أنه علم واسع ومتعدد الأوجه، يضم في داخله تيارات ومواقف شتى، قد لا يربط بينها إلا أثر (تاريخي) قديم أو مجموعة الشخصيات (التاريخية) والمؤلفات القديمة، كما قرر إدوارد شيلز عند تعريفه لجوهر علم الاجتماع. المسلمون وكتابة التاريخ، ص ٤٨.

إذن هناك صلة عضوية بين علمي التاريخ والاجتماع. فالمؤرخ عليه أن يبذل الاهتمام الكبير بدراسة التغير الاجتماعي، ولهذا فإن اهتمامه سيكون شاملا ميدان علم الاجتماع حسبما يتجلى له في المنظور الزمني، يقول الدكتور عبد العليم خضر مقررا تلك الصلة بين علمي الاجتماع والتاريخ (إن عالم الاجتماع يصف البناء (المعماري) على أسس سبق أن استخدمها (المؤرخون).

فالمؤسسات، والعادات، والخلق، والدين، والتقاليد والذوق الاجتماعي، والطرز الحديثة، والمكانة والمنصب، والكرامة هذه كلها تبدو مألوفة الواقع، ونستطيع من أجل الصياغة النظرية أن نسبغ على هذه المصطلحات معاني أدق مما

يعتقد أنه ضروري لها في غالبية البحوث التاريخية.. المرجع السابق ص ٤٩.

وفي هذا البحث عن الشيخ العيثان، سنستخدم أدوات علم الاجتماع في قراءة مفردات ترجمة الشيخ، التي استخدمها المؤرخون قبلنا، ممن أشاروا إلى تقاليد عصره، وذوقه الاجتماعي، ومكانته، ومنصبه، ومرجعيته، وأساتذته، وتلاميذه. إلى غيرها من المفردات محاولين إسباغ معاني أدق، ومفاهيم أكثر وضوحا؛ بهدف تجلية سيرته المشرقة من زوايا متعددة، لم يسبق لهؤلاء المؤرخين أنفسهم أن استنبطوها من سطور ترجمته.

لقد دأبت الترجمات لأعلامنا تأخذ شكلا نمطيا، لا تحيد عنه أبدا. حيث تبتدئ الترجمة بنسبه وسنة ولادته، وتنتهي بسنة الوفاة، مرورا بذكر أسماء أساتذته وتلامذته وإثبات مؤلفاته، أو آثاره العلمية، وشيئا من الرثاء الذي قيل فيه بعد وفاته.

إلا أن هذا البحث عن الرئيس العيثان يحاول أن يترجم لسيرته، بعيدا عن ذلك النمط الكلاسيكي المعروف في كتب التراجم، وذلك لاعتقادنا أن علمية الشيخ العيثان، وعطاء مرجعيته يستحقان كل هذا الجهد لإخراج بحث علمي جاد يتناول ترجمته بمنظار مختلف. آملين أن يأخذ هذا البحث بأيدينا إلى ينابيع العطاء والخير ونحن نجول في رحاب ترجمته المباركة.

فجر الأحساء:

وإذا كانت تلك أدوات علم الاجتماع التي يستخدمها المؤرخ، فإن مادة التاريخ من جهة أخرى تعتمد على ثلاثة مصادر رئيسة كما يراها محمد سعيد المسلم:

أول هذه المصادر(المشاهدة)، وهو أوثق المصادر على الإطلاق. فالمؤرخ الذي يرصد الأحداث، هو أشبه بالمرآة التي تعكس الصورة والحركات، ويليه (الرواية) المستمدة وقائعها من الأخبار الصحيحة المتواترة. إلا أن هذا المصدر يؤخذ دائما بمزيد من التحفظ والحذر؛ لاحتمال تعرضه للدس والتلفيق؛لاعتبارات شتى من الميول السياسية والحزبية والمذهبية، ومع ذلك تعتبر الرواية هي العامود

الفقري الذي يتكئ عليه المؤرخ لكتابة التاريخ. أما المصدر الثالث فهو (الآثار) فلاشك في أنه من الوثائق المادية للمؤرخ؛ تعزز الأدلة التاريخية، وتعزز استنتاجاته أيضا. القطيف ص ٩-١٠.

وإذا أردنا أن نؤرخ لفجر الأحساء، وتاريخ حركتها الثقافية الأولى وجب علينا الاتكاء على هذه المصادر الثلاثة. فلا يمكن بأي حال من الأحوال استبعاد مصدر رئيس من مصادر التاريخ، وإذا عددنا رجل الدين هو المحرك الثقافي الأول بالمعنى الشامل للمجتمعات في ذلك الزمان، فإن مصادر التاريخ (الروائية) للأحساء تشير إلى أن مجتمعها الأحسائي قد خلى تماما من أي فقيه مجتهد خلال ثلاثة قرون متصلة. منذ القرن السادس الهجري وحتى القرن الثامن. بينما صعب علينا في القرن التاسع تتبع كل (آثار) الفقهاء رغم تواجدهم في هذا القرن، ولم تحدثنا مصادر التاريخ عن أكثر من فقيهين في القرن العاشر وفقيهين في القرن الثاني عشر. بينما خلا القرن الحادي عشر من الفقهاء تماما.

وتبلغ ذروة تواجد الفقهاء في القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، ففي بداية القرن الثالث عشر فجر الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي ثورته العلمية والفكرية، وتكاثرت العلماء في قرنه والقرن اللاحق، وفي القرن الخامس عشر لم تشهد الإحساء - ولا القطيف - فقيها ومرجعا من مراجع التقليد على الإطلاق. فقهاء الأحساء، ص ١١٠.

ويمكننا إرجاع تكاثر الفقهاء ومراجع التقليد الأحسائيين في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين إلى سببين رئيسيين: الأول هجرة طلاب العلم الأحسائيين إلى الحواضر العلمية للالتحاق بالحوزات العلمية؛ حيث باتت الهجرة إلى تلك الحواضر العلمية في النجف الأشراف، وكربلاء المقدسة، وقم أمرا بديهيا في برنامج حياة الطالب العلمية. المرجع السابق، ص ٦٤. أما السبب الثاني فيمكن إرجاعه لبزوغ مدرسة آل البيت الحكمية التي تزعمها الشيخ الأوحد. فخلقت تيارا علميا ضخما امتد من كربلاء، وشمل كل مدينة إسلامية حط الشيخ الأوحد رحله فيها من أمثال أصفهان ومشهد وتبريز والأحساء وغيرها من البلدات والمدن

الإسلامية. يقول نور الدين الشاهرودي (برزت في حوزة كربلاء شخصيات علمية دينية كانت لهم أفكار وتصورات فلسفية، أثارت جدلا بين العلماء والفقهاء ومن جملة هذه الشخصيات، تأتي في الصدارة شخصية الشيخ أحمد الأحسائي، بوصفه صاحب أطروحات فلسفية كانت ولا تزال مثار بحث وجدل وتضارب في الرأي بين العلماء، الذين ناصروه، والذين جاؤوا من بعده حتى يومنا هذا) الحركة العلمية في كربلاء، ص ١٥٣.

وإذا كانت مصادر التاريخ الثلاثة مجتمعة تحدثنا عن غياب دور رجل الدين الفقيه، أو غياب آثاره طوال سبعة قرون من الزمن، فإن مصادر التاريخ بالمقابل تؤكد لنا أن فجر الإحساء العلمي والثقافي بدأ منذ القرن الثالث عشر عندما خلق الشيخ أحمد الأحسائي ذلك التيار الثقافي العام، وفجّر هذه الثورة العلمية عندما ذهب إلى اتباع أئمة آل البيت عليهم السلام في رأيهم الحكمي، رافضا آراء الفلسفة اليونانية الوثنية التي نحى إليها بعض الفلاسفة العرب والمسلمين من أمثال الفارابي، وابن سينا، والملا صدرا وغيرهم من الفلاسفة.

وإذا جاز لنا أن نقول هذه لمجرة العلمية لطلاب العلوم الدينية للحواضر العلمية، سبب رئيس لبدايات الحركة العلمية الأحسائي، فكيف يجوز لنا أن نقول أن ثورة الشيخ الأوحد الحكمية هي سبب ثان هام لبدايات هذه الحركة.

لقد انشغل الفلاسفة المسلمون قبل زمن الشيخ أحمد الأحسائي بمحاولة التوفيق بين تراث الفلسفة اليونانية، وبين مبادئ وقيم الفكر الإسلامي. ساعين في ذلك إلى رفع التعارض في مؤدى كل منهما؛ ولعل السبب في بروز هذا المنهج التوفيقي عند فلاسفة المسلمين - بلا استثناء - منذ فيلسوف العرب الكندي وحتى ابن رشد، يعود إلى هيمنة روح الفكر اليوناني على مفكري الحضارة الإسلامية. كما أن عملية التوفيق هذه لم تكن خالية من عدم التحيز والإنصاف، ولهذا ظهرت فلسفات إسلامية في الشكل غير صافية الجوهر. بل هي (خليط من الفلسفة والدين، وغالبا إن لم يكن دائما، ما يكون الدين تابعا لوجهة نظر الفلسفة، ورأيه صدى لرأيها) المدخل، ص١٧.

لقد عمل فيلسوف المغرب ابن رشد، بشكل علمي وممنهج على نصوص (المعلم الأول) يتعلمها ويلخصها ويشرحها، حتى قدم شروحاته الثلاثة لآرسطو. ولقب ابن رشد بالشارح الكبير، وذلك بعد أن أيقن ابن رشد بأنها الفلسفة الحقة، والحكمة المتكاملة، وأخيرا استقر رأيه على التوفيق بين الفلسفة والشريعة، وتصحيح الدين مما علق به - في ظنه - من مخالفات المتكلمين، وتشويش الفقهاء. راجع كتابنا فيلسوفان ثائران، ص ١٠ - ١٣. ولم تسلم فلسفة ابن رشد من خلط الفلسفة بالدين.

آثار الشيخ الأوحد:

ولما كانت تلك الفلسفات فلسفات عرجاء تجعل من الدين تابعا لها فقد (عمل الشيخ الأحسائي على استفراغ وسعه في إعادة صياغة المنظومة الفكرية الفلسفية -المخالفة لمذهب آل البيت عليهم السلام- من جديد على أساس متين، سائرا في هذا الدرب على ضوء كلمات أهل البيت الأطهار عليهم السلام، وإرشاداتهم القيمة.) المدخل إلى فلسفة الشيخ، ص ١٥.

هذه المنظومة الفكرية الجديدة ليست سوى مدرسة آل البيت الحكمية، تستمد جذورها من القرآن الكريم ومن أحاديثهم عليهم السلام، الأمر الذي خلق تيارا فكريا ضخما، وحركة علمية ثقافية، أثرت في موطن الأوحد الأصلي الإحساء، وفي العديد من البلدات الإسلامية. هذا من حيث (الرواية)التي هي مصدر رئيس من مصادر التاريخ.

أما من حيث (الآثار) وهي مصدر آخر من مصادر التاريخ، فليست سوى آثاره التي خلفها لنا الشيخ أحمد الأحسائي، وجميعها تدل على تأصيله الفكري لأركان مدرسة آل البيت الحكمية. بل إن كثيرا من تلك الكتب والرسائل هي في مختلف العلوم والمعارف. حتى عمد العديد من الكتاب والباحثين لإفراد مصنفات خاصة، وفهارس متخصصة، للإلمام بعناوين وإعداد مصنفاته لكثرتها وهي (كثيرة يضيق عنها قلم الإحصاء) دليل المتحيرين، ص ١٣٩.

وأورد السيد الرشتي في دليله (٨٦) مصنفا للشيخ الأوحد، وذكر الحاج رياض طاهر في فهرسه أن مؤلفات الشيخ المطبوعة بلغت (١٠٤) مؤلفا، أما ما صدر عن الشيخ من خطب وفوائد وقصائد فبلغ (١٥٤) ومجموع جوابات المسائل (٥٥٥) مسألة مخطوطة ومطبوعة، وأشار اغابزرك الطهراني في الذريعة إلى أن رسائل الشيخ أحمد الأحسائي بلغت (٧٥) رسالة وذكر السيد العاملي في الأعيان أن للشيخ (١٠٢) مؤلف، أما الدكتور حسين محفوظ فيذكر أن الشيخ ترك (١٤٠) كتابا، وأجوبة بلغت (٥٥٠) تقريبا، وعدد السيد الشخص في أعلام هجر (١٦٨) مؤلفا للشيخ الأوحد، وبلغ عدد مصنفاته طبقا لرصدنا إلى (١٨٥) بين مؤلف ورسالة وجواب. راجع كتابنا آخر الفلاسفة، ص ٦١ – ص ١٠٢

وتبقى (المشاهدة) أبرز وأهم المصادر التاريخية، ولأنجد أدق مصداق لهذا المصدر التاريخي إلا تلامذته الكثر وتلامذتهم البارزين من أعلام المدرسة، وإذا كانت (المشاهدة) هي أوثق المصادر على الإطلاق فإن البلدات الإسلامية والأحساء تحديدا شاهدت وخالطت تلامذة الشيخ الأوحد وتتلمذت على أيديهم طوال قرنين من الزمن. وهؤلاء العلماء – التلاميذ – هم المرآة الحقيقية والصادقة التي تعكس للمؤرخ المنصف ماهية فكر الشيخ الأوحد، وعلو هامته، وغزارة فكره. لذلك يمكننا القول بكامل الوثوق أن مدرسة آل البيت الحكمية التي تزعمها شيخنا الأوحد، وبآثاره المتكاثرة، وبذلك العدد الضخم من تلاميذ مدرسته، قد خلقت تيارا ثقافيا وعلميا في منطقة الإحساء، أدت إلى تكاثر العلماء والفقهاء في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين.

الأول لكل عناصر تلك المنظومة الفكرية باعتبارهم المظهر الأول لروح الحركة الثقافية بكل أبعادها وتمايزاتها، ورغم كل ذلك فنحن ندرك أيضا أن أهمية تلك العناصر – التي تتكون منها المنظومة الثقافية – متمايزة في الدلالة بين كثير من المؤرخين.

إلا أن مؤرخ اليوم ليس بعيدا عن مؤرخ الأمس فهو يبحث عن هذه العناصر محاولا اكتشاف المبادئ التي شيدت الحركات الثقافية؛ ولعل السبب في ذلك يرجع

إلى كون أن أهم شئ في تاريخ المجتمعات والشعوب، وأكبر مؤثر في حياتها هو تغير المبادئ الأساسية، فلا الحروب ولا الثورات الاجتماعية الكبرى يمكنها أن تبلغ في تأثيرها، كما يؤثر تغيير المبادئ والقيم. بل إنه من السهل إصلاح ما تفسده الحروب، وانبعاث الثورات المضادة لتغيير المجتمعات إلى سابق عهدها. إلا أن ثورة الأفكار والقيم والمبادئ هي الثورة الوحيدة التي يخاف الآخرون من حدوثها في المجتمعات.

وتخرج من مدرسة آل البيت الحكمية عشرات الأعلام البارزين، في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وعمل هؤلاء الأعلام على ترسيخ أفكار وقيم المدرسة خلال قرنين من الزمن. فكانت أفكار مدرسة آل البيت الحكمية، يخشى منها بعدما غيرت مفاهيم الكثير من شعوب المجتمعات الإسلامية، ولهذا السبب قوبلت بالرفض والتشنيع من قبل مناصري المدارس الفلسفية الأخرى.

ومن منطقة الإحساء تحديدا، برز عشرات العلماء الكبار ممن ينتمون لمدرسة آل البيت الحكمية من أمثال الشيخ محمد تقي الأحسائي، والشيخ علي نقي الأحسائي، والشيخ محمد حسين أبو خمسين، والشيخ محمد العيثان، والشيخ حسين أبو خمسين، والشيخ عبد الله بن ابراهيم العيثان، والشيخ علي الأحسائي وغيرهم العشرات ومن بينهم المراجع العظام والعلماء الكبار والمشائخ الفضلاء كما أشرنا لهم في كتابنا (أول المجتهدين) ص ٧٦.

وأردفت الحركة الثقافية الكبرى، التي أشعل شرارتها الأولى الشيخ الأوحد منطقة القطيف بالعديد من مراجع الدين العظام، والعلماء العاملين، ولقد حمل علماء الإحساء لواء مدرسة آل البيت الحكمية، ونشروا أفكارها ومبادئها وعلومها في المجتمع الشيعي الأحسائي.

وفي طليعة هؤلاء العلماء الكبار الذين حملوا لواء مدرسة آل البيت الحكمية، ورفضوا الفلسفات الوثنية والبشرية الأخرى الشيخ محمد أبوخمسين الذي يعد أحد أبرز أعلام هذه المدرسة لأنه كان (متشربا بفكر الشيخ الأوحد - أحمد بن زين الدين

الأحسائي - فقد آل على نفسه إلا أن يغرس الفكر النير وعلم أهل البيت الصافي من فلسفات البشر بين مواطنيه، ولذلك كان أول من جاء بفكر الشيخ الأوحد إلى الإحساء ونشر تعاليمه، وثبت أركانه، وصنع جماهيريته) في محراب الشيخ، ص ١٠٠.

وحمل لواء مدرسة آل البيت الحكمية بعده الشيخ محمد بن عبدالله العيثان - المترجم له - أحد أكابر العلماء العظام، ومراجع التقليد من هذه المدرسة، رغم تزاحم العلماء الكبار من مراجع التقليد من مختلف المدارس الإسلامية الشيعية في منطقة الإحساء والقطيفة وباقي بلدات الخليج العربي.

الثورة الكبرى:

إن تاريخنا الإنساني الطويل يحدثنا عن الحروب والمعارك والثورات، التي قامت بين الأمم والمجتمعات، ولم تقم تلك الحروب والصراعات إلا باسم الوطن تارة، وباسم الإصلاح تارة أخرى، ولكنها في الواقع ليست لها علاقة بالإصلاح. بل إن جل هذه المعارك والصراعات، ليست سوى لفئة صغيرة، اتخذت من الوطن شعارا، ومن الإصلاح رداء حتى تقف في مقدمة الصفوف؛ رغبة منها في المزيد من التسلط والجاه والنفوذ.

وعادة يفوت على المجتمعات والشعوب استبصار النيات الحقيقية لهذه الفئة الصغيرة التي أشعلت تلك المعارك والحروب، فتندفع الجماهير حبا منها للوطن، ورغبة للإصلاح إلى خوض القتال. فتضحي بأرواحها وبأموالها، إلا أنها لا تجني في العادة سوى الخراب والدمار. وتحوز فئة صغيرة ميزات المال والصدارة والجاه. صوت العدالة الإنسانية، ج ٢، ص ١٤.

وقلة أخرى تحارب من باسم الدين، وهي في الواقع تحارب من أجل مصالح خاصة أخرى بها، ولا تعرف من الدين إلا طقوسه العبادية، ومظاهره الخارجية. لذلك تبقى ثورة الفكر هي الأنصع بياضا على صفحات التاريخ. فلا نفس تزهق، ولا دم يسفك، ولا مال يجمع باسم الثورة. ولا كرسي يعتلى باسم الإصلاح. وهكذا كانت

الثورة الكبرى التي أحدثها الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي في المجتمعات الإسلامية. راجع كتابنا فيلسوفان ثائران، ص ٧-١٩.

إن حديثنا عن الثورة العلمية الكبرى التي أشعل فتيلها شيخنا الأوحد، يستدعي بالضرورة الحديث عن المجتمع الأحسائي القديم. أو لنقل يستدعي رصد الحراك الثقافي والمعرفي السائد قبل بداية ثورة الأوحد العلمية بشيء من التفصيل والتدقيق.

عرفت منطقة الإحساء أربعة عشر فقيها مجتهدا طوال ثمانية قرون من الزمن، منذ القرن الخامس الهجري وحتى نهاية القرن الثاني عشر قبيل بزوغ ثورة الشيخ الأحسائي العلمية. فيما تواجد خمسة وعشرون فقيها خلال القرن الثالث عشر والرابع عشر الهجريين. فقهاء الإحساء، ص ١٠٧ - ١٠٨.

أما تفاصيل الحياة العلمية للأحساء قبل ثورة الشيخ الأحسائي العلمية وبعدها فقد تناولها العديد من المؤرخين المعاصرين، ومنهم الشيخ محمد علي الحرز في بحثين هامين تناول فيهما شتى مناحي الحياة العلمية من حيث إعداد العلماء (الفقهاء) فرصد حركتهم من حيث انتمائهم الجغرافي، وهجرتهم، والوافدون منهم، كما رصد حركة التأليف (الآثار) لهؤلاء العلماء، وصنّف تلك المؤلفات طبقا للمواضيع العلمية التي كتبت فيها. وتناولت الواحة، أيضا المراكز العلمية لهؤلاء العلماء والأسر التي جاؤوا منها. مجلة الواحة، العدد ٣٩، ص ١٠٧.

ولقد غطت دراسة الشيخ الحرز خمسة قرون من الزمن. مبتدئا ببدايات سنوات القرن التاسع الهجري، وتحديدا منذ عام ٨٠٠ هجري وحتى عام ١٢٠٩ هجرية. أي أن النطاق الزمني لدراسته هذه في رصد الحركة العلمية الأحسائي، قبل ثورة الشيخ وبعده بعقود مديدة، وتمتد لأكثر من أربعة قرون من الزمن العلمي للأحساء. وإبان ثورة الشيخ الأوحد(١٢١٠ -١٢٤١) هجري، بل وبعد عصر الشيخ الأحسائي (١٤٤٢ - ١٣٧٥) هجري. واختار عصر الشيخ الأحسائي الذي يبدأ من سنة ١٤١٠ هجرية باعتبارها السنة التي هاجر فيها الشيخ إلى خارج الإحساء، لتكون هذه السنة

بالتحديد نقلة تاريخية في الإحساء على عدة أصعدة. المرجع السابق، ص ١٠٨.

أولا: إن هـذا التاريـخ (١٢١٠) هجـري من بنـي خالد إلى آل سـعود، وترتب علـى هذا الأمر تغييـرات جذرية علي يعد نقلة تاريخية في الإحسـاء على المسـتوى السياسـي، عندما تم انتقال السـلطة السياسية إلى مسـتوى الفكر الشيعي ونشاطه في المنطقة.

ثانيا: هي الفترة الزمنية التي هاجر فيها الشيخ الأوحد من الإحساء، وترتبت على هذه الهجرة، انطلاق مدرسة آل البيت الحكمية إلى ساحات إسلامية أوسع. وخاصة بعدما تشـكلت رؤاه وأفـكاره، والتي أثرت بدورها على الحركة العلمية الشـيعية في كل البلدان الإسلامية، وأخيرا تكونت واكتملت المعالم الأساسية لمدرسة آل البيت الحكمية لتعود من جديد للأحسـاء وبعد فترة قصيرة من انطلاقها القوي، لكي تنتشر على أيدي علماء كبار من أمثال الشيخ أبو خمسين والشيخ العيثان وغيرهما، لتحدث هزة علمية كبرى فيها.

ثالثا: التغير الكبير في معالم الإحسـاء الديموغرافية نتيجة الهجرات الجماعية من مدن وقرى الإحساء ومعظم دول الساحل الشرقي، ومن معظم العوائل الأحسائي إلى العديد من الدول العربية؛ بسبب الحروب والتضييق والفقر.

رابعـا: انتشـار مدرسـة آل البيـت الحكميـة عندما تبنـى معظم علمـاء المنطقة -الإحسـاء والقطيفـة- وأصحاب الثقل العلمي وعلى رأسـهم المراجـع القاطنين بالمنطقة للأفكار الحكمية للمدرسـة التي قادها الشيخ أحمد الأحسائي. الأمر الذي يمكن وصفه بنقلة فكرية في تاريخ المنطقة على المستوى الديني والفكري والثقافي معا.

كانت الحركة العلمية في الإحساء قبل القرن التاسع الهجري ولفترة طويلة شبه ميتة. أما الفترة مابين (٨٠٠- ١٢٠٩) الهجرية فهي التي شـهدت شـبه تنامي واضح للحراك العلمي، بحيث يمكن للباحث رصده رغم قلة المصادر، وعدم وجود التوثيق الكافي لكل مناشط الحياة العلمية.

لقد بلغ عدد (الفقهاء والمشائخ) في منطقة الإحساء(١١٥) عالما خلال هذه الحقبة الزمنية، ويمكن تقسيمهم إلى علماء محليين ووافدين ومهاجرين. فأما العلماء المحليون وهم تلك المجموعة من العلماء الذين لم يبارحوا بلادهم إلا للدراسة الدينية في الحواضر العلمية، وكانت الإحساء محل نشاطهم وتفاعلهم العلمي، ولهم نشاطهم العلمي الواضح، وقد بلغ عددهم إلى (٧٦) عالما. بينما بلغ عدد العلماء الوافدين إلى (١١) عالما، وهم نخبة العلماء الذين جذبتهم الحركة العلمية في الإحساء، فاستوطنوا فيها للتعليم أو التعلم، ولقد وصل عدد العلماء المهاجرين من الإحساء إلى (٢٨) عالما هاجروا إلى العديد من الحواضر العلمية في إيران والعراق ومكة المكرمة وجبل عامل، وكانت هجرة هؤلاء العلماء بسبب جذب الحواضر للعديد من طلاب العلم من شتى بقاع الأرض، بالإضافة إلى العوامل الاجتماعية والسياسية التي مرت بها الأحساء في تلك الفترة.

أما نتاج تلك القرون الأربعة لهؤلاء العلماء الأفاضل من المصنفات فقد بلغت (٩٩) مصنفا. ويأتي الشيخ محمد بن أبي جمهور في المرتبة الأولى حيث وصلت مصنفاته إلى (٣٧) مصنفا. وتناولت تصانيف هؤلاء العلماء مواضيع شتى منها علوم القرآن الكريم، والحديث وعلومه، والعقائد، والفقه، والأخلاق، وغيرها من المواضيع الإسلامية الأخرى.

وعن هذه الحقبة (٨٠٠- ١٢٠٩) هجرية يقول الشيخ الحرز: إن الأحساء زخرت بحركة علمية فاعلة، ساهمت في تدعيمها كثرة المراكز العلمية في البلاد، وهمّة العلماء المتواجدين فيها. فقد استقر في مدينتي الهفوف والمبرز وقراهما (٧٦) عالما، وهاجر شطر آخر منهم، وعددهم (٢٨) عالما، كما استوطنها عدد من العلماء الآخرين، وبلغ تعدادهم (١١) عالما. وكان هؤلاء العلماء الذين توزعوا على أحد عشر مركزا علميا، هم قطب الرحى في بناء الصرح العلمي بالأحساء. مجلة الواحة، عدد ٤٠، ص ١٦٠.

وبالإضافة إلى هذه المراكز فإن وجود الأسر العلمية هو الآخر مؤشر على نشاط الحركة العلمية في تلك الفترة. ولعل السبب في ذلك، هو أن الأسر العلمية

تتولى عادة القيادة في البلاد بمرجعياتها الدينية، يضاف إلى ذلك أن هذه البيوتات والأسر هي نتاج التفاعل الاجتماعي مع مجمل النشاطات العلمية في المنطقة ككل. وتسهم من جهة أخرى في نشأة المراكز العلمية أيضا. المرجع السابق، ص ١٦٤

وإذا كانت تلك هي تضاريس الحركة العلمية قبل عصر الشيخ الأوحد الأحسائي بكل تفاصيلها، وطوال أكثر من أربعة قرون من الزمن، فإن الشيخ محمد الحرز قد أعطى تفصيلا دقيقا آخر عن الحركة العلمية إبان عصر الشيخ الأوحد (١٢١٠-١٢٤٢) هجري أي في فترة زمنية مقدارها ثلاثة عقود من الزمن فقط. وهذه الفترة الزمنية لايمكن وضعها مقابل فترة زمنية تتجاوز أربعة قرون، بل إن بعض عصر الشيخ الأحسائي، داخل في تلك الفترة الزمنية الطويلة أيضا.

أما عن عدد العلماء في عصر الشيخ الأحسائي، فقد بلغ (٣٥) عالما. عاش (٢٠) عالما منهم في الأحساء، ولم تكن هجرتهم للمراكز العلمية إلا لطلب العلم والدراسة. إلا أن (١٤) عالما أحسائيا فضل الهجرة الدائمة وسكن في العراق وإيران. بينما وجدت شخصية واحدة، فضلت الهجرة المعاكسة، فسكنت الأحساء. مجلة الواحة، عدد ٥٠، ص ٦٣.

وعلى الرغم من التنامي الكبير للحياة العلمية في منطقة الأحساء في تلك الفترة الزمنية القصيرة، إلا أن هناك عدد من العوامل الأخرى عملت على تحجيم هذا التنامي وتراجعه في نظر الشيخ الحرز:

أولا - التوسع الكبير في هجرة العلماء للحواضر العلمية، واستقرارهم هناك، وضياع الكثير من أخبارهم ومصنفاتهم.

ثانيا - تأزم الأوضاع السياسية في تلك الفترة، حيث ضيق على المدارس الشيعية، ومنعت إقامة صلاة الجماعة، وعطلت الشعائر الحسينية.

ثالثا - التكتم الشديد - في هذه الفترة الزمنية - من قبل العلماء على نشاطهم العلمي والأدبي، مما أدى لضياع العديد من مصنفاتهم، وإخفاء دورهم أيضا، خوفا

من الملاحقة والقتل.

رابعا – قلّة المصادر التي أرخت لهذه الفترة بالذات، بسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية. واقتصرت الترجمات على الأعلام منهم، أو ممن خلفوا مصنفات عقب رحيلهم. الأمر الذي صبغ هذه الفترة بشيء من الضبابية في الرصد والتوثيق.

خامسا – التأكيد على أن الحقبة الزمنية هذه – اثنان وثلاثون سنة – قصيرة جدا، مقارنة بالمرحلة المدروسة قبل عصر الشيخ الأحسائي، والتي امتدت إلى أكثر من أربعة قرون.

ولكننا هنا، نتوصل إلى نتيجة عكسية لما توصل إليه الشيخ الحرز. فعلى الرغم من كل المعوقات، فقد بلغ عدد العلماء خمسة وثلاثين عالما، الأمر الذي يدل من جهة أخرى على دوران الحركة العلمية بوتيرة متسارعة في هذه الفترة الوجيزة. ولم تؤدي (كل هذه العوامل وغيرها إلى ضرر الحياة العلمية وبطء عجلتها خلال هذه الفترة) المرجع السابق، ص ٦٣-٦٤.

ولقد جاء هؤلاء العلماء الخمسة والثلاثون من مدينتي الهفوف والمبرز وعدد من القرى مثل القارة والقرين والمطيرفي وغيرها. أما حركة التأليف فقد كانت في أوج فورانها. ففيما بلغ عدد مصنفات القرون الأربعة السابقة لمنطقة الأحساء (٩٩) مصنفا، بلغ عدد مصنفات فترة عصر الشيخ الأوحد (٢١٤) كتابا. وقد تناولت تلك المصنفات معظم المواضيع القرآنية، والحديثية، والفقهية والتاريخية والأدبية. إلا أن اللافت للنظر في حركة التأليف في هذه المرحلة، قصورها على عدد محدود من العلماء، والسبب يعود لقلة المعلومات عن معظم علماء هذه الفترة. فقد كانت شخصية الشيخ أحمد الأحسائي هي الأكثر بروزا بينهم، والأكثر جذبا للمؤرخين للتدوين. كما أن الشيخ الأوحد كان يولي عناية فائقة بنسخ ونشر مؤلفاته، وهذا الأمر ساهم في حفظها من الضياع، وسهل للباحثين تدوين وضبط عناوينها وفهرستها. مجلة الواحة، عدد ٥١، ص ٧٠-٧١.

ولم يتوقف النشاط العلمي بعد عصر الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي

(١٢٤١) هجري، بل إن الحركة العلمية إبان القرن الثالث عشر بقيت تسير بصورة متسارعة، بفضل الدفعة القوية التي تركتها ثورة الشيخ الأحسائي في الأوساط العلمية. ويكفي أن نشير إلى أن الأحساء عرفت (١١) فقيها كبيرا خلال ستين عاما، وهي الفترة المتبقية من بعد عصر الشيخ الأحسائي. بالإضافة إلى العشرات من العلماء والمشائخ ومن طلبة العلوم الدينية.

أما القرن الرابع عشر الهجري فقد ضم (١٢) فقيها غالبيتهم من مراجع التقليد، وكان من بينهم شيخنا الكبير - المترجم له - الشيخ محمد بن عبد الله العيثان، بينما أضحت الحوزات العلمية المحلية، تضم بين أركانها المئات من طلبة العلوم الدينية، حتى أن الأحساء عرفت في تلك الفترة ب (النجف الصغرى) إضافة إلى أختها منطقة القطيف.

ويمكن ملاحظة أن عصر الرئيس العيثان تحديدا شهد كثرة العلماء ومراجع التقليد الأحسائيين، وعرف هذا العصر، بتكاثر المدارس العلمية أيضا. العلامة الإمام، ص ٨٦.

ويضيف الأستاذ البدر في كتابه (العلامة الإمام) واصفا الحركة العلمية في الأحساء، إبان عصر الشيخ محمد العيثان، بأنها حركة علمية مزدهرة بسبب توفر العلماء والمدارس العلمية، وأبرز هؤلاء الذين كانوا من أقطاب الحركة العلمية: السيد هاشم السلمان المتوفى (١٣٠٩) هجري، والشيخ أحمد حبيب الدندن المتوفى (١٣١٥)، والشيخ محمد بن حسين أبو خمسين المتوفى (١٣١٦) هجري، والشيخ علي بن محمد العيثان المتوفى عام (١٣٠٦) هجري، والشيخ محمد طاهر أبو خمسين المتوفى عام (١٣٤١) هجري، والشيخ موسى بن عبد الله أبو خمسين المتوفى عام (١٣٥٣) هجري، والشيخ عمران بن حسن السليم المتوفى عام (١٣٦٠) هجري، والشيخ حبيب بن قرين المتوفى (١٣٦٣) هجري، والشيخ عبد الكريم بن حسين الممتن المتوفى عام (١٣٧٥) هجري، والشيخ معتوق بن عمران السليم المتوفى (١٣٧٩) هجري، والميرزا علي بن موسى الحائري المتوفى عام (١٣٨٦) هجري. المرجع السابق، ص ٨٦.

أمـا الحوزات والمدارس العلمية فقد كانت هنـاك (٨) منها في تلك الفترة في مدينة الهفوف حوزة الشـيخ محمد بن حسـين أبو خمسـين، وفي مدينة المبرز حوزة السـيد هاشم السـلمان، وفي القارة حوزتي الشـيخ محمد العيثان، ومدرسة ابن عمه الشـيخ علي بن محمد العيثان، بالإضافة إلى الحوزات والمدارس الأخرى في قرى (الحليلـة) و(العمـران الشـمالية) و(الجبيل). ويشـير الأسـتاذ أحمد البدر للنشـاط العلمـي فـي قرية القـارة تحديـدا مسـقط رأس الرئيس العيثـان، مؤكـدا (أن الحركة العلميـة بها كانت نشـطة في عصر الشـيخ محمد العيثان، حيث كانـت (القارة) تضم عـددا كبيرا من العلمـاء والخطباء والأدبـاء، ونظرة واحدة إلى تلاميذ الشـيخ محمد والأعـلام الذين احتملنا تتلمذهم على يده من قريـة القارة، نرى مدى صحة ما ذهبنا إليه) المرجع السابق، ص ٨٧.

الفصل الثاني

إشكالات المؤرخين

الكتابة التاريخية:

إن دراسة التاريخ تكسب رجال الحاضر خبرة تلك السنيالقدم.لة الموغلة في القدم. كما أن التفكير بحيادية في ذلك الماضي السحيق، يأخذ بعقولنا بعيدا عن الذاتية، فيرى المؤرخ أشياء عديدة، كان من العسير عليه أن يراها في حاضره دفعة واحدة. ولا تكمن أهمية دراسة التاريخ في اعتبارها عنصرا من عناصر تطور المجتمعات والأمم فقط. بل إن للتاريخ صلة بالحاضر أيضا بشتى حقوله الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. راجع كتاب (المسلمون وكتابة التاريخ) ص ٦٢.

وإذا كانت تلك هي أهمية التاريخ، وجب على المؤرخين أن يكتبوا بموضوعية حتى تتحقق تلك الأهداف من كتابة التاريخ.

إن الهدف من سبر أغوار الماضي، وإعادة رصد الأحداث وتحليلها، واستنتاج مدلولاتها هو الوصول إلى الحقيقة. لكن المؤرخين ينظرون إلى الحقيقة، بعيون مختلفة، ويستخدمون أدوات متباينة، لذلك فهم بالتالي يصلون إلى نتائج متضاربة للواقعة التاريخية الواحدة.

ومن دون شك فإن المؤرخين يتفقون على حدث قد وقع في الماضي، لكن الوصول إلى المعلومات حوله يختلف من مؤرخ لآخر. لذلك يؤكد الدكتور عبد

المالـك التميمـي على أهمية حيادية مصـدر المعلومة التاريخية (يلجـأ عدد كبير من المؤرخيـن إلـى الانتقائيـة مـن الأحـداث التاريخيـة. كما يلجـؤون إلـى الانتقاء في المصـادر، بينما يعترض آخرون على المنهج، ويعتقد بعضهم، بعدم جدوى الإغراق في دراسة أحداث التاريخ البعيدة زمنيا. بينما يرى غيرهم أن الدراسة التاريخية، يجب أن تشمل كل الذي حدث في الماضي الإنساني) مجلة عالم الفكر، م ٢٩، ص ٧١.

ولكن السؤال الأهم الذي يطرحه الدكتور التميمي والعديد من أساتذة التاريخ: هل هناك حياد في الكتابة التاريخية؟ وإذا كان السـؤال بمثل هذا الوضوح والبساطة، فـإن الجواب عليـه أكثر تعقيدا وتشـعبا. فلا يوجد هنـاك حياد مطلـق، أو موضوعية العملية المعرفية؛ والموضوعية العلمية ليسـت سـوى موقـف وحكم يتخذه المؤرخ بنـاء علـى معطيات متقدمـة. ولا يعني هـذا أن يتخلى الباحـث عن ذاتيتـه المعرفية؛ لأن الموضوعيـة بالمقابل غير موجودة في الواقع. نعـم إن الوصول للنتائج العلمية، يسـتدعي مـن الباحث أن يكـون أمينا للمنهـج التاريخـي الذي اسـتخدمه، والمنهج التاريخي يفرض على الباحث الأمين الابتعاد عن المشاعر الذاتية، وإصدار الأحكام طبقـا لنزعاتـه العاطفية. كما يفـرض عليه الابتعاد عـن التعميمات المسـبقة، والتأثر السياسـي، والحرص على التقيد بالموضوعيـة العلمية، وأن يكون واعيا تاريخيا عند تناوله الماضي وإسقاطه على الحاضر.

الوعي التاريخي:

المؤرخون اليوم متأرجحون بين الماضي والمسـتقبل. ففيما يشدنا البعض من المؤرخيـن إلى دراسـة الماضي، حيث الجـذور والبدايات الأولى للفرد الإنسـاني، وبـكل مايحمله الماضي من قيم تراثية، لها إسـهاماتها وعطاءاتها المثمرة في الأمس البعيد، فإن هناك البعض من المؤرخين ممن يدفعوننا إلى المستقبل؛ لأن التطلع إلى المسـتقبل هو نزعة فطرية في المجتمعات الإنسانية، وليس أدل على أهمية الانشداد نحو المسـتقبل إلا التغيرات الاجتماعية والعالمية، وتلك التحولات المتسـارعة في تاريخ الإنسانية.

ولكن الأهم عند الدكتورة عطيات أبو السعود هو مدى وعي هؤلاء المؤرخين بالحاضر؛ لأن الحاضر هو نقطة الوصل والارتكاز بين زمنين متباعدين. مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٩، ص ٩٠

وبالطبع هناك علاقة جدلية مرتبطة بفهم المؤرخين لهذه الأزمان التاريخية؛ لأن الوعي التاريخي بالحاضر يعكس موقعنا من الماضي والمستقبل معا. كما أن نظرتنا للماضي ترسم ملامح المستقبل أيضا؛ وتضيف الدكتورة أبو السعود في مقالتها بمجلة عالم الفكر (إن الوعي التاريخي بالحاضر هو الذي يحدد توجهنا، إما إلى الماضي أو المستقبل. فإذا كان الحاضر مثمرا ومبدعا وملهما دخل في علاقة جدلالدين ليستقبل وفتح الطريق عليه، ودخل كذلك مع الماضي في جدلية وأخذ منه ما يدفعه لإغناء الحاضر والتوجه للمستقبل. ولكن إذا كان الحاضر عقيما وبائسا وخاليا من الأفعال المبدعة، فإنه يتخذ من الماضي بديلا من الحياة في الحاضر) المرجع السابق، ص ٩١.

ولا غرابة في ذلك لأن التاريخ عند الشيخ محمد مهدي شمس الدين ليس سوى حركة الأشياء في محيطها خلال تلك الأزمان. أي أن التاريخ في جوهره (هو عملية التحول والتغير والانتقال (جذور، رة) من حالة إلى حالة، التي تعتري الشئ، أو ينجزها الشئ من خلال علاقته بعناصر محيطة عبر الزمان) حركة التاريخ، ص ١٣.

إن المؤرخ بحاجة إلى وعي تاريخي عند تنقله بين هذه الأزمان الثلاثة. فلا يمكن لمؤرخ واعي أن يفاضل بين الماضي والمستقبل؛ لأن الانشداد للماضي قد يجعل من التاريخ مقبرة للحاضر والمستقبل، ويصيّر الفرد الإنساني غريبا عن العالم الذي يعيش فيه، وبالمقابل فإن رفض الماضي على الإطلاق يجعل من الإنسان دون جذور عاجزا عن التمسك في الحاضر، ويفقده المهارة اللازمة لممارسة دوره الإنساني في بناء الحضارة، وإلى هذا المعنى تحديدا يشير الشيخ محمد مهدي شمس الدين (إذن لابد للإنسان من أن يتعامل مع التاريخ باعتدال يجعله دليلا في حركته وتربة ينمو فيها الحاضر الأصيل والمستقبل الأكثر أصالة) المرجع السابق، ص ٤٣.

إذن ليس من الحكمة أن ينشد المؤرخ إلى المستقبل متناسيا ماضيه بلا جذور، وبلا أدوات تعينه على الوصول إلى الحقيقة. فالعمل دون جذور، يفقد المؤرخ القدرموضوعيته.يـة الصحيحة للمستقبل. كما أن العمل بلا أدوات يفقد المؤرخ موضوعيته. وأول أسس موضوعية المؤرخ عند الدكتور عبد العليم خضر في (المسلمون وكتابة التاريخ) أن يستبعد أحب الفرضيات إليه، ويعمل على استكشاف كل الشواهد التي تبرهن فرضيته أو تنتصر لها؛ ذلك لأن الشواهد التاريخية ليست هي البينة النهائية للحقيقة. بل على المؤرخ الوصول للحقيقة كلها. من هنا كانت القاعدة العامة للمؤرخ (موقف المتشكك مما يرد في أحسن المصادر الثانوية، وعليه أن يرجع إلى هذه المصادر الثانوية في أربعة أغراض لا غير:

١ - الاسترشاد بها على كيفية قولبة الدليل المعاضد والشاهد على مشكلته التي يبحثها. حتى يكون دائما مستعدا لأن يتشكك في المصدر الثانوي، كلما ظهر له تحليل منطقي للدلائل المعاصرة، يصحح المعلومات الواردة في تلك المصادر.

٢ - العمل على أخذ اقتباسات منها، أخذتها هي من مصادر معاصرة أو غير معاصرة.

٣- محاولة شق تفسيرات جديدة، وفرض فروض خاصة بنطاق بحثه شريطة فحصها وتدقيقها. ص ١١٥ - ١١٦.

منهجية الترجمة:

وإذا كانت كل تلك التفاصيل الصغيرة يحتاجها المؤرخ لكتابة التاريخ مقرونة بوعي اللحظة التاريخية، فإن عملية الكتابة - الترجمة - التاريخية هي في الواقع عملية شاقة ومتعبة.

نعم هناك ترجمات للعديد من علمائنا تنحو المنحى التقليدي، مبتدئة بالاسم والنسب، وسنوات التحصيل العلمي، وتسرد أسماء أساتذته وتلاميذه، وتنتهي بسنة الوفاة. أما البعض من الترجمات الأخرى، فإن زادت عليها، فإنها تزيد بذكر ماقيل

فيه، وشيء من أشعاره، ومختتمة الترجمة بشيء من مراثيه.

إلا أن هذا البحث يحاول أن يشق طريقا وعرا وشاقا، محاولين الاستفادة من المنهجية العلمية لكتابة التاريخ، لتتجلى لنا شخصية الشيخ محمد العيثان في إطارها الفكري، وفي إطارها الاجتماعي أيضا.

أما الترجمة باعتبارها عملا فكريا صرفا، فلن تكون سهلة التناول على الإطلاق، وذلك لسببين رئيسيين: الأول أننا نحاول أن نبتعد عن المنهج التقليدي لكتابة التراجم. ونتكئ على منهج البحث التاريخي الاجتماعي عند كتابة ترجمة الشيخ العيثان. أما السبب الثاني: فيرجع إلى أننا لن نعتمد على التعميم؛ لأنه من الأخطاء البحثية القاتلة، والتعميم من جهة أخرى من الأخطاء الإدراكية، التي يميل فيها الفرد الإنساني إلى تبسيط الأشياء والظواهر الاجتماعية بناءا على التشابه الوارد في بعض الأحداث التاريخية أو الصفات الإنسانية. وبدلا من التعميم، سنقوم بأخذ الشواهد التاريخية من العديد من المصادر الأولية والثانوية، محاولين تطبيقها على الواقع التاريخي والواقع المعاش. أما عملية التطبيق – هي الأخرى – فلن تكون عشوائية أو ذاتية، بل هي مقارنة للأحداث والشواهد التاريخية بهدف استنباط الحقيقة المجردة. أي أن عملية المقارنة التقويمية للأحداث، لن تكون من حيث الصدق والدلالة عند نقل الحادثة التاريخية فقط، بل من حيث الحركة والسكون ومعدل الوضوح أيضا في هذه الحادثة أو تلك.

ولأجل القيام بكل ذلك، فإننا بحاجة إلى استعراض عصر الشيخ العيثان بكل أحداثه التاريخية ذات الصلة بمرجعيته، بل إننا نحتاج حقا إلى رصد ماقبل عصر الشيخ العيثان أيضا متوقفين عند التفصيلات الصغيرة التي أثرت في مرجعيته على وجه الخصوص؛ حتى يمكننا كتابة ترجمته بطريقة مختلفة عن تراجم الأعلام السابقين؛ لأننا نعتقد اعتقادا جازما أن الشيخ العيثان هو شخصية لامعة وفريدة في تاريخنا الأحسائي، أزهرت بالأمس القريب، إلا أن عبق عطرها يلف الحاضر.

وعلى الرغم من هذا العبق الأحسائي الذي لا نزال نشمه منذ قرن من الزمان،

إلا أن هناك العديد من الخطوط المتقاطعة حينا، والمتشابكة حينا آخر عند ترجمتنا للشيخ العيثان. فالرئيس العيثان علم كبير من أعلام الشيعة العظام، ورائد من رواد مدرسة آل البيت الحكمية، وبحكم هذا الموقع المتقدم للشيخ العيثان، فنحن بحاجة إلى منهجية تاريخية شاملة، نتعرف من خلالها عن كثب على أبعاد مدرسة آل البيت الحكمية وزعيمها الشيخ أحمد الأحسائي. موردين أهم إشكالات المؤرخين القديمة والحديثة على الفكر الحكمي لهذه المدرسة، والقضايا التي وقعت عليها، بل والتشنيعات التي لاحقتها حتى يومنا المعاصر.

حكمة المدرسة:

وطالما أن الرئيس العيثان يعد أحد أبرز أعلام مدرسة آل البيت الحكمية التي زعمها الشيخ الأحسائي، فإن التعريج على الأسس الفكرية لهذه المدرسة، ومناقشة إشكالات المؤرخين عليها يعد من أوليات هذا البحث، حتى يمكننا في النهاية من رسم صورة تاريخية شاملة وصادقة عن ترجمة الرئيس العيثان، وعن مرجعيته العلمية، وتحديدا في منطقة الأحساء والقطيف وما جاورهما.

لقد أشرنا في الفصل الأول إلى انشغال الفلاسفة المتقدمين إلى محاولة الجمع أو التوفيق بين نظريات الفلاسفة اليونانيين القديمة وبين مبادئ الدين الإسلامي، وذلك بهدف رفع التضاد والتعارض بينهما. فجاءت نظرياتهم الفلسفية بخليط عجيب من التناقضات. راجع كتابنا آخر الفلاسفة، ص ١٣٠.

ومن أبرز تلك المحاولات التوفيقية تلك التي قام بها الكندي ومشكلة العالم وصلته بالله، حيث يوافق رأيه رأي علماء الكلام في عصره، ويخالف رأي ارسطو الذي قال بأن العالم قديم. كما أن الفارابي هو الآخر له محاولة توفيقية بين الفلسفة والدين، فهو يذهب إلى حقيقية واحدة، ولكن يعبر عنها بطرق مختلفة. لذلك عمد الفارابي إلى التوفيق بين آراء آرسطو وافلاطون الفلسفية في كتابه (الجمع بين رأي الحكيمين).

أما بالنسبة لابن سينا فله محاولات جادة في كتبه (الشفاء) و(النجاة) وفي كتبه

المتأخرة مثل (الإشارات والتنبيهات) رغم ميل ابن سينا للفلسفة الإشراقية تحديدا. إلا أن ابن سينا اعتمد على نظرية (الفيض) من جديد من أجل إتمام محاولته التوفيقية. المرجع السابق، ص ١٣٠.

وكذلك فعل الغزالي وابن رشد وغيرهما من المتكلمين والفلاسفة المتأخرين. رغم أن محاولاتهم تلك لم يكتب لها النجاح بسبب الآراء التي تبنوها في كتبهم، والتي تتعارض مع جوهر الدين الإسلامي.

إلا أن تلك المحاولات لم تتوقف منذ الصدر الأول للعهد الإسلامي، واستمرت تلك المحاولات في جعل الدين تابعا للفلسفة اليونانية حتى عهد الفيلسوف ملا صدرا الشيرازي، حين استشعر حجم الخطر الذي أحدق بالدين الإسلامي من جراء تلك النزعات الإصلاحية أو التوفيقية. فأراد ملا صدرا الشيرازي قلب المعادلة، وتغليب الدين على الفلسفة، فمزج مرة أخرى بين تراث الفلسفة الإسلامية، وبين علم التصوف وعلم الكلام الإسلامي. فكأن ذلك المزج شامل بهدف الإصلاح، وأسمى نظريته الجديدة (الحكمة المتعالية).

لكن ملا صدرا لم يستطع أن يُنقي حكمته المتعالية من شوائب الفلسفة اليونانية، وتمويهات الصوفية (و هكذا تحولت فلسفة ملا صدرا إلى نسيج عجيب، ونسق غريب من الأفكار، الأمر الذي أثار استحسان أغلب من جاء بعده، فأورثوه كرسي الزعامة، وأنه أعظم الفلاسفة على الإطلاق وحتى قيام الساعة) المدخل، ص ٢٣.

ولقد أدرك الشيخ الأوحد فداحة هذا الخلط العجيب في فلسفة ملا صدرا، فعمد جاهدا على تصحيحها وتنقيتها من الشوائب التي علقت بها. فكانت محاولة الشيخ (التوفيقية) جذرية، بحيث أعطت المتبوعية للنصوص القرآنية ولأحاديث آل البيت عليهم السلام، وجعل من الفلسفة تابعة لهذه النصوص (وقد اتخذ من فلسفة سلفه ملا صدرا هدفا للنقد، ليس من أجل النقد، وإنما أنموذجا للتصحيح، على اعتبار أنها الفلسفة الأكثر شمولية أو الأكثر مزجية) المرجع السابق، ص ٢٩.

وإلى هذا المنهج الفريد المبتكر يشير الشيخ الأحسائي في (شرح الفوائد)

حينما تحدث عن منهجه الحكمي ومناهج من سبقوه من الفلاسفة (وأنا لم أسلك طريقهم، وأخذت تحقيقات ما علمت عن أئمة الهدى عليهم السلام، ولم يتطرق إلى كلماتي الخطأ؛ لأني ما أثبت في كتبي فهو عنهم، وهم عليهم السلام معصومون من الخطأ والغفلة، والزلل، ومن أخذ عنهم لا يخطئ من حيث هو تابع، وهو تأويل قوله تعالى (سيروا فيها ليالي وأياما آمنين). ص ٢١

فالشيخ الأوحد جعل من نفسه تابعا أيضا لأقوال أهل العصمة، كما جعل من آراء الفلاسفة تابعة لأقوالهم أيضا عليهم السلام. فالشيخ الأوحد في الواقع لم يبتكر فلسفة جديدة، إلا أن الجديد الذي ادعاه الشيخ الأحسائي، والذي يمكن اعتباره منهجا جديدا في علم الحكمة هو منهجه الذي لم يعتمد فيه على القواعد المقررة مسبقا في علم الفلسفة وحده. بل ابتدع أدوات حكمية جديدة، وقواعد مبتكرة، معتمدا على النص القرآني وعلى أخبار آل البيت عليهم السلام. آخر الفلاسفة، ص ١٣٣.

وتمشيا مع هذا المنهج المبتكر اعتمد الشيخ على استنباط الأحكام العقائدية الإمامية من القرآن الكريم وأخبار أهل البيت عليهم السلام. أي أن الشيخ رأى أن استنباط الأحكام العقائدية من النصوص الشرعية، أولى من استنباط الأحكام الفرعية منهما، لأصالة العقائد الإمامية في الدين. فكر ومنهج، ص ٥١.

الإشكال الأول - الاتجاه الحكمي:

وما إن جاء الشيخ الأحسائي بهذا المنهج المبتكر، الذي يتكئ على القرآن الكريم والأحاديث المروية عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، حتى ثارت ضغينة الحسد عند بعض أهل الفلسفة اليونانية. وضاقوا ذرعا بالشهرة الواسعة التي حققها الشيخ الأحسائي، فأشكلواعلى نهجه الحكمي، وشككوا بالعديد من اجتهاداته الحكمية المستنبطة من النصوص الشرعية.

وينقل السيد محمد حسن آل الطالقاني قصة الإشكال الأول على شيخنا الأحسائي من قبل محمد تقي البر غاني الذي سارع إلى تكفير الشيخ الأوحد، لعدم نزول الشيخ ضيفا في بيت البرغاني، إبان قدومه إلى قزوين (و بدأ البر غاني يعمل

للانتقام من الأحسائي والوقيعة به. وأخذ يتحين الفرص ويتسقط كلامه للحصول على مدخل يلج منه، وممسك يتذرع به. وكان الأحسائي يتكلم مسترسلا في مجالسه الخاصة والعامة، ويتحدث عن استنباطاته وكشفياته، وكان مما قاله يوما: (إن الأئمة الإثني عشر هم العلل الأربع لسائر الخلق، وإن معراج النبي كان بالبدن الهورقليائي وغير ذلك. وحانت الفرصة البرغاني أن يلعب لعبته ويحقق رغبته، فأضاف إلى تلك الآراء بعض الكفريات ونشرها بين العوام. ونسب إلى الشيخ الأحسائي تضليل العوام بآرائه وغلوه في الأئمة وكفره. وقد جلب إلى صفه بعض علماء قزوين. ممن لم تكن له مع الشيخ عبد الوهاب علاقة حسنة ليطوّح بالاثنين وليستعين بأخوته) الشيخية، ص ٩٨.

ولم يكتف الشيخ البرغاني بتكفير الشيخ الأوحد بسبب تافه وصغير، إلا أنه كتب إلى علماء كربلاء والنجف وغيرها من البلدات الشيعية، يخبرهم بكفر الشيخ الأحسائي.

إذن لقد سبب الطرح الجديد الذي قال به الشيخ الأحسائي، لابتكار حكمة إسلامية خالصة تعتمد على فكر آل البيت عليهم السلام، سبب له الغيرة من بعض العلماء الذين هالتهم الشهرة الواسعة التي حصل عليها الشيخ الأوحد. فكانت -تلك الشهرة- دافعتهم للنيل منه شخصيا، والإشكال على استنباطاته العقائدية.

كما أن هذا المنهج الحكمي الجديد كما يصفه الميرزا حسن فيوضات (لم يكن ليروق للكثيرين، بما فيهم النخبة من العلماء والمتعلمين في سائر الحوزات العلمية) المدخل، ص ٣١. ولعل السبب لهذا الإشكال يرجع إلى أن الفاصلة الزمنية الطويلة بين فلسفة ملا صدرا وحكمة الشيخ الأحسائي، قد أسهمت في ترسيخ القواعد الفلسفية التي بنى ملا صدرا عليها فلسفته (الحكمة المتعالية) الأمر الذي أدى إلى أن أي طرح لقواعد حكمية جديدة، أو نقد للقواعد السابقة، يشكل خروجا عن المألوف، وخروجا عن ما هو سائر في الحوزات العلمية. فكان من العسير أن تتخلى الحوزات العلمية عن تلك القواعد الفلسفية السابقة لملا صدرا، بعد أن أصبحت منطلقا للعديد من المباحث الفكرية والعقائدية في الفكر الشيعي.

وأمام تهمة التكفير التي أطلقها البر غاني، ورفض بعض الحوزات العلمية لمنهجه الحكمي، باعتباره مخالفا لفلسفة ملا صدرا، التي بنواعليها منطلقاتهم الفكرية على قواعدها. بالإضافة إلى الاتهامات المتلاحقة التي اختلقها الخصوم عليه، دافع الشيخ الأوحد عن أفكاره وعن منهجه الحكمي، المعتمد على القرآن الكريم وأخبار آل البيت عليهم السلام، بأسلوب علمي، متخذا من الموعظة والمجادلة الحسنة أدوات لردوده. إلا أن الخصوم لم تكن تعنيهم تلك الردود، يقول السيد محمد حسن آل الطالقاني (وقد كثرت النسب إليه والتقولات عليه. وكان خصومه قساه للغاية، ومن حقهم ا يكونوا كذلك، بل يجب أن يكونوا كذلك. لأنهم لم يقصدوا بالخصومة إحقاق الحق وأبطال الباطل، لتتصف بالمرونة والعدالة والإنصاف، ولتراعى فيها أصول المرافعات وآدابها. بل كان الهدف هتكه وتشويه سمعته وتحطيم شخصيته. وهو وان كان قد فهم ذلك أخيرا وصرح أن الدافع الأول والأخير هو الحسد، لكنه كان غافلا عنه في بادئ الأمر لأنه ظل يناقش ويدافع ويحاجج) الشيخية، ص ١٠٤.

وفي ظل حركات التكفير والتهريج على الشيخ أحمد الأحسائي فقد عمد شخص إلى كتابه (كتابا وذكر فيه المذاهب الباطلة من مذاهب الملاحدة والزنادقة والصوفية والغلاة والمفوضة، ومذاهب أهل التثليث ومكائد أهل التلبيس كلها، ونسبها إلى ذلك العالم الرباني والولي الصمداني) دليل المتحيرين، ٥٨. فكان هذا الكتاب المجهول أيضا هو أول كتاب تاريخي يكتب ضد منهج الشيخ الأوحد الحكمي.

وإذا كان هذا الكاتب المجهول الذي لم يصرح السيد كاظم الرشتي باسمه، وكتابه الذي لم يصل إلينا، فإن غيره من الكتاب والمؤرخين تبرعوا لإصدار الاتهامات، والتشنيع على الشيخ الأحسائي ومدرسته الحكمية. ولقد تفاوتت الردود بين الاتهام والتهريج وبين المناقشة العلمية لأفكار المدرسة. ولعل من أكثر هذه الكتب التي تناولت فكر مدرسة آل البيت الحكمية بالمناقشة والرد والاعتراضات ما يلي:

١ -(هدية النملة إلى رئيس الملة) للاقا الواعظ الهمداني. ويعد من أوائل الكتب التي شنعت على شيخنا الأحسائي وطعنت في معتقداته. ولفقت

الاتهامات لمدرسة آل البت الحكمية.

٢- (بوار الغاليين) و(هدى المنصفين) للرد على الآراء الحكمية للشيخ الأوحد. وهما من تصنيف السيد محمد صالح القزويني الكاظمي.

٣ - (حياة الأرواح) للميرزا جعفر الاسترابادي، وفيه اعتراضات علمية عديدة على استنباطات الشيخ الحكمية.

٤ - (الاعتصام بحبل الله) للشيخ محمد الخالصي. واتهم فيه الشيخ الأحسائي وتلامذته بأنهم روجوا لظاهرة الغلو، حتى زعموا أن يكون الله خالقا ورازقا، وإنما الخلق والرزق للحقيقية المحمدية.

٥- (فوز العباد في المبدأ والمعاد) للشيخ مرتضى كاشف الغطاء. وناقش فيه آراء الشيخ الأحسائي، وأثار العيد من الإشكالات، وخاصة في مسألة التفويض. راجع كتابنا (آخر الفلاسفة) ص ١٥١-١٥٣.

٦- (الروضة البهية) للسيد شفيع الموسوي الجابلقي. يتهم الشيعة الإمامية بالفساد، ويتعرض لمدرسة آل البيت الحكمية بالتشنيع. ويرى أن الفساد جاء به السيد كاظم الرشتي.

٧- (البابيون والبهائيون حاضرهم ومستقبلهم) للدكتور العراقي عبدالرزاق الحسني. ربط فيه بين الشيعة الإمامية والبابية.

٨- (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) للمؤرخ العراقي الدكتور علي الوردي. وقد خلط في تاريخه (الحابل بالنابل) ونقل فيه العديد من الأخبار والروايات والأقاويل من دون تدقيق وتمحيص. وفي تاريخه الكثير من التشنيعات على الشيعة الإثني عشرية من اتباع مدرسة آل البيت الحكمية.

ولابد أن نشير أن هناك عشرات الكتب الأخرى التي حاولت النيل من الشيخ الأحسائي ومدرسة آل البيت الحكمية، وقد تصدى لها علماء المدرسة، وفندوا ادعاءاتها وإشكالاتها، ودحضوا بالدليل الشرعي التقولات التي صدرت في حق الشيخ ومدرسته الحكمية. وكان الشيخ الرئيس العيثان أحد ابرز الأعلام من هذه

المدرسة الذي قام بالرد والتوضيح على هذه الإشكاليات بصورة مباشرة حينا، وبصورة غير مباشرة حينا آخر. ونستطيع تلمس هذه الردود في العديد من كتبه، من أمثال (رسائل في الحكمة) و(هداية العباد إلى طريق الرشاد) وفي غيرهما من مصنفاته.

الإشكال الثاني. المنهج العقائدي:

استطاع السيد كاظم الرشتي والميرزا حسن كوهر، وغيرهما من أعلام مدرسة آل البيت الحكمية، من ترسيخ القواعد الأساسية للاتجاه الحكمي للشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي. وبفضل جهودهما وبحكم العامل الزمني، لم نجد إلا القليل من العلماء ممن ينتصرون للفلسفة اليونانية الوضعية، ويرفضون مدرسة آل البيت الحكمية. بل إن الإشكال الأول على حكمة الأحسائي المبتكرة، تحول إلى إشكال على ممن لا يأخذ آرائه الحكمية من القران الكريم وأخبار آل البيت عليهم السلام.

أي أن علماء المدرسة استطاعوا أن يقلبوا المعادلة تماما، فالإشكال الذي وجه للمدرسة الحكمية، أضحى إشكال توجهه المدرسة إلى المدارس الفلسفية الأخرى.

نعم أغلب مؤرخي الشيعة - اليوم - لا يصرحون بهذا الفضل، في تبني قواعد الحكمة الإسلامية، لشيخنا الأوحد، أما خوفا أو خجلا، أو ربما تحاشيا للإشكالات التاريخية التي قد تلحق بهم من جراء هذا التصريح.

إلا أن الإشكال الأول الذي وجه إلى مدرسة آل البيت الحكمية، كان بمعيته العديد من الإشكالات والتفاصيل بل والاتهامات العقائدية الأخرى. فبعد أن سلّم القوم، بأن الرجوع للقرآن الكريم والأحاديث الشريفة للمعصومين أولى بالرجوع إليها، واستنباط الآراء العقائدية منها، من الرجوع إلى الفلسفة اليونانية، عادوا وطرحوا العديد من الإشكالات العقائدية الأخرى.

ولقد حصرنا تلك الإشكالات العقائدية: في ثلاث مسائل: (الغلو) في آل

البيت عليهم السلام، واعتقاد المدرسة ب (الحقيقة المحمدية) حال تعلق المشيئة بها وربطها بها. والاعتقاد بأن الأئمة عليهم السلام هم (علل الوجود التامة)، أي أنهم علل جميع الخلائق. علّة فاعلية كونهم محال مشيئة الله، وألسنة إرادته، وأيدي إيجاده. وعلّة مادية لكون مواد الأشياء خلقت من فاضل أنوارهم، وأشعة وجودهم. وعلّة صورية لكون صور الأشياء من فاضل هيئات ذواتهم، وعلّة غائية لكون الأشياء السنة الثناء عليهم، وإياب الخلق إليهم، وكذلك الغلو في بيان (المقامات الأربعة) وذلك حين أشار الشيخ الأوحد إلى مقامات الأئمة عليهم السلام، النوراني، والمعاني، والأبواب، ومقام الإمامة. كما اتهم الشيخ الأوحد بالغلو، حينما أوضح معنى (التفويض) لآل البيت عليهم السلام. آخر الفلاسفة، ص ١٥٣.

ولقد نفى الشيخ الأحسائي وأعلام المدرسة تهمة (الغلو) هذه. ودافعوا عن تلك الآراء بمنطق علمي، مؤكدين على أن الأئمة الأطهار عليهم السلام، ليسوا سوى محال مشيئة الله، وواسطته العامة، وإنهم إنما يفعلون كل ذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى.

ولم تعد تهمة (الغلو) اليوم من التهم التي توجه لمدرسة آل البيت الحكمية. فقد حقق علماء المدرسة انتصارا كبيرا ومدويا. بل إن بعض المنتمين لبعض المدارس الفلسفية الوضعية، تبرؤوا من الاتهامات العكسية، بنقص عقيدتهم في آل البيت عليهم السلام. وأضحى الإيمان ب(الولاية التكوينية) هو اعتقاد كل شيعي اثني عشري، بعدما صرح بثبوتها للائمة الأطهار معظم الأعلام الكبار والمراجع العظام من أمثال الإمام الخميني في كتابه (الحكومة الإسلامية) والسيد الخوئي في (مصباح الفكاهة) والميرزا جواد التبريزي في (إرشاد الطالب) والسيد تقي الطباطبائي القمي صاحب (مباني منهاج الصالحين) وكذلك في جوابات الشيخ محمد تقي بهجه، وجوابات السيد صادق الشيرازي حول الولاية التكوينية. راجع كتابنا (أول المجتهدين) ص ١٠٦.

أما الإشكال العقائدي الثاني فهو المعاد الجسماني. حيث فهم بعض من شنع على الشيخ الأوحد من بعض عباراته في (شرح الزيارة) أن الشيخ الأوحد يقول بأن للإنسان جسدين. عنصري وأصلي. وأن الذي يعود للحساب هو الجسد الأصلي

وهو مركب من الروح. وكان الواعظ الهمداني والقزويني ممن شنعا على الشيخ الأحسائي بسبب هذا الفهم، واتهماه بأنه ينفي المعاد الجسماني.

وقد رد على هذا الإشكال أعلام مدرسة آل البيت الحكمية. ومع اتساع رقعة مرجعيات أعلام هذه المدرسة، وعلى مدى قرنين من الزمن، أصبحت هذه الإشكالية لا قيمة لها. وسقطت بحكم تناقضها مع واقع اعتقادات مراجع وإعلام هذه المدرسة. فلا نجد اليوم أحد من المؤرخين يجرؤ على القول أن الشيخ محمد بن عبد الله العيثان لا يؤمن بالمعاد الجسماني مثلا. أو أن الشيخ عبدالله بن معتوق القطيفي أنكر ضرورة من ضرورات الدين، ألا وهي المعاد الجسماني.

بل كيف يمكن لمدرسة حكمية تأخذ قواعدها من القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت عليهم السلام، أن تنكر هذه الضرورة، وهي أصل من أصول الدين الإسلامي.

ولو غامر أحد من المؤرخين - اليوم - واتهم الشيخ محمد حسين أبو خمسين أو الشيخ حبيب بن قرين، بإنكار المعاد وأنهما كافران، لأقيم عليه الحد الشرعي، لافتراءه بهذه الفرية العظمى عليهما.

ويبقى الإشكال العقائدي الثالث. وهو معراج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، فقد فهم بعض المؤرخين من أمثال السيد مهدي القزويني، ومحمد الخالصي وغيرهما، من كلام الشيخ الأحسائي، انه ينكر المعراج الجسماني للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. أي أن معراج النبي لم يكن سوى معراجا روحيا للسماء فقط.

ونؤكد أن المشنعين على الشيخ الأحسائي بالقول بالمعراج الروحي للرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، جاء من خلال شرح الشيخ الأحسائي للعروج للصورة البشرية في رسالته القطيفية. وذكر الشيخ الأحسائي احتمالين للعروج. الاحتمال الأول الصعود للصورة البشرية بصورة عامة، والاحتمال الثاني الصعود خاصة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم. فجاء اللبس من فهم الاحتمال الأول لإرادة الصعود. إلا أن الشيخ الأحسائي صرح في أكثر من قول بالعروج الجسماني للنبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، كما هو صريح كلامه في جوابات سؤالات الملا كاظم بن علي تقي السمناني، وصريح عباراته في

شرح الزيارة الجامعة. ولقد ثبت بطلان هذا الادعاء بصريح عبارات شيخنا الأوحد. راجع (آخر الفلاسفة) ص ٢٧٢-٢٧٩.

ودافع عن شيخنا أحمد الأحسائي معظم أعلام المدرسة من أمثال السيد كاظم الرشتي، والميرزا حسن كوهر، والشيخ إسماعيل الكاظمي. حتى لم تعد تلك الشبهة قائمة بعد أن برهن علماء الشيعة على بطلانها، حتى أنها لم تعد مطروحة في زمن الشيخ الرئيس العيثان. ولم تكن ضمن الأولويات بالرد والدحض مع تعدد المرجعيات الشيعية السائرة على نهج مدرسة آل البيت الحكمية، فقد اكتفى الشيخ الرئيس بإسهامات أعلام المدرسة السابقين في هذا المجال.

كما أن هذه الشبهة الحكمية لم تعد تشغل بال الذهن الشيعي، طالما أن جميع الشيعة متفقون حيالها، ومعتقدون بحدوثها طبقا لأراء علمائهم ومراجعهم في كل البلدات الإسلامية.

الإشكال الثالث: فتنة البابية:

توفي الشيخ أحمد الأحسائي عام ١٣٤٢ هجري، بعد أن أثرى الفكر الشيعي الأمامي بالعديد من أطروحاته الحكمية، وترك خلفه العديد من علماء الشيعة الكبار والمراجع العظام من أمثال السيد كاظم الرشتي المتوفى (١٢٥٩) هجري، والميرزا حسن كوهر المتوقي (١٢٦٦) هجري، والآخوند ملا محمد حجة الإسلام الممقاني المتوفى (.....) هجري والعالم العلام علي الاردبادي، والعالم الحكيم الميرزا عبد الرحيم القرباغي، والعالم العيلم الملا علي السمناني وغيرهم كثير من العلماء الكبار. عقيدة الشيعة، ص ٨١- ٨٢.

واستطاع هؤلاء الأعلام من تلامذته مع سائر علماؤنا الأعلام من الشيعة الإمامية من الدفاع عن الشيخ أحمد الأحسائي وتبرئة ساحته من كل ما نسب إليه من قبل بعض الفضلاء والمؤرخين.

وفي أواخر حياة السيد الرشتي، حضر إلى كربلاء من مدينة بوشهر الإيرانية،

رجـل يقال له علي محمد الشـيرازي، وكان الشـيرازي قد أمضى مـدة في متجر خاله في بوشهر، قبل أن يصل إلى كربلاء ويحضر فترة وجيزة دروس السيد كاظم الرشتي في كربلاء.

وبعد وفاة السـيد الرشـتي، ادعى علي محمد الشيرازي انه هو المهدي المنتظر وصاحب الزمان الذي تنتظره الشـيعة منذ قرون وذلك عام (١٢٦٠) هجرية. وعرف الشـيرازي بعد ذلك بالباب، وعرف انه (كان ماهرا جدا في سبك الادعاءات العجيبة الغريبة) البابيون والبهائيون، ص ٣٠. بل أن الباب قد اشتغل ولزمن طويل في ترويض نفسه في بوشهر، محاولا تسخير الشمس من على سطح داره، فاختلت عقليته.

فوجـد (كينيـا دالكوركي) السـكرتير في السـفارة الروسـية في طهـران ضالته فـي البـاب، فتظاهر دالكوركي بالإسـلام وتزوج مـن امرأة مسـلمة، وارتدى اللباس الحوزوي وسـافر إلى كربلاء، واندس في العديد من الدروس الحوزوية هناك، ومن ضمنهم دروس السـيد كاظم الرشـتي. فالتقى دالكوركي بالباب، فشـجع السـكرتير الروسـي علي محمـد الباب على ادعاء البابية، وإظهار ارتباطـه بإمام الزمان، ومنتظر الشـيعة، الذي ينادونه في ادعيتهم بالظهور. ولم تمض سـوى فترة وجيزة حتى سمع الايرانيـون أن إمـام الزمان قد ظهر، وعليـه فقد دنى أجل حكام الأمـراء القاجاريين. وقريبا سوف يعم العدل جميع أركان المعمورة. المرجع السابق، ص ٣٠ -٣١.

تلك كانت قصة نشوء البابية باختصار شديد، وكما لا يخفى أن شيخنا الأوحد توفي قبل أن يرى الباب بزمن طويل. توفي (١٢٤٣)هجري، وان السيد الرشتي توفي قبل أن يعلن الباب دعوته، توفي (١٢٥٨)هجري. إلا أن حضور الباب بعض الدروس الحوزوية عند علماء كربلاء ومن جملتهم السيد الرشتي، وجدها بعض الفضلاء من المؤرخين، فرصة جديدة لمعاودة التشنيع على مدرسة آل البيت الحكمية، بربط البابية بهذه المدرسة. ولو أن هؤلاء المؤرخين أنصفوا أنفسهم لما ربطوا البابية بمدرسة آل البيت الحكمية، لأن هذا الربط يسـيء للشـيعة الإمامية قاطبة، لما في البابية أو البهائية مـن نقض للدين، وهدم للمعتقدات. يقول المؤرخ الدكتور همايون همتي عند تأليفه كتابـه (البابيـون والبهائيـون) (كان الغرض منـه إثبات أن البهائية ليسـت دون أن تعد

تفسيرا جديدا للإسلام أو إسلاما جديدا فحسب، بل لا ينبغي عدها ضمن الشرائع الدينية أصلا، لاستحالة أن يضم دين ديني الهي أو شريعة سماوية ما يخالف العقل والوجدان قطعا. فكل الأديان الحق تصدّق في واقعها الأحكام العقلية والإيثارات الوجدانية، ولم نعرف دينا حكم بما يخالف مقتضى العقل الصريح) ص ٣.

ويضيف الدكتور همتي: أن مطالعاتنا للبابية ومؤسسها محمد علي الباب، أثبتت أن له العديد من الادعاءات، جاء كل ادعاء منها في زمن خاص. فتارة يدعي

الذكرية والبابية، أي أنه كان يرى نفسه مأمورا من قبل إمام العصر والزمان عليه السلام، ومفسرا للقرآن، وعارفا بالذكر، وأخرى ادعى القائمية، أي أنه هو الإمام المهدي القائم عليه السلام، ومرة ثالثة ادعى النبوة، وفي نهاية الأمر تطاول وادعى الألوهية.

فأي صلة للشيعة الإمامية ومدارسها بالبابية التي ادعى مؤسسها الإمامة والنبوة والألوهية معا!

بل أن حتى أقسى التشنيعات التي قيلت ضد الشيخ أحمد الأحسائي والسيد كاظم الرشتي، لم تتهمهما بأنهما ادعيا يوما الإمامة أو النبوة فضلا عن الألوهية. إلا أن كل ذلك لم يمنع السيد شفيع الموسوي الجابلقي المتوفى عام (١٢٨٠) هجري من إيجاد تلك الصلة بين السيد الرشتي والباب في (الروضة البهية) وقد نقل السيد محسن الأمين في الأعيان شطرا طويلا من تشنيع السيد الجابلقي. ج ٢٠، ص ٥٩٠.

ولا بأس بنقل اقتباسات قصيرة من (أعيان الشيعة) نقلا عن (الروضة البهية) للسيد شفيع الموسوي الجابلقي، التي حاول فيها تبرئة ساحة الشيخ أحمد الأحسائي، وإلقاء التهم على السيد كاظم الرشتي، وكل أتباع مدرسة آل البيت الحكمية: (فالطائفة الشيخية في هذا الزمان معروفة، ولهم مذاهب فاسدة، وأكثر الفساد نشأ من أحد تلامذته، السيد كاظم الرشتي، والمنقول عن هذا السيد مذاهب فاسدة لا أظن أن الشيخ يقول بها) ج ٢٠، ص ٥٩٠.

ولـم يخبرنـا السـيد الأميـن العاملي، ولا السـيد شـفيع الموسـوي ماهي هذه المذاهـب الفاسـدة! ولـم يخبالسـابق، ذا صـارت الشـيخية طائفـة! ولمـاذا كانـت ترجمتهمـا للشـيخ الأحسـائي مليئة بكلمات (أظـن ولا أظن)! ألا يعلم السـيدان أن بعض الظن إثم!

ويضيف السـيد شفيع الموسـوي (بل المنقول أن السيد علي محمد الشيرازي المعـروف بالبـاب، والذي يدعي دعاوى فاسـدة هو سـماه الباب، وكذا سـمى بنت الحاج ملا صالح القزويني قرة العين). المرجع السابق، ج ٢٠، ص ٥٩٠.

إلا أننا نقول أن دعوى السيد شفيع الموسوي الجابلقي، بتسمية السيد الرشتي للشيرازي بالباب، ولابنة القزويني بقرة العين أنها دعوى من دون دليل.

بـل إننا نـرى أن ما ذكـره الميرزا علـي الحائري فـي رده على (أعيان الشـيعة) واقتباسـاته هو الأقرب للواقع. فتسمية الشيرازي بالباب، ولابنه القزويني بقرة العين (غيـر بعيـد أن يكون ذلك من منسـوجات البابية، ترويجا لمذهبهم، كتسـميه الشـيخ والسـيد بالنوريـن، جلبا لنفوس التابعين، وبالأخص أهل إيـران فإن أغلبهم كانوا من أتباع الشيخ أحمد الأحسائي) عقيدة الشيعة، ص ٧٨.

ويؤكـد الدكتور المؤرخ همايـون همتي فرضية الميرزا علـي الحائري، فيقول في كتابه (البابيون والبهائيون) عن هذه التسمية تحديدا (في تلك الأثناء انضمت إلى صف البابيين امرأة حسناء ذات جمال ودلال تدعى (زرين تاج) ابنة الملا صالح البر غاني القزويني التي منحها البابيون فيما بعد لقب (الطاهرة) كما أسموها (قرة العين) أيضا) ص ٣٢.

ولم يكن السـيد شـفيع الموسـوي الجابلقي هو المؤرخ الوحيد في حشـد كل الإشـكاليات على الشـيعة من أتباع وعلماء مدرسـة آل البيت الحكميـة، بل جاء بعد الجابلقـي، مـؤرخ آخـر يدعى الآغا رضـا الهمدانـي المتوفى عـام (١٣٢٣) هجري وكتب كتابا أسـماه (هدية النملة إلى رئيس الملة) أهداه للميرزا السـيد محمد حسـن الشـيرازي نزيل سـامراء، به العديد من الإشكالات على مدرسـة آل البيت الحكمية،

وعـن (هدية النملة) يقـول الميرزا علي الحائري (ما وجدنا في هدية النملة كلمة حق قط في حق الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي، لما قابلنا ما نسب إلى الشيخ بكتبه ورسائله، فما وجدنا فيها شيئا مما نسبه صحيحا وموافقا، بل أكثر ما نسبه مما لم يفهم مراد الشـيخ أو تجاهل. وبعضه نسـبه إلى الشـيخ وهو من تلامذة تلامذته، وبعض ما نسبه إليه غير العبارة بل اخترع عبارة ونسبها إلى الشيخ) عقيدة الشيعة، ص ٩٤.

وبالطبـع فإن الإمام الشـيرازي – رئيس الملة – كما نقـل أعاظم طلبته لم يقبل هدية الهمداني ولم يرض عنها، بل وتأذى كثيرا بهذه الهدية، ولم يذيلها بختمه، ولم يقرظها بقلمه الشريف. المرجع السابق، ص ٩٥

لقد حاول المؤرخون المتقدمون من أمثال السـيد شـفيع، والهمداني، والسيد العاملـي إيجـاد رابـط وصلـه بين مدرسـة آل البيـت الحكمية وبيـن الحركـة البابية، وبالإضافة إلى هؤلاء السادة الثلاثة، هناك ثلاثة من المؤرخين المتأخرين رددوا نفس المقولات ونسجوا عليها أساطير في غاية الغرابة والخلط دون تدقيق أو تثبت.

وهـؤلاء المؤرخين الثلاثة هم: الأسـتاذ عبد الرزاق الحسـني، والدكتور علي الوردي، والأستاذ عبد الحسين الصالحي.

فالمـؤرخ العراقـي عبد الرزاق الحسـني المتوفى عـام (١٤١٨)هجري، كتب كتابـا أسـماه (البابيـون والبهائيون في حاضرهـم وماضيهم) ربط فيه بين الشـيعة من مدرسـة آل البيت الحكمية وبين البهائية. ويرى إن فكرة المدرسـة الحكمية إنما هي فكـرة الفرقة الباطنية التي نشـأت في القـرن الثاني للهجرة، وهي الأسـاس، والفكرة الباطنية ليست من تعاليم الدين الإسلامي.

ولا ندري لماذا بقيت الفكرة الباطنية متخفية طوال عشـرة قرون من نشأتها في القـرن الثانـي للهجرة، وحتى نجئ مدرسـة آل البيت الحكمية في القرن الثاني عشـر للهجرة!

ولقـد رد على إشـكالات عبـد الرزاق الحسـني العديد من العلماء والمشـائخ

الشيعة من مدرسة آل البيت الحكمية. فقد أفرد الخطيب علي الشيخ ابراهيم إسماعيل في كتابه (حقائق) فصلا ناقش فيه إشكالات المؤرخ الحسني.

أما نسبة مدرسة آل البيت الحكمية للباطنية التي قال بها الحسني فإن الخطيب علي يقول (نحن نأخذ على الأستاذ الحسني هذه السذاجة الفظيعة في تاريخه للواقع، تلك السذاجة التي كان من نتائجها أن نحل الشيخية إلى الباطنية، دون أن يتحقق من مفهوم الباطنية، والأساس الذي عليه يرتكز جوهر الفكرة) حقائق، ص ١١.

أما الكاتب الآخر فهو المؤرخ الدكتور علي الوردي المتوفى عام ١٤١٧ هجري، والذي كتب العديد من الكتب التاريخية منها (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) في ثمانية أجزاء، وفي الجزء الثاني من كتابه أرخ للمجتمع العراقي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، إبان السنوات الأخيرة من ولاية نجيب باشا، وقد اعتمد الدكتور الوردي في تاريخه لهذه الحقبة على مجموعة من المصادر التاريخية التي أرخت للمجتمع العراقي، من أمثال عبد الرزاق الحسني، وعبد الحسين ألصالحي، وعبود ألصالحي، وغيرهم من أمثال محمود شكري الآلوسي وعمر رضا كحاله.

وفي تاريخ الوردي وطبقا لمصادره من كتب البهائية، ربط الدكتور الوردي بين مدرسة آل البيت الحكمية وبين البهائية. إلا أن هذا الربط لم يكن بسوء النية؛ لأنه اعتمد على النقل دون تدقيق أو تحقيق أو تمحيص، وهذا شئ طبيعي من مؤرخ يكتب العديد من المجلدات، وعشرات الكتب، ويسود آلاف المقالات، فيهتم بجانب الكم بدلا من الكيف. فالمؤرخ - كما أوضحنا - يحتاج إلى العديد من الأدوات التاريخية، حتى يصدر أحكاما صحيحة. بل إن علم التاريخ أضحى اليوم فيه نوع من التخصصات الدقيقة، مثل باقي العلوم الأخرى.

ومن خلال مراجعتنا لهذه الحقبة التاريخية في تاريخ الوردي، نجد أن المؤرخ قد خلط (الحابل بالنابل) من دون قصد، ودوّن العديد من الأساطير، والكثير من العجائب عن تاريخ البهائية حينما ربطها بمدرسة آل البيت الحكمية.

وللدكتور الوردي العذر فيما ذهب إليه، لأننا لم نجد من بين مصادره مصدرا شيعيا واحدا من كتب أعلام مدرسة آل البت الحكمية. بل ُن أغلب مصادره كانت من المصادر البهائية، التي حاولت نسج العديد من الادعاءات حول ارتباط مذهبهم بمذهب آل البيت عليهم السلام وبأفكار الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي الحكمية، والسيد كاظم الرشتي، لما لهذين العالمين من قبول كبير عند العامة، وخاصة الإيرانيين في ذلك الزمان كما أشار الميرزا علي الحائري في (عقيدة الشيعة).

ولنتوقف قليلا مع تاريخ الوردي وهو ينقل لنا قصة (قرة العين) في مجلده الثاني، والتي صدرت في كتاب مستقل بعنوان (هكذا قتلوا قرة العين). فقد ولدت هذه المرأة في قزوين عام ١٨١٤ م، وسميت ب (زرين تاج) وهو اسم فارسي بمعنى (التاج الذهبي) لأنها ذات شعر أشقر، وكانت أسرتها من الأسر الدينية المعروفة في قزوين، ذات جاه ومكانه تدعى ب (آل البر غاني). ومن علماء هذه الأسرة والدها الملا محمد صالح. وكذلك الملا محمد تقي البر غاني وهو أحد أعمامها ووالد زوجها، وهو أول من كفر الشيخ الأوحد الأحسائي عند اجتماعه به في قزوين. وتميزت قرة العين بجمالها الفتان وذكائها المفرط، وقد بدأ نبوغها بالظهور منذ صباها الباكر. فكانت تستمع للدروس الدينية عند عمها وأبيها من خلف ستار، ثم بدأت تشارك في المجادلات الكلامية والفقهية.

وعندما بلغت قرة العين الرابعة عشر من عمرها زفت إلى ابن عمها الملا محمد بن الملا محمد تقي، ولم تمض على ذلك سوى مدة قصيرة، حتى قرر الزوج الهجرة إلى العراق لطلب العلم الديني، فسافرا معا إلى كربلاء. فمكث الزوجان في كربلاء ثلاثة عشر عاما تقريبا، ورزقا فيها بولدين. ثم عادا إلى قزوين عام ١٨٤١م.

وقبل هذه الفترة بزمن طويل كان عمها يشنع على الشيخ أحمد الأحسائي، ويعلن تكفيره له. إلا أن قرة العين وبعد رجوعها إلى قزوين، شرعت تكاتب السيد الرشتي، وتستفسر منه عن بعض المعاني الغامضة عليها في كتاباته، ثم قررت أن تهاجر إلى العراق مرة أخرى، وبالفعل سافرت قرة العين إلى كربلاء في عام ١٨٤٣ م، وكانت حينئذ في التاسعة والعشرين من عمرها، وفي قمة نضوجها. إلا أنها فوجئت

حين وصولها إلى كربلاء بوفاة السيد كاظم الرشتي، قبل أيام قليلة من وصولها إلى كربلاء. ص ٥ –٨.

ويضيف الدكتور علي الوردي (تجمع المصادر البابية والبهائية على أن قرة العين كانت من أوائل الذين اعتنقوا الدعوة البابية حيث أصبحت من (حروف الحي) الثمانية عشر، وأنها اعتنقت الدعوة يوم كان الباب لايزال في شيراز يدعو إلى نفسه سرا) ص ٩

وفي تاريخ الدكتور الوردي العديد من الإشكالات التي يلصقها بالشيعة الإثني عشرية من أتباع المدرسة الحكمية، ويرسلها إرسال المسلمات، وبالمقابل لنا إشكالات عديدة على مرسلاته تلك. أولها أن الدكتور الوردي اعتمد للتأريخ لهذه الحقبة من تاريخ العراق على المصادر البابية والبهائية بالدرجة الأولى بالإضافة إلى بعض التراجم الأخرى، ولم يكلف نفسه العناء للاطلاع على كتب الشيعة الإمامية التي أرخت لهذه الحقبة الزمنية.

وإذا لم يكلف الوردي نفسه العناء للاطلاع على المصادر الشيعية، فإنه أقحم الشيعة في الدعوة البابية، حيث يرى الوردي أن كل مصادره (تشير القرائن إلى أن الدعوة البابية أخذت تكتسب الأتباع في كربلاء تدريجيا، وكانوا كلهم من الشيخيين، غير أنهم كانوا يلتزمون التقية والتكتم) ص ١١. ولم يرصد الدكتور الوردي أي من هذه القرائن التي افترضها لارتباط الشيعة بالبابية.

بل إن الوردي وفي استعراضه لحكاية (قرة العين) أشار إلى العديد من القرائن – دون أن يدري – التي تؤكد أن الشيعة الإمامية من أتباع مدرسة آل البت الحكمية على خلاف مع البابية، وهم من طردوا البابية من كربلاء، وهم من أفتوا بقتل الباب نفسه – كما سيمر معنا بعد قليل – بعد محاكمته وإثبات بطلان دعواه في ادعاء النبوة. فلا صلة إذن بين الإمامية والبابية على الإطلاق، كما أن عدة دروس حضرها الباب في العراق على يد بعض علماء كربلاء، ومنهم السيد كاظم الرشتي ليست دليلا لارتباط الشيعة بالبابية.

وسنأتي بدليل قاطع على أن الشيعة الإمامية وعلماء مدرسة آل البيت الحكمية تحديدا، هم من دحروا قرة العين من كربلاء. ودليلنا من تاريخ ابن الوردي نفسه. حيث يقول بعد ذلك بأسطر قليلة (وفي شهر آب من عام ١٨٤٦ م. انتقلت قرة العين مع حاشيتها إلى الكاظمية، ويقال أن سبب هذا الانتقال أن خلافا حدث بينها وبين كبير الشيخيين الميرزا محمد حسن جوهر، فقررت الابتعاد عنه والذهاب إلى بلدة أخرى تستطيع أن تنفرد فيها من غير معارض تخشى بأسه) ص ١٢.

فإذا كان الشيخ الميرزا حسن الشهير بكوهر وهو أحد أعلام الشيعة من مدرسة آل البيت الحكمية قويا، وذو بأس على البابية، وعلى قرة العين، حتى هربت قرة العين من قوته وسطوته، وفرت من كربلاء إلى الكاظمية، فأي ارتباط بين الشيعة والبابية الذي يدعيه ابن الوردي! وكيف يدعي الدكتور الفاضل (أن غالبيتهم من (الشيخيين) الشيعة! وعلماء الشيعة هم من طردوا (قرة العين) من كربلاء.

أليس ذلك تناقض يصل بنا إلى حد الضحك؟ وشر البلية ما يضحك.

ومن ثم ينقل لنا الوردي قصة غريبة. يدعي أنها حصلت بمحض الصدفة، وهي قصة حصوله على كتابين مخطوطين: الأول من عبود الصالحي من كربلاء، والثاني من عبد الرزاق العبايجي من بغداد. وأن كل كتاب يرد على الآخر!

الأول كان باسم (عقائد الشيخية) وهو مخطوط ومكتوب بلغة عامية للملا أحمد الخرساني، والمخطوط الثاني هو دفاع عن قرة العين لشخص يدعى الشيخ سلطان الكربلائي، وينقل الدكتور الوردي صفحات طوال من المخطوط الأول للملا أحمد الخرساني الذي جاء بعنوان (عقائد الشيخية) ومن خلال قراءة تلك الصفحات، يتضح أن الخرساني ليس سوى بابي يرى بالتقية، ويعارض (قرة العين) لأنها رأت برفع التقية في الدعوة جهرا بالبابية. فما علاقة الكتاب الأول (عقائد الشيخية) بالشيعة الإمامية من أتباع مدرسة آل البيت الحكمية.!

أما المخطوط الثاني للشيخ سلطان الكربلائي، فهو يدافع عن قرة العين، ورفع التقية، ويدافع عن البابية بوضوح، ويرد على الملا أحمد الخرساني. ص ٢٤- ٣١.

فإذا كانت تلك مخطوطات البابية، فما هي علاقة الشيعة الإمامية بها؟! بل إن علماء الشيعة الإمامية وبالأخص العلماء من تلامذة الشيخ الأوحد هم من تصدوا لمحاربة البابية، وطرد قرة العين من كربلاء، كما يكرر الوردي ذلك - دون أن يشعر - في تاريخه. (و يبدو أن خصومها في كربلاء لم يسكتوا عنها، ولاسيما الميرزا محمد حسن جوهر رئيس الشيخيين، فأخذوا يبذلون جهودهم لتحريض الحكومة ضدها. وكان للميرزا محمد حسن صلة حسنه بالوالي استطاع أن يقنعه بوجهة نظره، مما اضطر الوالي أن يكتب إلى اسطنبول في شأن قرة العين ثم أمر بحبسها) ص ٣٣. فكيف - أيها الدكتور الفاضل - يجتمع الضدان عندك!

ونعود للقول إننا نعتقد أن تلك المخطوطات ليست إلا من منسوجات البابية، ونرى أنها لصدفة عجيبة أن يعثر الدكتور الوردي على مخطوطين قديمين، كل منهما يرد على الآخر! أما كونهما من منسوجات البابية فهذا ما سنشير إليه في الصفحات القادمة؛ حتى يتضح جليا لماذا دافع هؤلاء المؤرخين عن البابية وعن (قرة العين) تحديدا أكثر من دفاعهم عن (الباب) نفسه!

ويصوّر لنا الدكتور الوردي أن الملا أحمد الخرساني شيعي إمامي من مدرسة آل البيت الحكمية. إلا أن الواقع عكس ذلك تماما. فالملا الخرساني شخصية مجهولة لم نعثر له على ترجمة، ونرجح أن شخصيته من مختلقات البابية. فلم يكن الملا الخرساني شيعيا من تلامذة الشيخ الأوحد الأحسائي، ولا من تلامذة السيد الرشتي. وإن كان الأمر كذلك - إن صح وجود تلك الشخصية - فهو قطعا ليس من أعلام وعلماء الشيعة الإماميين الذين نهجوا نهج حكمة آل البيت عليهم السلام.

لذلك فإن إشكالات الوردي على ربط الشيعة الإمامية بفتنة البابية ليس لها منشأ تاريخي، ولا أساس ولا مصدر. بل العكس أن الوردي ينقل الدليل بعد الدليل - في تاريخه - على محاربة الشيعة الإمامية للفكرة البابية ومعتنقيها.

بل ويمكن نقل عشرات الأدلة من تاريخ الوردي نفسه لنقض تلك الصلة. فهاهو الدكتور الوردي ينقل عن الآلوسي ما يدل على ذلك. فقد كان بيت الآلوسي

هو سجن (قرة العين) حينما أمر الوالي بحبسها، ريثما يأتي الجواب في شأنها من اسطنبول.

وفيما كانت هي في بيت الآلوسي مسجونة لمدة شهرين، كان الآلوسي يجتمع بها، ويناقشها في أمر دعوتها الجديدة. لذلك فقد كتب الآلوسي بعد ذلك بزمن عن قرة العين في (مختصر التحفة الإثني عشرية) ونقل ابن الوردي شيئا منه (وأعظم أسباب ضلالهم النظر في كلام السيد الرشتي وشيخه الأحسائي، مع عدم فهم مقاصدهما منه، وحمله على ماهو بعيد عن الدين المحمدي بمراحل، ولذا كفرهم أصحاب هذين الرجلين أيضا، على ما سمعته بأذني من كبارهم) ص ٣٤. فهذه شهادة صريحة، ومن معاصر لتلك الحقبة، وشاهد عيان، بأنه سمع بأذنيه أن علماء الشيعة الإمامية ومن أصحاب وتلامذة الشيخ الأحسائي والسيد الرشتي الكبار يكفرون البابية. فأي صلة بعد ذلك للإمامية بهذه الفرقة المارقة عن الدين الإسلامي.

أما المؤرخ الثالث فهو الأستاذ عبد الحسين الصالحي، وتارة يلقب بالشيخ عبد الحسين الصالحي الذي كتب العديد من الكتب التاريخية، ومنها كتابه (الشموس المضيئة) ذكر فيه العديد من تراجم علماء أسرته، وقد نقل عنه السيد حسن الأمين صاحب (مستدركات الأعيان) في (دائرة المعارف الشيعية) ونقل عنه اغابزرك الطهراني صاحب (الذريعة) وغيرهما العديد من المؤرخين المعاصرين مثل السيد الشخص والشيخ العمران.

وبالإضافة إلى عبد الحسين الصالحي نجد مؤرخا آخر باسم عبود الصالحي، الذي نقل عنه الدكتور الوردي كثيرا في تاريخه ولا نعرف عنه شيئا، ولا نعرف الكثير عن هذين (الصالحَين) إلا أنهما من أسرة البر غاني العلمية الشهيرة في قزوين. وينقل السيد الأمين صاحب المستدركات عن عبد الحسين الصالحي كثيرا من مروي، فيلقبه تارة بالأستاذ (المستدركات ج٢ / ص ٣٠٠) ومرة بالشيخ (المرجع السابق ج٣ / ص ١٣٨) دون ذكر اسم المصدر الذي نقل منه عن الصالحي، ونرجح أن المصدر هو كتاب الصالحي (الشموس المضيئة)، ولم نجد للشموس المضيئة ذكرا في (الذريعة).

ومن خلال مراجعتنا لما نقل عن عبود الصالحي وعبد الحسين الصالحي، نجد تشابها في (نوعية) ما نقل عنهما. بالإضافة إلى تشابه كبير في منهجيهما الفكري.

فكلاهما يدعيان امتلاك مخطوطات قديمة لم يطلع عليها أحد من قبل، والبعض منها أعطي لعدد محدود من المؤرخين. فعبود الصالحي عنده مخطوطات عدة، أعار الدكتور علي الوردي بعضا منها مثل (عقائد الشيخية) بقلم الملا أحمد الخرساني. هكذا قتلوا قرة العين، ص ٧٠. ومخطوط (قرة العين حقيقتها وواقعها) بقلم الشيخ عبود الصالحي نفسه. المرجع السابق، ص ٧٠.

أما عبد الحسين الصالحي فهو الآخر يدعي أنه يمتلك العديد من المخطوطات، مثل ادعاؤه بوجود نسخة مخطوطة (رسالة في الاجتهاد والإخبار) للشيخ محمد تقي. ويقول الصالحي « عندنا منه نسخة « راجع المستدركات، ج ٣، ص ٢١٩، وأعلام هجر ج ٣، ص ٤٥٥.

ويمكن ملاحظة تشابه المنهج الفكري، والأسلوب الكتابي (لهذين الصالحَين). فكلاهما يشنعان على أعلام مدرسة آل البيت الحكمية، ويقحمان الشيعة بالدعوة البابية. فالصالحي الأول يكتب عن (عقائد الشيخية) بقلم أحد البابيين، إلا وهو الملا أحمد الخرساني. راجع هكذا قتلوا قرة العين، ص ١٥. ويواصل ألصالحي الثاني التشنيع على أعلام المدرسة من أمثال الشيخ محمد تقي الأحسائي، الذي يؤكد ألصالحي أنه كان من المنكرين (على طريقة أبيه وصرح بمعارضته الحادة له، ويطلب من الله المغفرة لأبيه ويرد فيها على أقوال أبيه) المستدركات، ج ٣، ص ٢١٩. ودليل الصالحي على هذا الادعاء فهو (عندنا منها نسخة) المصدر السابق، ج ٣، ص ٢١٩.

ولا نرغب أن ندخل في تفاصيل حكاية الإنكار هذه. أي إنكار الشيخ محمد تقي على منهج أبيه الشيخ الأوحد، بعد أن صرح الميرزا علي الحائري باختلاقها (إيهاما أن الرد والإنكار لم يكن فقط من الأغيار والأجانب حتى يرموه بالاشتباه والحسد وبعض الأغراض، بل رد عليه وأنكر حتى فلذة كبده وولد صلبه الذي لم

يتهم بشئ من تلك الأمور) عقيدة الشيعة، ص ٧٢.

ونعود للقول أن اختلاق قصة إنكار الشيخ محمد تقي، وارتباط الشيعة بالبابية، وكذلك تحريف تراجم أعلام مدرسة آل البيت الحكمية، قد اشتغل بها المؤرخون منذ أيام الشيخ أحمد الأحسائي، وبدأت بشكل ممنهج بعد رحيل الشيخ الأحسائي. وقد أشرنا إلى كتاب (دليل المتحيرين) للسيد كاظم الرشتي الذي صرّح بوضوح باختلاقات هؤلاء المؤرخين من دون رادع من خلق ودين. على أن الكثير من المؤرخين المتأخرين لم يكونوا سوى ناقلين أمينين لاختلاقات من سبقهم.

وإذا سلّمنا جدلا- وهذا أولا - أن الشيخ محمد تقي منكر على طريقة أبيه بشهادة الصالحي، فيجب علينا أن نسلّم أيضا أن الشيخ علي نقي هو الآخر منكر على أبيه، وهذا الافتراض عكس الثابت تاريخيا، كما ينقل السيد الأمين في مستدركاته عن الشيخ الصالحي. المستدركات، ج٣، ص ١٣٨.

فكيف مع اختلافهما - أبناء الأحسائي - في المنهج والطريقة يحضران دروسهما على يد نفس الأساتذة! بل إذا جاز للشيخ محمد تقي أن يحضر عند الشيخ محمد تقي البر غاني القزويني، فلا يجوز ذلك للشيخ علي تقي - وهو المنقاد لطريقة أبيه - أن يحضر دروس البر غاني.

ولا يمكن الادعاء أن الخلاف في الرأي لا يمنع التتلمذ والأخذ من الأساتذة؛ لأن الشيخ البر غاني لم يختلف مع الشيخ الأوحد، بل كفره، وكتب إلى علماء العراق لإشهار تكفير الشيخ الأحسائي، وسعى للتحريض على قتله، وتعدى الأمر للصدام الدموي بين الطرفين. الطالقاني، ص ٩٦.

لقد عدّد الشيخ عبد الحسين الصالحي أساتذة الشيخ محمد تقي الأحسائي، وأخيه الشيخ علي نقي، فإذا الأساتذة جميعا من آل البر غاني القزويني من أمثال: الشيخ محمد تقي البر غاني، والشيخ محمد صالح البر غاني، والشيخ محمد علي البر غاني القزويني، وملا أغا الحكمي القزويني، وملا يوسف الحكمي القزويني. راجع المستدركات، ج ٣، ص ١٣٨. ونقل أسماء هؤلاء الأساتذة للشيخ محمد

تقي والشيخ علي العديد من المؤرخين المتأخرين عند المرور بترجمة الشيخين الجليلين. أعلام هجر، ج ٢، ص ٤٢٦. رسالة شاه زاده، ص ١٥.

ثانيا: أن معظم إقامة الشيخ الأحسائي بصحبة أولاده كانت في مدينتي (يزد) و(كرمنشاه)، ولم يغادر كرمنشاه إلا في أواخر حياته. وإلى ذلك يشير السيد الشخص (رجع إلى كرمنشاه موطنه الأخير ووصلها عام ١٢٣٤ هجري فاستقبله ابن السلطان وعظّمه، وبقي فيها مدة طويلة زار خلالها العراق مرات عديدة. ولما توفي الوالي محمد علي ميرزا، اضمحلت كرمنشاه فغادرها المترجم له إلى (قزوين) ومن ثم إلى (طهران) و(شاه عبد العظيم) ثم توجه لزيارة الإمام الرضا عليه السلام) أعلام هجر، ج ١، ص ١٦٣.

وإذا ثبت أن ولادة الشيخ محمد تقي - الابن الأكبر - كانت قبل عام (١١٩٣) هجري. راجع رسالة شاه زاده، ص ١٤. وولادة أخيه الشيخ علي نقي عام (١١٩٣) هجري. المصدر السابق، ص ١٤. فإن عمريهما إبان وصولهما إلى مدينة (قزوين) شارف الخمسين عاما تقريبا. وبالتأكيد أنهما درسا خلال تلك السنوات المديدة من عمرهما، على يد أبيهما الشيخ الأوحد، وعلى يد علماء كبار آخرين في (يزد) و(كرمنشاه) وقبل ذلك في العراق، قبل أن يصلا مع أبيهما إلى قزوين بسنوات طويلة.

ويؤكد كل من كتب عن سيرة الشيخ الأحسائي، أنه يسافر عادة مع أولاده وأهل بيته وجمع من أصحابه. أعلام هجر، ج ١، ص ١٦٣. إلا من استثناءات محدودة مثل سفرته الأخيرة للحج.

وإذا سلمنا أن الشيخ محمد تقي والشيخ علي نقي رحلا إلى (قزوين) قبل أبيهما، ودرسا على يد علماء آل البر غاني. فأين أساتذتهما الآخرون في يزد وكرمنشاه والعراق؟

ثالثا: أن إقامة الشيخ الأحسائي في (قزوين) قصيرة جدا. كما أن الخلاف بين الشيخ الأوحد والشيخ محمد تقي البر غاني كان في بداية وصول الشيخ الأوحد

إلى قزوين. بل ومنذ الجلسة الأولى أو اللقاء الأول والبر غاني يضمر العداء للشيخ الأوحد، وينتهز الفرصة للنيل منه. الطلقان، ص ٩٦. الأمر الذي يرجح عدم تتلمذ أبناء الشيخ الأحسائي على يد أي من علماء آل البر غاني المعادين للمنهج الحكمي.

رابعا: لم ينقل لنا المؤرخون أي إجازة مكتوبة من علماء آل البر غاني للشيخين الجليلين. بل نقلوا أكثر من إجازة من والدهما لهما.

لقد حاول الأستاذ عبد الحسين الصالحي أن يضع لأسرة البر غاني هيمنة علمية وشرفا بتتلمذ الشيخين على يديهما. وأن لهم شرفا ويدا في (عدول) الشيخ محمد تقي عن منهج مدرسة آل البيت الحكمية.

المستدركات، ا فعله الصالحي (البر غاني) عن ما كتبه صاحب (موسوعة البر غاني الفقهية) من أن جدهم الشيخ محمد الملائكة البر غاني، قد ناقش الشيخ يوسف البحراني في جمع من أهالي قزوين وأرجعه عن أخباريته. المستدركات، ج٢، ص ٣٠٤.

إلا أنه من المعروف تاريخيا أن الشيخ البحراني كان يرجع للطريقة الوسطى. ويقول الشيخ البحراني أنها طريقة العلامة المجلسي. ولم يكن متطرفا واتجه إلى الأصول عندما أقنعه الشيخ الوحيد البهبهاني كما نصّ عليه العديد من المؤرخين. ولا ننسى أن الشيخ البحراني نزل كربلاء إبان المرجعية المطلقة للشيخ البهبهاني في كربلاء المقدسة. راجع (تاريخ الحركة العلمية) ص ١٢٥.

بل إن الشيخ محمد الملائكة القزويني وبسبب الصراع الدموي الذي حدث بين أصحاب المدرسة الإخبارية والشيخ المذكور حمّل الحكومة آنذاك إلى نفيه من قزوين إلى برغان. فكيف يكون مقنعا للشيخ البحراني للعدول عن منهج المدرسة الإخبارية؟!

وكما اختلق عبد الحسين الصالحي قصة الإنكار، أو نقلها من كتب آل البرغان، فإنه اختلق أساتذة للشيخ علي نقي والشيخ محمد تقي.

وأول الأساتذة المختلقين وعمه الشيخ محمد تقي البرغان، الذي بدأ بالصدام مع شيخنا الأوحد الأحسائي، وأعلن كفر الشيخ، والأستاذ الثاني جدّه الشيخ محمد صالح البرغان، وهو أحد أشد خصوم مدرسة آل البيت الحكمية، كما يصرّح عبد الحسين الصالحي نفسه. دائرة المعارف الشيعية، ج ١، ص ٣٠٩.

المستدركات، الرابع هما ملا أغا الحكمي القزويني، وملا يوسف الحكمي القزويني اللذان ناقشا الشيخ الأوحد في مجلس البرغان واشتركا في تكفيره. المستدركات، ج ٢، ص ٣٠٤.

إن مناقشاتنا لإشكالات المؤرخين، وخاصة تلك التي جاء بها عبود الصالحي وعبد الحسين الصالحي تحتاج - دون مبالغة - إلى مجلدات عدة. لذلك لا بد من التوقف الآن؛ لكي نكشف السرعن دفاع (الصالحيين)عن البهائية وعن قرة العين تحديدا..

لقد أشرنا أن عبود الصالحي كتب عن قرة العين كتابا بعنوان (قرة العين حقيقتها وواقعها) وكتب عبد الحسين الصالحي يقول عن قرة العين (كانت عالمة فاضلة، محدثة فقيهه، أديبة كبيرة، حافظة للقرآن، عالمة بتفسيره وتأويله، متكلمة خطيبة) إلى آخر سجعه وتمجيده لقرة العين. المستدركات، ج ٢، ص ٣٠٥.

أما عن أخوات قرة العين فيضيف الصالحي (الحاجة نركس: فقيهه محدثة، حافظة للقرآن، أديبة وشاعرة. والحاجة زهراء محدثة، حافظة للقرآن، أديبة وشاعرة، فقيهة مفسرة. والحاجة فاطمة مفسرة محدثة، حافظه للقرآن، فقيهة، أديبة كبيرة) المصدر السابق، ص ٣٠٥.

ولا غرابة في هذا الدفاع والتمجيد لقرة العين - ابنة الملا محمد صالح البر غاني - وأخواتها، لأنه يدافع عن جدته وخالاته. فالشيخ عبد الحسين الصالحي هو البقية الباقية من أسرة البر غاني كما يصفه صاحب المستدركات.

ونعود للقول أن الشيخ محمد الملائكة القزويني الذي تسبب في فتنة الصراع

الدموي مع المدرسة الإخبارية في مدينة قزوين، نفته الحكومة إلى برغان. وفي مدينة برغان أنجب ثلاثة أولادهم: الشيخ محمد تقي البرغان، والشيخ محمد صالح البر غاني – جد الأستاذ عبد الحسين الصالحي – والثالث هو علي البر غاني، والأخير هو من السائرين على نهج مدرسة آل البيت الحكمية.

فكان أن تزوج ابن الشيخ محمد تقي البر غاني ابنة عمه تاج زرين ابنه الشيخ محمد صالح البر غاني، – كما مر معنا – ولقبت ب (قرة العين). والتحقت بالبهائية وتفردت(قرة العين) لاحقا بقيادة تيار خاص بها.

وقد تسبب الملا محمد تقي البر غاني بصرعات دموية مع مدرسة آل البيت الحكمية، وكفر الشيخ الأحسائي، وعاد في التسبب في صراع مع إحدى التيارات البهائية، أدت إلى مقتله على يد أحد رجالاتها. فلقب بالشهيد الثالث. وأولاده يلقبون بالشهيدي، وأولاد أخيه محمد صالح يلقبون بالصالحي، أما أولاد أخيه الثالث ملا علي فيلقبون بالعلوي.

والغريب أن الملا محمد تقي البرغان قد كفر الشيخ الأوحد؛ بسبب فهمه لعبارة واحدة في الميعاد، في أحد كتب الشيخ الأحسائي، تفيد بالميعاد الروحي وليس الجسماني، مع أن الشيخ الأحسائي صرّح بعكسه. إلا أن ذلك التصريح لم يشفع للشيخ الأحسائي عند البر غاني، ورغم ذلك فقد دافع الملا محمد تقي البر غاني عن قرة العين – ابنة أخيه وزوجه ابنه – ولم ينظر إلى أنها من حروف الحي الثمانية عشر للبهائية، وأنها أحلت الفروج، ونسخت الشريعة المحمدية.

لقد اصطدم الملا البر غاني مع خصومها من البهائية، ووجد لها عذرا ومخرجا، وأرسل خاصة رسله وكبار مساعديه للإفراج عنها بعد أن حبست في دار الآلوسي كما أشار الدكتور علي الوردي في تاريخه. فراجع (هكذا قتلوا قرة العين) ص ٣٨.

وبعد وصول مرسول البر غاني لكربلاء أرسل المرسول رسالة للملا البر غاني يخبره فيها عن جهوده لإطلاق (قرة العين) من سجنها، وهذه الرسالة – طبعا – بحوزة عبود الصالحي وترجمها للعربية.

فإذا دافع الملا البرغان عن (قرة العين) رغم اعتناقها للبهائية، وحارب التيار البهائي المعادي لها، لكونها ابنة أخيه وزوجة ابنه، وأم أحفاده، فالقرابة تشفع لها وإن انسلخت عن الدين الإسلامي. وإذا دافع عنها الملا البر غاني، وهي ابنه الأخ، فلا غرابة أن يدافع عنها عبد الحسين الصالحي وهي أم أبيه وجدته.

بقي أن نقول ونحن نختتم هذا الفصل من بحثنا، أن الحكايات التي جاء بها عبود الصالحي وعبد الحسين الصالحي بحاجة إلى المزيد من البحث والتدقيق من قبل المؤرخين الإسلاميين.

ولن نزداد دهشة وعجبا إذا أكد لنا هؤلاء المؤرخون من أن عبود الصالحي وعبد الحسين الصالحي ليس سوى شخصية واحدة، باسمين مختلفين.

ومن منسوجات البر غانية في مخطوطاتهم قبل مئتين سنة، نقل المؤرخون عنهم ادعاءاتهم، بانتساب الشيعة الإمامية من مدرسة آل البيت الحكمية للبهائية رغم أن البهائية خرجت من صلب آل برغان.

الإشكال الرابع. إشكالية التسمية:

إذا أردنا تقليب صفحات التاريخ يوما لوجدنا أن من أهم الأفكار والمبادئ التي تقوم عليها الأمم والحضارات، وتعد من منار التاريخ، وعماد مصداقيته هي المبادئ الدينية. ذلك لأن القيم الدينية كانت ولا تزال (أهم عنصر في حياة الأمم، وهي لذلك أهم عنصر في تاريخها. فأكبر حوادث التاريخ التي أنتجت أعظم الآثار هو قيام الديانات وسقوطها، وأول المسائل الأساسية في الأزمان الغابرة وفي الأزمان الحاضرة المسائل الدينية) سر تطور الأمم، ص ١٢. ولو أن الشعوب رضيت باندثار أفكارها ومبادئها الدينية لكان ذلك أعظم حوادث تاريخ الكون على الإطلاق منذ نشوء البشرية.

إلا أن الشعوب لم تسمح باندثار أفكارها ومبادئها الدينية، وبذلك أصبحت تلك المبادئ المحور الرئيس لكتابة التاريخ. نجد تلك المبادئ الدينية ترتبط

بالإنسان المؤرخ ارتباطا نفسيا، يصعب معه النظر بحيادية إلى صفحات التاريخ. إن الموضوعية العلمية هي موقف وحكم، ولا يمكن التبرير للمؤرخ بالامتناع عن اتخاذ ذلك الموقف الموضوعي من قضايا التاريخ بحجة تجريد المؤرخ من فكره الآيدلوجي - وهو ينقب في حوادث التاريخ، وفي الفكر الإنساني - أمر عسير.

بل إننا نرى أن (طلب الحقيقة التي يتقيد بها المنهج التاريخي، يفرض أول ما يفرض، التخلي عن المشاعر والنزاعات الشخصية أو التأثر السياسي والتقيد بأقصى ما يمكن من الموضوعية) مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٩، ص ٧٣. أما إذا استسلم الباحث المؤرخ لهذه المشاعر والنزعات الشخصية، فإنه يقع في خانة المتعصبين، وحينئذ فإن آراءه وأحكامه التاريخية تصبح ذاتية بلا قيمة علمية بعد أن خان منهج البحث العلمي في قراءة التاريخ.

إن عدم التخلي عن المشاعر والنزعات الشخصية، يقود المؤرخ إلى نوع من أنواع التعصب. ذلك أن أساس التعصب هو عملية حكم مسبق pre-judging دون التحقيق، أو التدقيق في هذا الحكم المتسرع تجاه موضوع خارجي، أو جماعة أخرى، أو تجاهل كل فرد من أفراد تلك الجماعة بشكل منفصل. مجلة عالم الفكر، المجلد ٣٠، ص ٨٤.

أما التعصب الديني - عند المؤرخين - فليس سوى تلك الحالة من (التزامن والغلو في الحماس والتمسك الضيق الأفق بعقيدة أو فكرة دينية، مما يؤدي إلى الاستخفاف بآراء ومعتقدات الآخرين، أو محاربتها والصراع ضدها وضد الذين يحملونها، أو هي حالة مرضية على المستوى الفردي والجماعي تدفع إلى سلوكية تتصف بالرعونة والتطرف والبعد عن العقل والاستهانة بالآخرين ومعتقداتهم، وكثيرا ما يؤدي التعصب الديني إلى شق وحدة الأمة وإنكار الحقوق الاجتماعية والسياسية للفئات الأخرى، وهدم البنى الاجتماعية. المصدر السابق، المجلد ٣٠، ص ٨٤.

ومن خلال ذهنية التعصب تلك جاءت تلك الإشكاليات على منهج مدرسة آل البيت الحكمية. فمعظم المؤرخين لم يناقشونها بذهنية تاريخية منهجية، بعيدا

عن التعصب وما يحمله من رعونة وتطرف وتهويل. بل راحوا يكيلون لهذه المدرسة الشيعية التهم والأباطيل، ويلاحقونها بتلك الإشكاليات، في صراع فكري أسلحته الخديعة والمكر والتضليل.

ومن إشكالات الاتجاه الحكمي والفتنة البابية إلى إشكالية التسمية (الشيخية) التي أراد مبتدعها أن تكون سجنا وتشنيعا للاتجاه الشيعي الحكمي ومؤيديه. ولو أراد ناسج التسمية - الشيخية - بها التكريم أو التعظيم، أو حتى الوصف لما رفضها العقلاء. إلا أن مبتدع تلك التسمية أراد بها التشنيع على هذه المدرسة الحكمية، والفرز والإقصاء عن مدرسة الشيعة الكبرى التي تنتمي إليها وتفتخر بتمسكها بها. هذا الفرز الذي واجهه الشيعة من تلاميذ ومحبي الشيخ أحمد الأحسائي، بإطلاق لقب (الشيخية) عليهم قبل مائتين سنة تقريبا، سبقه فرز آخر قبل أكثر من ألف سنة، حينما أطلق عليهم لقب (الرافضة) لإقصاء مذهب التشيع من الجسد الإسلامي، وكما جاءت تسمية (الرافضة) من ذهنية التعصب التاريخية جاءت تسمية (الشيخية).

وكما استطعنا - نحن الشيعة - من تجاوز التسمية الأولى استطعنا أيضا من تجاوز التسمية الثانية بنجاح.

لم نستطع محو كلمة (الرافضة) من كتب التاريخ، إلا أن الفكر الشيعي استطاع أن يكون في صدارة الفكر الإسلامي بعطائه العقائدي والفقهي والعلمي، وفي مختلف المجالات الفكرية الأخرى.

ولم نستطع محو كلمة (الشيخية) من كتب التاريخ، إلا أن مدرسة آل البيت الحكمية بقيت إلى اليوم في مصاف المدارس الشيعية الأخرى بعطائها الحكمي والفقهي. وهذا هو المنهج العلمي لكتابة التاريخ، ولم يكن يوما تبادل الاتهامات، والتنابز بالألقاب منهجا من مناهج التاريخ، حتى ندرّسه لطلابنا. ولا منهجا حياتيا صالحا للعيش مع إخوة لنا في الدين والعقيدة والمبدأ.

ولو دققنا النظر في تاريخ الإنسانية منذ حضاراتها المبكرة، لهالنا كثرة الحروب والنزاعات المستمرة بين شعوبها. وبالتأكيد كان التعصب بكل أشكاله،

رائـدا لتلك الحروب والصراعات القديمة والحديثة معـا. وبالمقابل كانت هناك قلة في مختلف الحضارات تنتصر لحرية الفكر في مقابل كثرة تمارس التعصب البغيض بكل أشـكاله، وبقي الصراع في مختلف أدوار الحضارات القديمة والمعاصرة، ولم يخلو منه مجتمع من المجتمعات، وكانت منهجية التعصب: ضيق الأفق وأدواته من تكفير، ودسيسة، واتهام، وإزاحة، هي الأدوات المشروعة منذ ذلك اليوم وإلى اليوم. راجع كتابنا (أول المجتهدين) ص ١٣ - ٢٥.

وفي تاريخ الفكر الشـيعي الأمامي وجد هذا الصراع العنيف أيضا، وبرز منهج التعصب واضحا ضد العديد من أعلام ومجتهد الشـيعة الكبار في مختلف العصور. ولم يكن الصراع أو التعصب حالة نادرة، أو شـاذة ابتدأت بزمن الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي، أو ظاهرة تلاشت بعد بضع سنوات من زمانه.

بل لقد كان رواد التعصب حاضرون في كل زمان ومكان. لقد كانوا موجودين قبل ألف سنة حينما شنّوا على الشيخ المفيد (رئيس الملة) توفي عام(٤١٣) هجري، حملاتهم العشواء، يرددون بأنه (كان ضالا مضلا هو ومن قرأ عليه ومن رفع منزلته) أعيـان الشـيعة، ج١، ص ٤١٢. الروضـات، ج٢، ص ١١٨. رافضين دحض الفكرة بالفكـرة، ومقارعـة الدليـل بالدليل، متخذيـن من الفتـاوى الضيقة، وسـيلة لإقصاء الخصـم والقضـاء عليـه. إلا أن تلـك الفئـة التـي حاربت الشـيخ المفيد، قـد أغفلها التاريخ، وبقي رئيس الملة يملأ الزمان والمكان.

ولم يسلم العلامة الكبير محمد بن إدريس الحلي المتوفى عام (٥٩٨) هجري، من هجمات وحملات التشـنيع التي شـنّت عليه. ولم يكن ذنبـه إلا أنه رائد من رواد التجديـد فـي الفكر الشـيعي. فعد فقهاء ذلـك الزمان تجديد ابـن إدريس خروجا من الدين (ولم يقبلوا منه هذا التوجه المخالف للشـيخ الطوسـي، وثاروا عليه، وحصل بذلك أول صراع بين الجمود والتجديد في تاريخ الفقه الشيعي) الاجتهاد والتجديد، ص ١٥.

لقـد كان الاتجاه الديني العام في عصر الشـيخ ابن إدريـس الحلي عدم تجاوز

آراء الشيخ الطوسي، وأي رأي مخالف يقابل بردع قوي ومواجهة عنيفة. إلا أن ابن إدريس كتب كتابه (السرائر) وهو أشهر كتبه مناقشا لآراء الشيخ الطوسي، وطارحا الآراء الفقهية التي يخالفه فيها بكل جرأة، مستشهدا بالأدلة الشرعية التي تؤيد آراءه. فجوابه بعنف، ونسبت إليه صنوف التهم وأنواع الأكاذيب حتى قالوا عنه (مخلّط لا يعتمد على تصانيفه) الروضات، ج ٦، ص ٢٧٤. وعبر عنه بأنه شاب مترف، لأنه توفي وعمره خمس وعشرين سنة، وقيل خمس وثلاثين سنة. المصدر السابق ج ٦، ص ٣٧٦.

أما شيخ الإسلام وعماد المسلمين الشيخ محمد بن الحسين بن عبد الصمد (الشيخ البهائي) توفي عام (١٠٣١) هجري فلم يسلم هو الآخر من ثائرة التعصب الأعمى، ولم يتهم بالفسق فحسب، بل إن قراءة كتبه كانت سببا كافيا لتفسيق قارئها ورد شبهاته، كما اتفق على ذلك في بعض مجالس القضاء. أعيان الشيعة، مرجع سابق، ج ٩، ص ١٦٨. ولقد واجه الشيخ البهائي حملات عاتية من التشكيك والاتهام والأباطيل، حتى كثر حساده وأعداؤه، وأكثروا من التهم عليه وزادوا في الأكاذيب. فتمنى الشيخ البهائي أن والده لم يخرج به من جبل عامل إلى الشرق. وقال الشيخ البهائي واصفا موجات التعصب الضيق تلك (وآل الأمر أن تصدى لمعارضة كل جاهل وجسر على مباراة كل خامل) المرجع السابق، ج ٩، ص ٢٤٠.

ولم يكتف رواد التعصب هؤلاء بمخالفة الشيخ البهائي، أو دحض آرائه وأفكاره، بل رموه بكل تهمة في جعبتهم حتى لقد نسب إلى التسنن أحيانا. الأعيان، ج ٩، ص ٢٤٢.

لم تختلف أدوات التعصب من تهريج، وتكفير، وتشنيع من عصر إلى عصر. بل إن الشيخ محمد تقي(المجلسي الأول)، اتهم هو الآخر بالتسنن، بل صار ذلك عنه معروفا، رغم أنه أول من جمع ونشر حديث الشيعة بعد ظهور الدولة الصفوية. ثم اتهم بالتصوف أيضا. أعيان الشيعة، ج٩، ص ١٩٣.

وتوالت ذهنية التعصب البغيضة في ممارسة كل أشكال التدمير للطرف الآخر.

فهذا فخر المحققين الحلي، صاحب (شرح القواعد) المتوفى عام (٧٧١) هجري، لم يسلم هو الآخر، وهو بهذه المنزلة الرفيعة. فرشقوه بوابل التهم، ونغصوا عليه أيامه ولياليه، وأطلقوا عليه كل ما استطاعوا من تلك التهم والأباطيل والافتراءات حتى اضطر للهجرة والنزوح إلى أراضي آذربيجان، ولم تغفر له مكانته الرفيعة ولا مكانة والده العلامة الحلي العالية. فذاق من أعدائه صنوف التنكيل، حتى كتب بخط يده الشريفة، شاكيا إلى والده (فبكيت بكاء شديدا وشكوت إليه، قلة المساعد وكثرة المعاند وهجر الإخوان، وكثرة العدوان، وتواتر الكذب والبهتان، حتى أوجب لي ذلك جلاء الأوطان والهرب إلى أرض آذربيجان. فقال لي اقطع خطابك فقد قطعت نياط قلبي، قد سلمتك إلى الله فهو سند من لا سند له) روضات الجنات، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٣٢.

ولم ينته مسلسل التعصب، والجهل، والحقد الدفين على أعلام الشيعة ومراجعها الكبار، حتى اليوم. وقد واجه السيد محمد الحسيني الشيرازي (المجدد الثاني)، كل ألوان التهم والأباطيل من خصومه العابثين. يقول الدكتور محمد حسين علي الصغير (كان السيد الشيرازي طاب ثراه قد تعرض في حياته إلى حقد الحاقدين، واستهدف من قبل نفر ضال، وكان الشطط والبهتان والتزوير من معالم الحملة الظالمة التي واجهها بقلب سليم، وشق غبارها بعزم ثابت وشجاعة نادرة، فكان مظلوما من قبل هؤلاء، وكان ظلمه هذا ظلما فئوياً متعمدا، ولم يكن ظلما اجتماعيا فقد كان يمثل الصدارة في نظر المجتمع السليم، وكان يتبوأ مقعد الدق عند جمهرة المثقفين، وكان يحظى بتأييد شعبي منقطع النظير) الشيرازي موضوعيا، ص ١١.

وإذا كان فخر المحققين الحلي قد شكى وبكى من ظلم الإخوان، وتكاثر العدوان، فلم ينقل لنا التاريخ أن السيد الشيرازي - المجدد الثاني - قد بكى أو اشتكى يوما، من هذا الشطط والبهتان. ولم يأبه من الحملات الشعواء الظالمة التي وجهت ضده بل واجهها بشموخ الجبال، وبقلب امتلأ إيمانا وثقة بأن ما عند الله هو خير وأبقى.

ويوضح الشيخ المخزومي بعض جوانب الظلم والافتراء اللذين وقعا على

السيد الشيرازي (ومن فوارق الدهر، وتعاسة الأمر، أننا لم نجد مرجعا في الشيعة لا من قبل ولا من بعد، اضطر تلامذته إلى بيان شهادات اجتهاد أستاذهم، وإشادة أساتذته بعلمه، وإظهار دعمهم وتأييدهم له أكثر من الإمام المجدد الشيرازي رضوان الله تعالى عليه، وذلك لشدة الهجوم الذي وقع عليه، وحجم التشكيك الذي تعرض له أعلى الله مقامه) المجدد الشيرازي الثاني، ج ٢، ص ١٩٨.

إذا هكذا كانت منهجية التعصب البغيضة تجاه الأعلام، والمدارس الفكرية. فتارة ترميهم بكل ما في جعبتها من أباطيل، وتارة تحاول إقصاءهم، بإطلاق التسميات الإزاحية بحقهم، وتارة تعمد إلى التنابز بالألقاب، إمعانا في التشويه وإيذاء الخصم.

وبالفعل استطاعت تلك المنهجية أن تؤذي مدرسة آل البيت الحكمية، وحاولت بإطلاق اسم (الشيخية) عليها وهي في المهد أن تحاصرها فترة وجيزة. إلا أن هذا الحصار لم يدم طويلا. بل تمكنت مدرسة آل البيت الحكمية أن تكسر هذا الحصار وتنطلق، ويلتحق بركبها عشرات العلماء الشيعة الكبار، من شتى الأقطار الإسلامية، ويتكاثر محبوها ومؤيدوها في كل مكان، وكلما ظن البعض أن صوت مدرسة آل البيت الحكمية قد خفت هبّ صوت هذه المدرسة من جديد يملأ الدنيا فكرا وعلما، وحكمة، ولم نجد مدرسة على وجه الكون أسمى منهجا من منهجها، وأكثر عددا من علمائها. فكانوا هم الأكثر علما وفضلا وشهرة وعطاء فكريا وروحيا، منذ ثقة الإسلام الشيخ الكليني (توفي ٣٢١ هجري) ورئيس المحدثين الشيخ المفيد (توفي ٣٨١ هجري) مرورا بالشيخ الأنصاري (توفي ١٢٨١) وحتى العلماء المعاصرين ممن زانوا الكون فكرا وضياءا؛ لأن العمر الحقيقي لمدرسة آل البيت الحكمية التي تزعمها شيخنا الأوحد، يتجاوز الألف والأربعمائة سنة.

نعم كان الهدف من إطلاق تسمية (الشيخية) تارة و(الكشفية) تارة أخرى، على هذه المدرسة، إزاحتها عن الفكر الأمامي الشيعي. لكن تلك المحاولات لم تنجح قط. وقد تصدى أعلام ومحبو ومناصرو هذه المدرسة – على وجه الخصوص – بكشف حملات التعصب تلك. ولعل أبرز من تصدى لتلك التسميات، وحملات التنابز بالألقاب، السيد كاظم الرشتي في العديد من كتبه، ورسائله. محذرا من الفتن

التي تعصف بأبناء الفرقة الواحدة، والمذهب الواحد من جراء هذه التسميات، وبها يشمت الأعداء ويفرحون. يقول السيد الرشتي: (هذه فتنة عظيمة وبلية وخيمة قد عمّت هذه الفرقة، وأين هذا من مسألة الأصولية والأخبارية، فإن اختلافهما لا يوجب كفرا ولا فسقا) دليل المتحيرين، ص ٢٤. ويوضح السيد الرشتي مرة أخرى معاني التسميات (فالمراد بالشيخي والكشفي أصحاب الشيخ الأعظم والعماد الأقوم، والنور الأتم، والجامع الأعم، عز الإسلام والمسلمين، شيخنا وسندنا وعمادنا الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي أعلى الله مقامه) المرجع السابق، ص ٢٥.

وتوضيحات السيد الرشتي بمراد تلك التسميات، تشير إلى أن تسميات الشيخية والكشفية وبشت سرية وغيرها، كانت منذ زمن بعيد. أي منذ زمن السيد الرشتي، ولربما أطلقت قبل ذلك الزمان، أي منذ عصر الشيخ الأحسائي. ولكننا لا نملك تواريخا محددة لظهور هذا التسميات، ولا نملك معلومات دقيقة عن أول من أطلق تلك التسميات، التي أراد بها محاصرة مدرسة آل البيت الحكمية. راجع آل الطالقاني، ص ٢٢٦.

إلا أن توضيحات السيد الرشتي لتلك المسميات والألقاب بها إشارة واضحة، بأن المراد من إطلاقها هو إزاحة المدرسة الحكمية عن الفكر الإمامي الاثني عشري، وكذلك السخرية من هذه المدرسة وأعلامها، لذلك فقد أنكر علماء الشيعة الكبار السائرون على نهج المدرسة الحكمية تلك التسميات، لأنها تشق وحدة الصف، وتأجج الفتن بين الشيعة، وتضيع حقوق الأمة. وهذا ما أشار إليه الميرزا موسى الحائري في مقدمته لكتابه (إحقاق الحق) بقوله (ومنه تسرى الاختلاف إلى طائفة العوام والجهال والأنعام، فاتسعت دائرته وثارت ثائرته، فضيعوا في بعض الأمصار الحقوق الإسلامية، وقطّعوا الروابط الدينية، وجعلوا يتنابزون بالألقاب ويتغامزون بلا توقف ولا حجاب، بل ربما أودى في بعضها إلى سفك الدماء، وهتك الأعراض، وتحليل الحرام، وأعمال الأغراض، حتى عاملوا في بعض البلاد معاملة أهل الحرب، ولم يبالوا بكل أذية وقتل ونهب، وصار المرء يتبرأ ويفر من جده وأبيه وأمه وأخيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه) ص ٣١.

هـذا الخلاف الكبير الذي حدث بين أبنـاء المذهب الواحد، وبين أبناء الطائفة الواحدة، حتى صار قسـم من أبناء هذا المذهب الإمامي يسـمّون ب (الشيخية) عمل علـى تأصيله مجموعة من المؤرخين غيـر المنصفين، ومجموعة من الجهال العوام، بالإضافة إلى بعض المشتبهين الذين قذفوا هذه المدرسة الحكمية الإثني عشرية بشتى ألوان التهم دون تفكر أو تدبر. تلك ذهنية التعصب الكريهة التي حاولت إخراج أبناء الشـيعة الإمامية المحبين لمدرسـة آل البيت من دائرة التشيع، رغم أنهم أصل التشيع كما قال الميرزا علي الحائري في خاتمة كتابه (عقيدة الشيعة) واصفا الشيعة من هذه المدرسـة بأنهم (لبّ الإمامية وابن بجدتها وقمح الإثني عشـرية وخاصتها، وليسـت عندهـم طريقة خاصـة ولا مذهب خاص غير طريقة الإمامية الإثني عشـرية ولا نهج سـوى منهج الأصولية. لا يشـذ مسلكهم عن مسـلكهم، ولا طريقتهم عن طريقتهم) ص ٤٧. وهـذا تصريـح مهم مـن الميرزا علي وهـو أحد كبار علمـاء الإمامية الإثني عشـرية في حق هـؤلاء المؤمنين. فلا فرق بيـن أصحاب مدرسـة آل البيت الحكمية وبين المدارس الأخرى في المذهب الإمامي الاثني عشري في الأصول والفروع.

وإذا كان الأمـر كذلـك (لا يحـل فـي دين الله ودين الإسـلام أن يعـدوا هؤلاء فرقة قسـيمة للإمامية يدعون باسـم خاص ويلقبون باسـم مخصوص. إن هو إلا ظلم فاحش وخروج عن حدود الإسلام، وتنابز بالألقاب غير مرضي عند الله وعند أوليائه الطاهرين عليهم السلام، ومن أخرجهم عن الفرقة الإمامية وسـمّاهم باسم غير اسمهم، فهو مسـؤول يوم القيامة الكبرى. وكل من سـكت من الفضلاء ورضي بعمل المتغرضين الناسـبين لهؤلاء مـا لا يعتقدون، والمفتري عليهم بما لا يقولون، فهو مسـؤول أيضا ومعاقب يوم العرض الأكبر وليس بمعذور أبدا) المرجع السابق، ص ٤٧.

لقـد تعرض الشـيخ أحمد بن زين الدين الأحسـائي - كما تعـرض العديد من علمـاء الشـيعة - لأبشـع أنـواع الظلـم والجـور، . وكانت ذهنيـة التعصـب الضيّقة، تكيـل له ولأنصـاره ومحبيه كل أشـكال التهم، فلم يكـن هدفها الحـوار العلمي، أو إزالة الإشـكالات الفكرية في منهج الشـيخ الأوحد الحكمي. بل كان هدفها تحطيم الشيخ الأوحد الأحسائي والقضاء عليه. راجع آل الطلقاني، ص ١٠٤. إلا أن الشيخ

الأحسائي كان يتصوّر أن الخلاف بينه وبينهم خلافا علميا. لكن الأمر غير ذلك على الإطلاق، بل إن الخصوم كانوا قساة للغاية، ومن حقّهم أن يكونوا بهذا العنف، وبتلك القسوة؛ لأنهم لم يقصدوا بالخصومة إحقاق الحقيقة، ودفع الإشكال، ورفع صفحة الخلاف، حتى يمكن لهؤلاء أن يتصفوا بالمرونة والإنصاف قي خصومتهم مع الشيخ. بل كان هدفهم الأول هتك الشيخ الأوحد، وتشويه سمعته، وتحطيم شخصيته، وتسفيه آراءه. المرجع السابق، ١٠٦.

ولم يفطن الشيخ الأوحد -في بداية الأمر- لمقاصدهم فراح يرد عليهم بالدليل العلمي، ويفند إشكالاتهم، ويكتب داحضا أفكارهم. إلا أنه فطن في نهاية الأمر أن الدوافع وراء كل ذلك الحسد والذهنية البغيضة. ورغم ذلك فقد كان شيخنا الأحسائي رابط الجأش يحاورهم بعلم وبحكمة حوار الواثق من نفسه بأنه على حق. وأن مخالفيه في اشتباه كبير. راجع كتابنا آخر الفلاسفة، ص ١٠٤.

ورغم قوة حجية الشيخ الأحسائي، وعلو بيانه، وسمو همّته، إلا أنها لم تفلح مع هؤلاء، فلم يكن لهم مطلب إلا القضاء على شخصيته العلمية وإلى الأبد، ومن أشهر أقواله لهؤلاء (إن الأفكار والعقائد المنسوبة لي، لا صحة لها عندي ولم أدونها في كتاب، ولم أنطق بها في مجلس، فإن وجدتموها في مؤلفاتي، فهذه مؤلفاتي موجودة عندكم، فأحضروها وتصفحوها، وأحضروني معكم، فإن وجد بها ما اشتبه عليكم بينت لكم معانيها، وشرحت لكم مبانيها، واعلموا أنني لا أقول إلا ما تقول به الأئمة المحقة، والشيعة الإمامية الحقة، فأنا لا أدين إلا بما قال محمد وآله قلنا، وما دانوا به دنا. اتقوا الله ولا تشقوا عصى المسلمين ولا توقعوا الفتنة في الدين) دليل المتحيرين، ص ٢٤.

وبرغم ذلك القول البليغ، فإنه لم يجد القبول عند القوم الذين أفتى البعض بكفره وإن شهد المجني عليه بالشهادتين، وبالمقابل هناك العديد من أكابر علماء الشيعة ومجتهديها العظام ممن دافعوا عن المظلومين، ودافعوا عن الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي تحديدا. كما أن محبي الشيخ الأحسائي وتلاميذه دافعوا عنه أيضا. وفي سياق بيان ظلامة الشيخ الأحسائي يقول الميرزا حسن الحائري (أن المرحوم

الشيخ أحمد الأحسائي أعلى الله مقامه، مظلوم متهم، وقد افترى عليه الحاسدون لمقامه السامي، أو القاصرون عن معرفته ومعرفة علومه واصطلاحاته، أو الذين هم أيدي الأجانب في إثارة الفتن بين المؤمنين وإيجاد الاختلاف بين المسلمين) الين بين السائل والمجيب، ج ١، ص ١١٨. وقد دافع أصحاب العقول المستنيرة عن كل المظلومين من العلماء الشيعة الكبار تقربا لوجه الله سبحانه وتعالى.

كما أن محبي الشيخ الأوحد وتلامذته من المؤمنين الشيعة ممن دافعوا عنه، وكذلك المنصفين من العلماء والباحثين، الذين اعترفوا بصحة آراء الشيخ الحكمية، لم يسلموا هم أيضا من التشنيع والاتهام بل (رموا بالسهام التي رمي بها الشيخ، كما رميت الشيعة بالشرك، وعبادة التربة الحسينية، وغيرها من الافتراء والبهتان، ولقبوا كما لقبت الشيعة بالرافضة والترابية) المرجع السابق، ج ٢، ٢١٦.

لم تكن هذه التسميات والألقاب قد أتت من خلال بحث تاريخي، أو نقاش فكري. ولم يكن لها منشأ ديني أو عقائدي بل كانت الأهواء، والتساهل في النقل، وعدم التدقيق في ثنايا التاريخ هو المنشأ. وقد استخدم البعض من المؤرخين هذه التسميات غفلة، والبعض الآخر استغل - التسميات والتنابز بالألقاب - لإعادة شحن الأجواء من جديد، وبالمقابل دافع عن إشكالية التسميات عدد كبير من العلماء والمشائخ والكتاب لكن دون جدوى. كما سيمر علينا بعد قليل.

لقد واجه الشيخ الأحسائي في عصره الكثير من الحيف والجور والبهتان يقول الميرزا حسن الحائري حول هذا الأمر (لقد واجه قدس سره أعظم المصاعب وأشد المصائب ألا وهي مصيبة تكفيره، وقد رماه الحاسدون بالكفر، والتهموه بالغلو في حق المعصومين عليهم السلام، وبإنكار المعاد الجسماني، والمعراج الجسماني، وإنكار شق القمر، وحاشاه من كل مارموه به، وسموا تلامذته وأتباعه بالشيخية والكشفية، كما سميت الشيعة بالترابية والرافضة) الدين بين السائل والمجيب، ج ١، ص ١٢٠.

ولقد دافع الشيعة عن الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي، وخصوصا من محبيه وأنصاره، مستنكرين تلك التسميات التي تستهدف عزلهم، وإزاحتهم عن

المذهب الجعفري. ولنستعرض أمثلة أخرى غير التي مرت معنا قبل قليل – على لسان علماء الشيعة وكتابها – ومن مختلف العصور. فالخطيب علي بن الشيخ ابراهيم اسماعيل قال وهو يدافع عن تلك الجماعة الشيعية التي أخذت أفكار الأوحد العقائدية (لم يقروا لأنفسهم طريقة خاصة، تميزهم عن الشيعة الإمامية، ولا ادعوا أن شيخهم اخترع مذهبا جديدا، أو ابتدع نحلة خاصة، بل كل ما يمكن أن يقال عنهم: أنهم مالوا إلى آراء فلسفية معدودة لشيخهم، باعتبارها آراء معقولة في نظرهم، ومنطقية وموافقة للكتاب والسنة وإجماع الأمة موافقة تامة) حقائق، ص ٨.

ولم يكتف الخطيب علي بذلك، بل صرّح بوضوح أن تلك التسميات، إنما هي من تسميات الخصوم حتى يخرجوا تلك الجماعة الشيعية المؤمنة من مذهب الإثني عشرية. فتكون التسمية فارزة لهم، وباعدة لهم عن المذهب، بهدف القضاء عليهم ومحاربتهم (أما نسبة الشيخية إليهم، فإنما جاءت من خصومهم فيما بعد ليجعلوهم فرقة مناهضة للأصولية) المرجع السابق، ص ٨. إلا أن الصحيح أيضا أن مسمى (الشيخية) و(الكشفية) ليست التسميتين الوحيدتين في سلسة المسميات الطويلة، التي وصفت بها الجماعة المنتسبة لمدرسة آل البيت الحكمية. فقد أطلقوا عليها العديد من المسميات الأخرى مثل (الحلولية) و(الحشوية) و(الغلاة) و(الباطنية) و(البشت سرية) ورموا كل مافي جعبتهم من أسلحة هذه المسميات حتى يكون التشويه عميقا، والدمار شاملا، والكفر في حقهم صريحا.

وتصدى الحاج صالح السليمي – هو الآخر – في كتابه (أضواء على مدرسة الأحسائي) للرد على إشكالية هذه المسميات في معرض ردوده على (أعلام هجر) وأشار بوضوح إلى المغزى من إطلاق تلك التسميات على الشيعة المحبين لمدرسة آل البيت الحكمية، التي تزعمها الشيخ الأحسائي (إن من أطلق على أصحاب مدرسة الأحسائي لقب (الشيخية) هم خصومهم من أعداء الحكمة الإلهية ومن شايعهم على ذلك وتابعهم فيه، إما جهلا بحقيقة الحال أو رغبة لديه في التشنيع على المؤمنين والتهويل عليهم وتحميلهم مالا يحتملون) ص ١٢. ولم يكتف الحاج السليمي بتشخيص الداء عند إطلاق تلك التسميات، والتي هي نوع من أنواع التنابز بالألقاب،

بل وصف الدواء أيضا، وأعطى العبارات المناسبة عند التعرض للمدارس الشيعية الثلاث - الأخبارية والظاهرية والحكمية - خلال الكتابة التاريخية، وحين الكتابة في البحوث العلمية، بدلا من تأجيج الخلاف بين أبناء المذهب الشيعي الواحد (إنه من الأنسب والأعدل أن يميز بين الشيعة الإمامية، بالإشارة إلى مدارسهم الفكرية ومناهجهم في البحث والاستدلال، بدلا من تقسيمهم - ظلما - إلى طوائف وفئات منفصلة ومنعزلة بعضها عن البعض الآخر، ذلك أن ما يدينون به من معتقدات في أصول الدين واحدة إجمالا لدى جميع الأطراف، إنما الخلاف منحصر في أسلوب البحث ومنهج الاستدلال، فكل استنّ له اسلوبا ومنهجا، والنتائج المستخلصة لدى الأطراف واحدة في مجملها ومتشابهة في تفصيلاتها) المرجع السابق، ١٣.

إلا أن التيار المؤجج على الشيعة من محبي مدرسة آل البيت الحكمية، لم يستسلم يوما من مقاومة الحكمة الإلهية، التي قادها الشيخ الأوحد. كما أن المؤرخين - من هذا التيار - نقلوا بوعي أو من غير وعي هذه التسميات والمسميات، وأرسلوها إرسال المسلمات. فهي في نهاية الأمر، تخدم مصالح طبقات اجتماعية، وتؤجج صراعات داخل المذهب الشيعي الواحد يستفيد منها البعض، وإلى اليوم يقوم البعض من المستفيدين بشتم الشيعة على منابر المساجد، ومنابر الحسينيات، وليس ذنبهم الوحيد إلا تعلقهم بمدرسة آل البيت الحكمية التي تزعمها العديد من مراجع التقليد الكبار في شتى أقطار العالم الإسلامي، وكلما هدأت الفتنة، والتأم الجرح، جاء من ينكأ تلك الجراحات من جديد، حتى يحصل قادة التعصب هؤلاء على نياشين (الشجاعة) في مقاومة الشيعة من محبي المدرسة الحكمية. ولا بأس - عند بعضهم - من الإفتاء بقتلهم، وتأليب الحكام عليهم، ووصفهم بأنهم نواة للتكفير يجب استئصالها من المجتمع، طالما يحقق لهذا (المؤرخ) الشهرة الزائفة، والتصفيق المشبوه.

هذا نوع من المواجهة الاجتماعية، والمحاربة لفكر مدرسة آل البيت الحكمية (وأول نقطة من فيض هذا العنت الاجتماعي هو وصم مقلدي الشيخ الأحسائي بالشيخية، مما خلق عنتا اجتماعيا عبر التاريخ لم يكن للأحسائي ولا تلامذته يد فيه،

والتاريخ يشهد كم حاول السيد الرشتي كسر هذا العنت غير المبرر بسبب وجيه) الوعي المدرسي، ص ٢٨.

إن هذا العنت الاجتماعي الذي أشار إليه الشيخ القرشي إن اختص به مقلدي الشيخ الأحسائي، فما من أحد اليوم يقلد الشيخ الأحسائي لا في الأصول ولا في الفروع. ورغم ذلك فإن التسميات لم تزل باقية. كما أن هؤلاء المتعصبين لايحتاجون إلى (سبب وجيه) لكيل التهم والأباطيل، لأن الهدف بوضوح هو هتك شخصية الخصوم، والقضاء عليهم، دون رادع من دين أو وعي من ضمير.

لذلك فكلما كتب المدافعون إن هذه التسميات، ليست سوى تنابز بالألقاب، أصر بعض الكتاب من المؤرخين على إعادة تكرارها لمرات عديدة، ومهما ساق الشيعة من حجج على أن تلك التسميات ليست لها أصل أو منشأ عاد هؤلاء المؤرخون على إطلاقها من جديد - تقربا لوجه الله تعالى - مرة باسم الواقع التاريخي، ومرة أخرى بعنوان منهجية البحث العلمي. ولعل أوضح مثال بين أيدينا اليوم هو كتاب (أعلام هجر) للسيد الفاضل هاشم محمد الشخص، الذي ناقشه الحاج صالح السليمي في (أضواء على مدرسة الأحسائي) وبين للسيد الفاضل أن إطلاق لقب (الشيخية) على الشيعة، هو من باب التنابز بالألقاب. إلا أن السيد الشخص يردد هذه التسميات في كل جزء من أجزاء موسوعته، ويكتب الشيخ عبد المنعم العمران للسيد الفاضل الشخص كتابه (بصائر في حكمة الشيخ أحمد الأحسائي) موضحا (أن من لقب الشيخية بهذا اللقب نظر إلى المنهج الفلسفي لهذه المدرسة، ولم ينظر إلى مسلكهم في استنباط الأحكام الشرعية) ص ٩. فلم يكن رد السيد المؤرخ إلا أن عنون فصلا كاملا في (أعلام هجر) بهذا اللقب (مرة أخرى مع الشيخية) ج ٣، ص ٢٦٦. نكاية بكل الاعتراضات العلمية التي تلقاها السيد - المكتوبة منها والمنطوقة- كما صرّح في أعلامه (كما أن كثيرا من تلك الإشكالات قالها لي شفهيا أكثر من واحد من مقلدي ميرزا حسن الحائري) ج ٣، ٤٦٧.

والحقيقة لا يجب أن نستهدف تغيير هذه المسميات أو إزالتها من كتب التراجم، لأنه- وبكل بساطه - يمكن العيش معها. فقد عاشت الشيعة قرونا طويلة

بمسميات عدة مثل (الرافضة) و(الترابية) ولم يضرها شيء. إننا نستهدف هنا إظهار الحيف والجور الذي نزل بالشيعة من قبل بعض الكتاب والمؤرخين، بحجة البحث العلمي تارة، وبحجة التكليف الشرعي تارة أخرى.

إلا أن هناك فئة أخرى من هؤلاء المؤرخين نقلوا من غير دراية وفهم، ولنأخذ مثالا على ذلك. فهاهو (المؤرخ الكبير) الأستاذ عبد الرزاق الحسني في كتابه (البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم) يقرر أن فكرة الشيخية وليدة الفكرة الباطنية! وإذا كان هذا هو تأريخ من يلقب ب (المؤرخ الكبير) فلا عتب بعد ذلك على المؤرخين الصغار، فيما نقلوا وكتبوا في تواريخهم.

ولا عتب على المؤرخين اليوم بعد أن أُطلق هذا اللقب على الشيعة، منذ البدايات الأولى لمسيرة الشيخ الأحسائي الحكمية، ولاعتب على المؤرخ البعيد، بعد أن تعمّد المؤرخ القريب تأكيد وترسيخ هذه التسميات لأسباب عدة.

ولا ضير أن نشير سريعا إلى بعض أسماء هؤلاء المؤرخين والكتاب الذين وصفوا الشيعة بـ(الشيخية) بقصد أو من غير قصد، وسواء كان هدفهم التهريج أم التضليل. حتى انخدع بتلك التسميات العديد من المستشرقين الغربيين. بل إن بعض هؤلاء – رغم سقوطهم في شرك التسميات والمسميات – كانوا أكثر إنصافا للشيعة من مؤرخي أبناء جلدتهم.

ولعل الملا أحمد إسماعيل الخرساني هو أول من أطلق كلمة (الشيخية) على الشيعة في كتابه (عقائد الشيخية)، ولا نملك ترجمة دقيقة عن هذا الخرساني، ويظهر أن الملا أحمد الخرساني – على فرضية وجوده الحقيقي – قدم من إيران إلى كربلاء مع بدايات نشوء الدعوة البابية واعتنقها، وبعد مقتل الباب اختلف مع (قرة العين) في بعض المسائل العقائدية للبابية، فشن عليها هجوما عنيفا في كتابه (عقائد الشيخية).

والدكتور علي الوردي في كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) يشير إلى هذا الصراع العقائدي بين زعماء البابية، من خلال كتابين حصل عليهما صدفة (الأول منهما مخطوط عنوانه (عقائد الشيخية) وهو مكتوب بلغة عامية بقلم

الملا أحمد الخرساني، وينتقد فيه قرة العين ويشتمها ويسميها (بنت طالح). أما الكتاب الثاني فهو بقلم أحد اتباع قرة العين ويدعي الشيخ سلطان الكربلائي، وهو يرد فيه على الملا أحمد الخرساني ويدافع عن قرة العين) ج ٢، ص ١١٥. ومن خلال استعراض الدكتور الوردي للكتابين، يتضح لنا أن الخرساني والكربلائي هما بابيين، إلا أن الخرساني كان يعتقد - قبل أن يكون بابيا - ببعض العقائد الشيعية التي اخذها من كتب الشيخ الأوحد والسيد الرشتي. ومن خلال السياق العام للمخطوطة التي أوردها الدكتور الوردي لملا أحمد الخرساني، نعرف أن البابية قد لقّبت نفسها (بالشيخية) في بداية نشوئها، للتضليل والتدليس، وربما حتى تلاقي القبول من عامة الشيعة، لما للشيخ أحمد الأحسائي من مكانة عالية في ذلك الوقت، أو لربما أرادت البابية أن تشوّه الصورة الحقيقية للشيعة، فاختارت أفكار الشيخ الأحسائي لتنطلق منها، أو لا هذا ولا ذلك، أوأان المخطوطة بكاملها مزورة، ولا وجود لهذا المسمى أحمد الخرساني، وخاصة أن المخطوطة موجودة عند (عبود الصالحي) حفيد قرة العين، وأحد أشهر الكتاب المعاصرين للفكر البهائي، والمدافعين عن رموزه، وإذا افترضنا أن زمن المخطوطة هذه يعود إلى فترة ما بعد وفاة السيد الرشتي، والتسمية (الشيخية) موجودة إبان حياة السيد - كما أوضحنا قبل قليل - فإن الاحتمال الأكبر؛ هو أن البابية أرادت أن تعمّق هذا الشق في المجتمع الكربلائي، وتثير الفتنة بين أبناء المذهب الشيعي الواحد، بركوبها موجة الاتهامات والتدليس، حتى يتسنى لها نشر أفكارها الهدامة بين المسلمين عند تأجيج نار الخلاف، وإشعال الفتنة.

وبالإضافة إلى هذه المخطوطة للخرساني هناك مخطوطة أخرى لحيدر الكاظمي بعنوان (البارقة الحيدرية في نقض ما أبرمه الكشفية والرد على طريقة الشيخية) من مخطوطات مكتبة الإمام الصادق في حسينية آل حيدر في الكاظمية. إلا أننا لم نطلع على تلك المخطوطة ولا نعرف تاريخها.

أما عن أشهر الكتب المطبوعة والتي وصفت عناوينها الشيعة بمسمى (الشيخية) حتى تكون الفتنة أشد، والطعنة أعمق فهي كتب محمد الخالصي. وجاء عنوان أول كتبه هكذا (الشهاب الثاقب في رجم الملاحدة والشيخية والنواصب) عام ١٣٧٤

-١٩٥٥. أما عنوان الكتاب الثاني (الشيخية والبابية أو المفاسد العالمية) طبع في بغداد من دون تاريخ. وقد رد علماء الشيعة على كتب الخالصي وتخرصاته.

وكتب مهدي السويج (عقائد الشيخية من كتبهم) طبع بغداد عام ١٣٦٩ - ١٩٥٠. حيث أخذ السويج مقاطعا متجزئة من كتب الشيخ الأحسائي والسيد الرشتي، وفسرها طبقا لذوقه الخاص، وشن هجوما عنيفا على مدرسة آل البيت الحكمية، وأخرجها من دائرة الإسلام.

ومن أشهر الكتب المعاصرة التي حملت مسمى الشيخية عنوانا لها، كتاب (الشيخية) للسيد محمد حسن آل الطالقاني، الصادر عام ١٩٩٩ م. والكتاب دراسة تاريخية جادة، ودقيقة كتبها السيد آل الطالقاني منذ عام ١٩٧٤ م لنيل درجة الماجستير من الجامعة اليسوعية النصرانية في لبنان. وعلى الرغم من الطابع العلمي للدراسة، إلا أن السيد آل الطلقاني وقع في العديد من الأخطاء الصغيرة، بسبب الهيمنة التاريخية على ذهنية المؤرخين لسنوات عديدة. أما الدراسة المعاصرة الأخرى فجاءت بعنوان (المدرسة الشيخية) لمحمد زكي ابراهيم، وصدرت عن دار المحجة عام ٢٠٠٤ م. وأشار الكاتب في مقدمته، أنه تعرض لهذه المدرسة بحيادية تامة، محاولا فهم طروحاتها بطريقة علمية خالية من التعقيد. حشّد الكاتب فيها الكثير من المعلومات، والكثير منها، معلومات غير موثقة، ولا يمكن الاتكاء عليها. كما أن مناقشة العقائد الشيعية الحكمية لمدرسة آل البيت، تحتاج إلى الكثير من فهم المقدمات، والدراية، والاطلاع في هذا الجانب، وهو ما لم يتوفر في هذا الكتاب.

تلك أبرز الكتب التي حملت عناوينها لفظة (الشيخية)، إلا أن هناك العديد من الكتب الأخرى التي هاجمت مدرسة آل البيت الحكمية، وعلماء الشيعة، ولكن تحت عنأوين مختلفة مثل (هداية النملة إلى رئيس الملة) للهمداني.

وبعد كل ذلك أصبح إطلاق مسمى (الشيخية) على الشيعة الإمامية التابعين لمدرسة آل البيت الحكمية، من المسلمات في كتب التراجم والتاريخ، واختلط الأمر على المحب لهذه المدرسة والمبغض لها، فأخذ يسميها بما تكره دون الشعور

بالذنب، أو الإحساس بالجرح العميق الذي يسببه للمؤمنين الشيعة. حتى نجد أن أحد المشائخ الكبار، وأحد رواد الإصلاح الاجتماعي في منطقتنا يردد هذه المسميات غير ملتفتا إلى أنها نوع من أنواع التنابز بالألقاب. يقول الشيخ الفاضل حسن الصفار (كان اختلاف المدارس الفقهية والفكرية داخل المجتمع الشيعي الواحد سببا للنزاع في بعض الأحيان، وللقطيعة في أحيان أخرى فيما بين الأصولي والأخباري والشيخي، ولكن حاليا ماعاد هذا التنوع في المدارس سببا للنزاع أو الاختلاف، إلا ضمن رواسب وبقايا قليلة غير مؤثرة) الإمام علي وقضايا الأمة، ص ١٨.

هذه نظرة متفائلة من الشيخ الفاضل، نعتقد أنها سائدة في المجتمع الشيعي اليوم. إلا أن هناك قلة تعمل على خلاف النظرة التفاؤلية، ونضيف إلى كلام الشيخ الصفار، حول النزاع بين الأصولي والشيخي، قائلين أن مدرسة آل البيت الحكمية هي الأخرى أصولية النشأة والريادة تدين بمعتقداتها في الأصول كما تدين به المدارس الشيعية الأخرى بلا خلاف يذكر، ويقلد أتباعها - كغيرهم من الشيعة الإمامية - في الأحكام الفقهية مراجع التقليد من العلماء، طبقا للقواعد الشرعية.

ونعتقد جازمين أن شيخنا الفاضل حسن الصفار من أبرز المحبين لمدرسة آل البيت الحكمية، ومن أبرز المدافعين عن مظلوميتها على الساحة الإسلامية. يتجلى ذلك في كتاباته وفي خطبه العديدة، التي تؤكد على جانب المظلومية لزعيم المدرسة الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي.

نعود للقول أن قبل ذلك بزمن طويل تردد مسمى (الشيخية) في العديد من أمهات الكتب، وعلى لسان مترجمين رواد، ومؤرخين كبار. وكل له أهدافه وغاياته في إطلاق هذه المسميات، وإشهار التنابز بالألقاب، ويكفي أن نشير إلى (أعيان الشيعة) للسيد محسن الامين العاملي، ج ٢، ص ٥٨٩. الذي أطلق حملة التنابز بالألقاب، وكذلك (أحسن الوديعة في تراجم أشهر مجتهدي الشيعة) ج٢، ١٠٨. ونقل تلك الألقاب والمسميات عن (أعيان الشيعة) الشيخ عبد الله نعمة في كتابه (فلاسفة الشيعة) ص ١٣. وكتاب (الأعلام) لخير الدين الزركلي، ج ١، ص ١٢٩، وقاموس (المنجد) ص ٥١٢، وكتاب (الفهرست المفيد في تراجم أعلام الخليج)

لأبـي بكر عبد الله بن محمد الشـمري، ج ١، ص ١١. وغيرهـا من الكتب والتراجم والموسوعات التي فصلنا جنايتها على الشيعة من مدرسة آل البيت الحكمية في كتابنا (أول المجتهدين) ص ٢٧-٦٧.

وانضمـت (دائـرة المعـارف الشـيعية) للسـيد حسـن الأميـن لهـذه الحملـة، واستكتبت عبد الحسين الصالحي حفيد (قرة العين)، ليؤجج حملة التنابز بالألقاب) ويؤكد هذه المسميات أكثر من مرة في الموسوعة. ج ٧، ص ٣٠٩. واستكتبت الدائرة أيضـا الدكتور عبد الهادي الفضلي، الذي أكد على أن أكثرية فرق الشـيعة أصوليون، والقسم الثاني شيخية وهم قليلون!. دائرة المعارف، ج ٢، ص ٣٩٩.

وأشـرنا قبـل قليل ن المستشـرقين قـد اسـتخدموا تلك الألقاب والمسـميات ودونوها في مؤلفاتهم، وأرسـلوها إرسال المسلمات. من أمثال المستشرق دأويت. م. روند لسـن في كتابه (عقيدة الشـيعة) ص ٣٤٩. حيث تحدث عن قيام الفرق التي لها علاقة بالشـيعة في الأزمنة الحديثة: (في نهاية القرن الثامن عشـر ظهرت فرقة من المارقيـن علـى المذهب الشـيعي وهم (الشـيخية) وكانوا في أول الأمـر جماعة من المريدين التفوا حول الشيخ أحمد الأحسائي) ص ٣٤٩. وكذلك المستشرق هوارت C I Huart الـذي كتـب مقـالا مفصـلا عن (معتقدات الشـيخية) في دائـرة المعارف الإسلامية، ج ٤، ص ٢٧٩. والمستشرق أ. ل. م نيقولاس Nicolas.A.l.M الفرنسي الذي هو الآخر كتب مقالة مطولة عن (الشيخية) ونشرت في طهران ١٩٣٣ م القسم الأول، ص ٦٠.

أما المستشرق الفرنسي هنري كوربان H. corbin فهو يعد من أبرز المستشرقين اعتدالا وأنجحهم في نشـر الأفكار الفلسفية لحكماء الشيعة، وكتب الدكتور كوربان عدة كتب عن هذه المدرسـة، وناقش تحديدا تلك المسـميات والألقاب - الشـيخية - التي وسمت بها الشيعة الإمامية. إلا أن الدكتور كوربان يضيف (وعلى الرغم من كل ذلك، فلاشك أن الشيخ لم يكن في حسبانه قط أن يكون مؤسسا لمدرسة متميزة، وإنمـا كان مطمحه الوحيد التمسـك التام بالتعاليم الشـاملة لأئمة المذهب الشـيعي الإثني عشري، وإحياء علومهم وبثها من جديد) نظرة فيلسوف، ص ٣٦.

ولم يكتف الدكتور كوربان بهذه الشهادة في حق الشيخ الأحسائي بل أكد وهو الأستاذ البارز للدراسات العليا في جامعة السوربون، أن لقب (الشيخية)، لا يصف هذه المدرسة الإثني عشرية، فاقترح اسما بديلا لهذه المدرسة (ولهذا يبدو من الأصوب والأفضل إطلاق اسم المدرسة (التكاملية) عليها) المرجع السابق، ص ٣٦.

وإذا كان المستشرق الفرنسي هنري كوربان قد تنبه لخطأ التسمية، وهو الفرنسي البعيد، فإن العديد من الكتاب والمؤرخين الذين يعيشون بين ظهرانينا لم يتنبهوا لهذا الخطأ الشنيع.

إلا أن غير كوربان من المستشرقين الغربيين، رددوا لقب (الشيخية) من باب الوصف تارة، ومن باب المدح تارة أخرى، من أمثال محمد علي أمير معزي، أستاذ الدراسات الإسلامية في قسم العلوم الدينية في معهد الدراسات العليا في باريس. مجلة الساحل، عدد ٥، ص ٩٥. إلا أن المستشرق معزي الذي يكتب عن (تفسيرات الشيخية للغيبة) تناولها من خلال وجه نظر المدرسة الكرمانية. فقد تناول آراء عدد من علماء ومشائخ مدرسة كرمان، من أمثال الشيخ محمد خان كرماني، وزين العابدين كرماني، وأبو القاسم خان الكرماني وغيرهم من كتب المدرسة الكرمانية، التي عدّت المدرسة الشقيقة للمدرسة الحكمية في تبريز.

أما المستشرق الأمريكي جوان.دي. كول أستاذ التاريخ في جامعة متشجان الأمريكية، فإنه يكتب عن التصوف عند الشيخ أحمد الأحسائي، من خلال رفض الذات. إلا أن مقالته المترجمة هذه، والتي يرى فيها أن الشيخ الأحسائي هو (من بين أعظم الثيوصوفيين والصوفيين المسلمين) قد خلط فيها (الحابل بالنابل) أنظر مجلة الساحل، عدد ٣، ص ٩٨.

الإشكال الخامس.إشكالية المرجعية:

لعل أسوأ ما يمكن أن يقع فيه المؤرخ من أخطاء تصوراته في معظم الأحيان أنه كان دائما على حق، وأن تاريخه يمثل خطا صاعدا باستمرار، ومثل ذلك في السوء تصوره أن كل ماضيه خطأ وتخلف. لذلك فإن هذا الماضي لا يستحق منه

الالتفات والمراجعة. إن هذا التصور وذاك يحملان المؤرخ على تدوين المزيد من الأخطاء، والوقوع في كثير من المآسي وخيبات الأمل. لذلك على المؤرخ أن ينظر إلى التاريخ، نظرة علمية متوازنة، ومن خلال هذه النظرة المتوازنة للتاريخ، فإن من الخطأ أن تحكم عليه بالصواب المطلق، كما هو من الخطأ أن تحكم عليه بالخطأ المطلق أيضا. حركة التاريخ، ص ٢٢.

ووفقا لهذه الرؤية المتوازنة للتاريخ، يمكن لنا أن نرصد مسيرة مدرسة آل البيت الحكمية، ونحكم عليها من خلال هذه النظرة العقلانية لقراءة التاريخ الشيعي. لذلك فلا خجل يمنعنا من القول أن هذه المدرسة الحكمية قد تعرضت – خلال مسيرتها – إلى عقبات عالية، وحروب قاسية، وإشكالات عديدة.

وكانت إشكالية (وراثة المرجعية) تعد هي الأخرى من أبرز المؤاخذات التي ساقها بعض المؤرخين، على مدرسة آل البيت الحكمية. حتى أضحت هذه الإشكالية محل تحد ليس على المستوى التاريخي – العلمي – فحسب، بل وعلى المستوى الاجتماعي، وتحولت من إشكالية تاريخية إلى تهمة تاريخية، وإلى صورة من صور التنابز بالألقاب في المجتمعات الشيعة. لذلك صارت (وراثة المرجعية) أشبه بالسيف المشهور على رقاب المؤمنين الشيعة، المحبين والموالين لمدرسة آل البيت الحكمية. وعلى الرغم من ان علماء الشيعة قد دحضوا هذه الاشكالية، وفندوا هذا الادعاء الذي يستهدف خداع الآخرين وتخويف العامة من تقليد مراجع الشيعة، إلا أن البعض من ضيقي الأفق، وقلة من المؤرخين المتعصبين مازالوا يرددون هذه الإشكالية في مجالسهم وفي كتبهم، كنوع من الترهيب والتخويف للعامة، من تقليد مراجع الشيعة العظام، وبالمقابل دافع هؤلاء عن مدرستهم، وصدوا هذه التهمة التي لا أساس لها، إلا في أذهان المؤرخين المتعصبين.

وهناك قلة أخرى من المؤمنين الشيعة، تصاب بالوجوم، والخوف، لظنها بثبوت دعوى وراثة المرجعية، أو لعدم قدرتها على الرد والنقض، وبالتحديد أصبحت أسرة (الأسكوئي الإحقاقي) العلمية ومجتهديها محط التهمة.

وكما قامت فئات صغيرة من ضيقي الأفق، ورواد التعصب بالنيل من مراجعنا العظام، وعلامئنا الأعلام في الزمن البعيد، نرى أن قوى التعصب والجهل تنشط من جديد، وقميصها اليوم (وراثة المرجعية) وهي الأخرى ليست سوى (كلمة حق يراد بها باطل)، وقد لاقى الميرزا عبد الرسول الحائري الكثير من الحيف والظلم في هذا العصر، كما لاقى مراجع الشيعة في العصور السابقة. لقد قامت جماعة من رواد التعصب، بإثارة الفتنة بين الشيعة، متخذة من (الفتوى) هذة المرة شعارا لها. متسلحة بمقولة (إن المرجعية لا تكون بالوراثة) وكأن الفقه الشيعي قد نظّر أو جوّز انتقال المرجعية الدينية بالوراثة، ولم تكن تلك المقولة إلا كقميص عثمان، لأنهم يدركون - قبل غيرهم - أن الفقه الشيعي لم يجوّز يوما أن تنتقل المرجعية - من مرجع لآخر - بسبب العرق أو الدم أو النسب. فخوّفوا الناس من تقليد الميرزا عبد الرسول الحائري، وأشكلوا على البعض الآخر لكي يعدل عن تقليده (ولم يقتصر الأمر على العدول عنه فحسب بل جمعوا الناس بعد العدول عنه، في النيل منه، وفي عرضه، وأخلاقه، وعلمه، واجتهاده حتى أنهم أخرجوه من عداد العدول وأدخلوه في زمرة غير العدول) من خطى خادم الشريعة، ص ٢٤.

لقد كان التلويح (بوراثة المرجعية) سيفا مشهورا على من يرغب من المؤمنين في تقليد مراجع الشيعة العظام من مدرسة آل البيت الحكمية، وُرفع هذا الشعار في هذا العصر لمحاربة مرجعية الميرزا عبد الرسول الحائري، ورغم الردود العلمية لأعلام المدرسة إلا أن هذه الورقة، وهذا الشعار، أصبح سهما مسموما، وورقة رابحة، لم يكن من السهل على قوى التعصب التخلي عنه، ويجيب الشيخ سعيد القرشي عن إشكالية وراثة المرجعية مخاطبا محاوره (مسألة وراثة المرجعية، إن كنت تقصد بها أنها مبدأ مكتوب في كتبنا نعتقد به ونعمل له، فهذا كلام باطل ولا يوجد نص من نصوصنا المكتوبة يصرح أو ينص أو حتى يحتمل تأويله على وراثة المرجعية، وإن كان هناك نص لا نعلم به فدلنا عليه) الوعي المدرسي، ص ٣٢.

تلك تهمة شنيعة شنها بعض المؤرخين المتعصبين منذ زمن طويل، ولا يبدوا أنهم مستعدين للتخلي عنها. فالتصور أن هناك ولي عهد، أو خليفة، أو وصي للمرجع

عند الشيعة أصبح من المسلمات عند بعض العامة، بعد أن روّج لها المؤرخون كثيرا. حتى كتب آغابزرك الطهراني (السيد كاظم الرشتي خليفة الشيخ أحمد الأحسائي، في رئاسة فرقة الشيخية الغلاة، القائلين بالنيابة العامة) الذريعة ج ٥، ص ٧٩١. فطالما كان الاعتقاد أن هناك فرقة، وهناك مؤسس لهذه الفرقة، فلابد إذن من وجود خليفة لهذا المؤسس، وعلى هذا المنوال نسجت التهمة ضد مدرسة آل البيت الحكمية. إلا أن الأمر ليس كذلك قطعا. يقول الميرزا موسى الحائري (ما معنى أن السيد كاظم خليفة الشيخ، إن كان من جهة أنه تلميذ الشيخ، فله تلاميذ كثيرون مجازون من أساتذتهم، وكل منهم مرجع في بلده، كالعلامة الميزا حسن كوهر في كربلاء بعد السيد الرشتي، وحجة الاسلام الآخوند محمد الممقاني في تبريز، والعلامة الميرزا عبد الرحيم في قرة باغ، والعلامة الآخوند آغاعلي في أورباد، وفي سمنان مثله، وفي طهران كذلك، وغير وغير، فلم جعلت السيد كاظم خليفة للشيخ الأوحد دون غيره، هل رأيت من الشيخ الأوحد نصا في ذلك، ولم نره نحن ولا سائر الناس، أو أن السيد بنفسه قد ادعى أنه خليفته، ولم نسمع نحن بذلك) أصول العقائد، ص ٤٣٦.

وعلى الرغم من أن غالبية المؤمنين الشيعة يعلمون أن تهمة (وراثة المرجعية) كذبة كبرى لا أساس لها، إلا في أذهان بعض المؤرخين، نجد البعض من هؤلاء المؤرخين، من يحاول إقامة الدليل على هذه التهمة، بوجود عدد من مراجع الدين الشيعة من أسرة الأسكوئي الحائري العلمية. ألم يكتب الميرزا عبد الرسول الأسكوئي الحائري كتابه المعروف (قرنان من الاجتهاد والمرجعية)؟، وترجم في كتابه لعدد من مراجع الدين الشيعة، ومن جملتهم خمسة من علماء أسرة الأسكوئي. فأي دليل أنصع من هذا الدليل على وراثة المرجعية؟

ونقول لهؤلاء: أن الميرزا عبد الرسول الحائري، قد ترجم في مؤلفه (قرنان من الاجتهاد والمرجعية) لعدد كبير من علماء الشيعة، ومراجعها الكبار من النجف الأشرف، وكربلاء المقدسة، ومشهد، كما خص بالترجمة المفصلة أربعة فقط من مراجع الشيعة المنتسبين لأسرة الأسكوئي. وأورد الميرزا عبد الرسول شيئا من سيرة حياته وجهاده في نصرة الإسلام، والدفاع عن مقامات آل البيت عليهم السلام.

والغريب أن هؤلاء المشنعين بمقولة (وراثة المرجعية) عند الشيعة الجعفرية، لا يعلمون أن العلماء المجتهدين، والمراجع الأعلام - من مدرسة آل البيت الحكمية - بالعشرات من مختلف المدن الإسلامية، ومن مختلف البيوتات الشيعية، وفي مختلف الأزمان والعصور، ولم يقل أحد يوما أن المرجعية قد خصّت بها أسرة علمية دون الاسر الأخرى، وكيف يكون ذلك؟، ومنصب المرجعية منصب قيادي، ديني، فكري، ولم يكن منصب المرجعية يوما، سلطة دنيوية، ولا كرسي حكم، أو إمارة، تؤخذ بيعة الناس لها بالقوة، ولا يملك المرجع الديني حرسا ولا جيشا ولا سلطانا دنيويا، لإجبار الناس على تقليده. بل إن المرجعية منصب قيادي روحي، تنقاد إليه جموع المؤمنين عن قناعة تامة بعد اطمئنانها، ومعرفتها لشخصيته، فتقلده في الأحكام الفقهية.

لقد فات هؤلاء المؤرخين والمشنعين، أن منصب المرجعية - لكل المدارس - الشيعية، لم يكن يوما من الأيام منصبا وراثيا، ولم يقل بهذا الرأي أحد من فقهاء الشيعة من قبل.

وإذا أردنا التذكير ببعض أعلام ومراجع الشيعة السائرين على نهج مدرسة آل البيت الحكمية، لوجدنا أن هؤلاء المراجع العظام من شتى الأمصار، ومن شتى الأسر، وأغلبهم لا يربط بينهم لا حسب ولا نسب، وقد ذكر الميرزا علي الحائري في (المقالة الناصحة الزاجرة) بعض هؤلاء الأعلام من أمثال السيد الرشتي، والآخوند الملا محمد الممقاني، والعلامة الميرزا عبد الرحيم القرباغي. المرجع السابق، ص ٤٣٧. وأشرنا في كتابنا (أول المجتهدين) إلى مجموعة أخرى من هؤلاء المراجع الكبار من أمثال الشيخ محمد حسين أبوخمسين، والشيخ محمد تقي الأحسائي، والشيخ علي نقي الأحسائي، والشيخ محمد عبدالله العيثان - صاحب الترجمة - وغيرهم الكثير من مراجع الشيعة العظام. ص ٧٦. وبالإضافة إلى هؤلاء الأفاضل، هناك مراجع الشيعة من أسرة الأسكوئي، وقد تتعدد مرجعيات التقليد الشيعية لمدرسة آل البيت الحكمية في نفس البلد، وفي نفس الفترة الزمنية. فكيف تتحقق تهمة وراثة المرجعية؟!

بل إن الشيعة يقلدون مراجع الدين، وحتى إن لم يكونوا منتسبين لمدرسة آل البيت الحكمية، وإلى هذا المعنى يشير الحاج صالح السليمي (إن أهل الأحساء، كغيرهم من الشيعة الإمامية يقلدون في الأحكام الفقهية مراجع التقليد من العلماء حسبما تطمئن إليه قلوبهم، وتستقر عليه ضمائرهم، وطبقا للقواعد الشرعية المقررة في مسائل التقليد، وليس من الضروري - بأي حال - أن يكون مرجع التقليد متبنيا جميع الأفكار التي طرحها الشيخ أحمد الأحسائي حتى يصح تقليده والرجوع إليه في الأحكام. فهذا مالم يقل به أحد ولم يفت فيه فقيه) أضواء على مدرسة الأحسائي، ص ١٦. وفي داخل بيوتنا اليوم، نجد الآباء والأبناء والبنات يقلدون أكثر من مرجع تقليد واحد، وكل هؤلاء محبون لمدرسة آل البيت الحكمية، ولا يوجد بين الآباء والأبناء أي نوع من التنافر أو الحقد والبغضاء. بل إن المجتمع الشيعي الإمامي، وفي كل البلدان الإسلامية، متوادون فيما بينهم، متكاتفون، مساجدهم واحدة، وحسينياتهم واحدة. نعم هناك قلة ضئيلة معروفة بإشعالها للفتن من أجل تحقيق مكاسب شخصية، ومن أجل الوصول إلى مناصب دنيوية زائلة، وهم معروفون عند الشيعة، ومنبوذون؛ لأن الشيعة الإمامية تحترم وتقدر جميع مراجع التقليد العظام في كل البلدات الإسلامية.

لقد توجهت تلك الفئة الصغيرة، المثيرة للفوضى وللفتن في المجتمع الشيعي - مؤخرا - للنيل من مراجع الشيعة العظام من أسرة الأسكوئي، ورفعوا (قميص عثمان) في وجه علماء هذه الأسرة الكريمة، بحجة (وراثة المرجعية)، وكيف لا تكون المرجعية وراثة، وهناك خمسة من مراجع الدين الشيعة من هذه الأسرة!

ونقول لهؤلاء: إنكم لم تقرؤوا تاريخ الشيعة، وتراجم مجتهديها العظام. فأغلب مراجع الشيعة قدموا من أسر علمية كريمة. بل إن الأسر العلمية النجفية والكربلائية وفي سائر البلدات الإسلامية، تعتز بأعلامها، وتفاخر بهم. وألّفت وكتبت عن سيرتهم، ونشرت كتبهم، ووضعت مواقعا على الانترنت لاحتضان تاريخهم العائلي، وللاحتفال بأعلامهم الكبار، ومن هذه الأسر العلمية الكريمة، أسرة آل كاشف الغطاء، التي وضعت موقعا لها على الانترنت، عدّدت فيه عشرات

الأعـلام مـن مراجـع ومجتهدي وعلماء هذه الأسـرة. حتـى قارب العـدد المائة من أعلام الأسـرة. وصنّفت مراجع ومجتهدي أسرة آل كاشف الغطاء إلى سبع طبقات، وابتـدأت الطبقة الأولى عام ١١٨١ هجري، وكان من بين أعلام هذه الطبقة، عدد من المراجع الكبار من أمثال شـيخ المجتهدين وأسـاتذة الفقهاء والمراجع الشيخ جعفر كاشـف الغطاء توفي عام(١٢٢٨)هجري، والمرجع والمجتهد الكبير الشيخ موسى كاشـف الغطاء، توفي عام(١٢٤٢)هجري. والمرجع المجتهد الشيخ علي بن الشيخ جعفر آل كاشف الغطاء، توفي عام (١٢٥٣)هجري. والمرجع المجتهد الفقيه الشيخ حسـن بن الشـيخ جعفر كاشـف الغطاء، توفي عام (١٢٤٦). ويرصد موقع (كاشف الغطاء) على الشـبكة العنكبوتية، كل مراجع الديـن والمجتهدين الكبار في الطبقات السـت الأخرى حتى يومنا هذا. فيصل العدد إلـى ثلاثة وثلاثين مرجعا ومجتهدا من أسرة كاشف الغطاء. بالإضافة إلى عشرات العلماء والمشائخ من نفس هذه الأسرة.

وفي النجف الأشـرف اسـتقرت أسـر علمية لقرون عدة نبغ فيها العشرات من مراجـع الدين والعلماء في الأسـرة الواحدة. مثل أسـرة (الصدر) وأسـرة (الحكيم) و(بحر العلوم) ومن هذه الأسـر العلمية وغيرها برز العديد من مراجع التقليد العظام من كل أسرة، ولم يقل أحد من المؤرخين يوما أن مرجعية أحد هؤلاء بالوراثة.

وفي مدينة كربلاء المقدسـة استقرت أسر علمية عريقة من أمثال (آل عصفور) و(الشهرستاني) و(الطباطبائي) و(القزويني) و(الداماد) و(الشيرازي) و(الأسكوئي) و(الهبهانـي) كما أشـار إلـى ذلك نور الدين الشـاهرودي فـي كتابه (تاريـخ الحركة العلميـة فـي كربـلاء) ص ٢١٥ – ٢٥٠. وعـدد أهم أعلام ومراجع هذه الأسـر، ولم يذكـر صاحـب (الحركـة العلمية) إلى أن هذه الأسـر تتوارث المرجعيـة، أو تتوارث العلم أو ما شـابه. بل أثنى على هذه الأسـر، وخصّ أسرة (الأسـكوئي) بالثناء وعدّد أبرز رجالاتها محترما وموقرا لهم.

ولا ينبغـي أن ننسـى أن الأسـر العلميـة، ليسـت خصوصية للنجـف أو كربلاء المقدسـتين. بل إن مفهوم (الأسرة العلمية) كمصطلح اجتماعي موجود في كل بلدة إسـلامية بلا اسـتثناء. ففي مدينة مشـهد، توجد العديد من الأسـر العلمية المعروفة،

وكذلك في مدينة قم المقدسة. وفي مدينتي الهفوف والمبرز الأحسائيتين، توجد العديد من الأسر العلمية أيضا، ولقد كتب السيد هاشم الشخص بحثا عن الأسر العلمية في الأحساء، وحصر هذه الأسر في اثنين وعشرين أسرة أحسائية، وذكر أعلام كل أسرة من العلماء والمشائخ والأدباء. راجع دائرة المعارف الشيعية، ج ٢، ص ٤١٠ - ٤٠٧.

وكتب الشيخ محمد علي الحرز بحثا بعنوان (ملامح من الحياة العلمية)

محاولا رصد الحركة العلمية الفكرية، إبان عصر الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي، واتكأ البحث -كما أشرنا سابقا - على العامل الإحصائي، وتعرض البحث للأسر العلمية الأحسائية، وعدّد أعلامها من العلماء والمشائخ. مجلة الواحة، عدد ٥٠، ص ٦٢ - ٧٨. بل إن الشيخ الفاضل الحرز، صنّف كتابا خاصا بعنوان (أعلام الحرز) محاولا رصد كل أعلام الحرز من المجتهدين والعلماء والمشائخ في مختلف العصور، وقسم البحث إلى ثلاثة أقسام: الأول أعلام الحرز من الماضين، والثاني رصد فيه كل أعلام أسرة الحرز من المعاصرين، وفي القسم الأخيررسم مشجرة للأسرة، واستطاع الباحث أن يستعرض ترجمة لستة عشر علما من أعلام هذه الأسرة.

وترجم السيد محمد مهدي الموسوي الأصفهاني للأعلام من أسرته في كتابه (مواهب الباري) فرصد عشرات العلماء والفقهاء والمراجع الكبار من هذه الأسرة الكريمة، ومن ثم ترجم مرة ثانية لأبرزالأعلام من مراجع الدين الكبار لهذه الأسرة في كتابه (أحسن الوديعة). فوصل أعداد هؤلاء الأعلام من مراجع دين كبار، وفقهاء بارزين إلى العشرات، ولاغرابة في ذلك، فالسيد محمد مهدي الموسوي الأصفهاني (من بيت عريق في النسب، ضليع في الفضل والفقه والأدب، يتوارث العلم كابرا عن كابر، وقد نبغ من هذا البيت الطاهر علماء وأدباء ومؤرخون جاء ذكرهم في كتب الفهارس والتراجم والإجازات) أحسن الوديعة، ص ١٦. ورغم التصريح من السيد الأصفهاني(بتوارث)العلم كابر عن كابر، إلا أنه لم يشكل أحد من المؤرخين على هذه الأسرة. ليقينهم أن التوريث هنا جاء على المجاز وليس على الحقيقة.

ولا نرغب أن نرصد كل كتب التراجم الأسرية؛ لأن هذا الرصد يخرجنا عن موضوع الكتاب. إنما أردنا التدليل على أن تعدد العلماء ومراجع التقليد في الأسرة العلمية الواحدة ليس عيبا بل ميزة لهذه الأسرة. كما أن تعدد العلماء في الأسرة العلمية، ليس بدعة عند الشيعة ابتدعته أسرة (الأسكوئي) بل إن هناك من الأسر العلمية من سبقت هذه الأسرة بمئات السنين، مثل أسرة (الحلي) التي خرج منها العديد من مراجع الشيعة الكبار من أمثال العلامة الحلي، وفخر المحققين الحلي. وليست أسرة (الأسكوئي) الأكثر عددا من أبنائها، ممن تسنموا منصب المرجعية.

وعلى الرغم من كل ذلك فالمرجعية هذه التي تولى شؤونها العديد من أعلام الشيعة الإمامية، ليست هي تلك المرجعية المطلقة أوالشاملة أوالوحيدة في العالم الإسلامي. بل إن كل مجموعة من الناس تحتاج إلى تقليد في المسائل الفقهية ترجع إلى الفقيه الجامع للشرائط تطمئن اليه، ولا يشترط في مرجع التقليد، أن يكون مرجعا وحيدا لكل أبناء الطائفة الشيعية الإثني عشرية. بل إن المرجعية في اصطلاح الفقهاء هي (الجهة المتولية لشؤون الأمة أوالفرقة أوالطائفة بأجمعها، وبيدها الإدارة لتدير أحوالها وأوضاعها الدينية، ويسمى المتقمص بها المرجع، بفتح الميم وكسر الجيم) كاشف الغطاء، باب مدينة العلم، ص ٣٥٨. أي أن تعدد المرجعيات أمر طبيعي في عالمنا الإسلامي.

فمراجع الدين الشيعة من أسرة (الأسكوئي) كغيرهم من علماء الشيعة من المدارس الأخرى، لا يختلفون عنهم، وعامة الشيعة مطالبون بالتقليد في أحكامهم الشرعية من قبل مراجع هذه الأسرة أو من غير هذه الأسرة، ومطالبون بالتقليد حتى وإن لم يوجد إلا مرجع شيعي واحد ضد آراء الشيخ الأوحد العقائدية. يقول الشيخ القرشي (أن نكون في حالة تقليد ولا يوجد مرجع إلا ضد فكر الأحسائي أو محايد، فنقوم نحن برفض هذا المرجع ولا نقلد، فهذه صورة باطلة، لأنه لابد من التقليد، وهذه الصورة يعرفها حتى عوام متبعي فكر الأحسائي) الوعي المدرسي، ص ٣٣.

إذن دعوى (وراثة المرجعية) ليست سوى إشكالية في أذهان بعض المؤرخين، وسيف ترويع لعامة الناس بإرهابهم بأيدي قلّة من ضيقي الأفق؛لأن عموم الشيعة

اليـوم، وفي كل مكان، مجمعون على سـلامة النهج العقائدي للأحسـائي، ومحبون لآراء مدرسة آل البيت الحكمية.

والنـاس أحـرار فـي أن يختـاروا مرجعهـم الجامع للشـرائط، ممـن تطمئن له قلوبهـم، طبقـا للضوابط الشـرعية المعروفـة دون خوف أو وجـل، ودون ترهيب أو ترغيب من قبل فئة صغيرة عابثة.

نعـم إن تقليـد المسـلم الشـرعي للفقيـه واجب شـرعي. يقول الميرزا حسـن الحائري الأسكوئي في هذا الوجوب على المسلم البالغ العاقل أن (يقلد مجتهدا، أو فقيها إماميا، عادلا، جامعا لشـرائط الاجتهاد، مقرا بفضائل المعصومين الأربعة عشر ومناقبهـم عليهم السلام، وغيـر منكر لها، ولا شـاك فيها) الدين بين السـائل والمجيب، ص ٢٠٨. والأكيد أن كل مراجعنا العظام في مختلف البلدات العلمية المقدسـة، مقرون بفضائلهـم عليهم السلام، وغير منكرين لها. ولم يشـترط الميـرزا الحائري، أن يكون مرجع التقليد من أسرة (الأسكوئي) أو حتى من المنتسبين لمدرسة آل البيت الحكمية.

نعـم يمارس الشـيعة الإثني عشـرية حقهـم الشـرعي بالرجوع للفقيـه الجامع للشـرائط ممن يحمل فكر الشـيخ أحمد الأحسائي، لايمانهم أنه الأقرب إلى مفاهيم أخبار آل البيت عليهم السلام، وفي حالة التقليد تلك يضيف الشـيخ القرشـي (يوجد مراجع كثـر كلهـم مبرء للذمـة، ومن بينهم مـن يحمل فكر الأحسـائي الذي نعتقـد نحن أنه مطابق لروح روايات أهل البيت عليهم السلام، فلنا الحق في اختيار ما يقوينا للاحتفاظ بهذا الفكر مادام الشـرع يكفل لنا هذا الاختيار) الوعي المدرسـي، ص ٣٣. إلا أنه ورغم كل ذلـك فدعـوى (وراثة المرجعية) قائمة، والتهمة باقيـة، ولا يهم إن كانت مرجعية علماء الشـيعة من أسـرة (الأسـكوئي) طبقا للضوابط الشـرعية أم لا. فالمهم – عند البعـض – الإصرار على أن مرجعية علماء هذه الأسـرة بالوراثة، دون باقي عشـرات الأسر العلمية في العالم الإسلامي التي خرج منها مراجع كبار، وفقهاء عظام.

ويناقـش السـيد الفاضـل هاشـم الشـخص منصـب المرجعيـة في أسـرة (آل الأسكوئي) دون غيرها من الأسر العلمية، مفندا أدلة الشيخ العمران في كتابه (بصائر)

مستعرضا السيد الشخص كل (الحقائق التاريخية) التي تؤكد وراثة المرجعية عند أسرة الأسكوئي، ولعل أهم هذه الدلائل أو الحقائق هي تزكية أو ترشيح الميرزا عبد الرسول الحائري لولده الميرزا عبد الله الحائري الأسكوئي، حينما سئل من قبل المؤمنين عن العلماء اللائقين لمنصب المرجعية، ويضيف السيد الفاضل أن المرجعية عند (الشيخية) انتهت إلى أعقاب الميرزا محمد باقر الأسكوئي (وهذا أمر واقع لا يقبل الإنكار، أما هل هذا الواقع حصل بنحو الصدفة أو طبقا للموازين الشرعية؟ أم أن هناك أسباب أخرى لا صلة لها بالموازين الشرعية لها دخل في الموضوع. فهذا مالم نتحدث فيه، ولم نعلق عليه) أعلام هجر، ج ٣، ص ٤٩٠.

ولكن الأغرب أن يتخطى المؤرخون عشرات المراجع الشيعة الأعلام من مدرسة آل البيت الحكمية منذ الميرزا محمد باقر الأسكوئي وحتى زماننا المعاصر، حتى يثبتوا فقط أن مرجعية (الشيخية) بالوراثة!

ولصد هذه الدعوى ولنفض مجمل الدعاوى والإشكالات التاريخية السابقة التي أثارها المؤرخون على الشيعة الإمامية، نقدم للمجتمع الاسلامي الشيعي عامة، ولأهل الأحساء خاصة، أحد أبرز مراجع الشيعة العظام من مدرسة آل البيت الحكمية. ألا وهو الشيخ الرئيس محمد بن عبد الله العيثان، فتجلية شخصية عملاقة بهذا الحجم، أمر في غاية الأهمية لشبابنا الإسلامي في كل مكان، حتى يستمد من شخصيته الريادية، والعزيمة الفذة، ومن أفكاره الإيمان الراسخ، ومن تاريخه الشموخ المتطاول، ومن حكمته العقيدة الكاملة.

الفصل الثالث

الرئيس العيثان

عظماء الإنسانية، يتحركون دائما على صفحات التاريخ، يتفاعلون في دائرة المكان، وينطلقون إلى كل أبعاد الزمان. لذلك فهم يتواصلون، ويتعاملون مع المحيط بكل عناصره، ولعل ذلك هو أحد أسرار عظمتهم. فهم في حركة دائمة مع البشر، والأفكار، والأحداث، وبدلا من أن ينساقوا مع عناصر المحيط، تراهم يفرضون بنبوغهم العالي أفكارهم، وتطلعاتهم، وآمالهم على هذا المحيط. لذلك تجدهم بعد كل ذلك هم صانعو الأحداث الكبرى في التاريخ.

وعظماء التاريخ ينسجون الأحداث الكبرى خيطا فخيطا، ويبنون الصروح الشامخة، بوضع لبنة صغيرة على لبنة متجاهلين الحقد، والكراهية، والخوف من الفشل. فتتعالى صروحهم، وتنموا أحلامهم حتى تصبح في نهاية المطاف هي التاريخ بأكمله، وينسى مادون ذلك من أحقاد صغيرة، كانت يوما ترافق مسيرتهم. وينسى أحداث أخرى لم يكتب لها النجاح، وتتلاشى في ظل قيام الصروح الشامخة تلك المعوقات التي كادت أن تقف حائلا أمام مسيرتهم لصنع التاريخ.

هؤلاء هم عظماء التاريخ - إلا أنه يجب القول - أن سيرة العظماء، لا يمكن أن تكون تاريخا حقيقيا، إلا إذا تضمنت سيرتهم فكرة التغيير، وعزيمة التطور، وهمّة العطاء، حتى تسري هذه الروح في روح الجماعة، فتوحدهم تحت حركة تغييرية تاريخية واحدة. تغيّر المجتمعات، وتحقق آمالها وطموحاتها. فيكتب المؤرخون

تلك السيرة الأحادية لهذا العظيم، باعتبارها حركة تاريخية هامة، وتصبح سيرته هي تاريخ المجتمع، ويصبح عصره هو عصر المجتمع بأكمله.

والشيخ الرئيس العيثان من عظماء البشر، الذين صنعوا التاريخ الإنساني في منطقتهم، ولم يكن يحمل سيفا ولا رمحا. بل حمل راية مدرسة آل البيت الحكمية، فكانت جديرة بأن تكون القوة الفكرية الفاعلة لصناعة التاريخ سلميا.

وهكذا هم القادة العظام في شتى أدوار حياتهم، ولهذا الجانب يشير الشيخ محمد مهدي شمس الدين (البشر لا يتوقفون عن صنع التاريخ، لكنهم قد يصنعون تاريخهم في حال السلم، وقد يصنعونه في حال الغليان والتوتر الاجتماعي، كما قد يصنعونه بالحرب) حركة التاريخ، ص ١٤٢.

وبالفعل صنع الشيخ محمد بن عبد الله العيثان تاريخ مدرسة آل البيت الحكمية في مدن الأحساء والخليج وإيران، مالم يصنعه قادة الحروب، وأجبر الشيخ العيثان، المؤرخين المتحاملين، وضيقي الأفق، أن يعيدوا صياغة مؤلفاتهم بما يتناسب مع قامته الشامخة، ويتلاءم مع قدسية مدرسة آل البيت الحكمية. لقد استطاع الرئيس العيثان - كما سيمر معنا تفصيلا - أن يكسر كل الإشكالات التي دأب المؤرخون على تلفيقها لأعلام المدرسة.

لقد حاول بعض الفلاسفة، وقلة من المؤرخين تشويه وجه الحقيقة، بإطلاق فتاوى التكفير على زعيم مدرسة آل البيت الحكمية، الشيخ أحمد الأحسائي، وحاول هؤلاء ترويج هذه الفتاوى والاتهامات ضد أعلام الشيعة من أنصار المدرسة، محاولين الإيحاء للعامة بأن هؤلاء الأعلام من الشيعة خارجون عن الخطوط الإسلامية العامة، ولهذه الأسباب حورب السيد كاظم الرشتي، وحوصرت داره، وشنّت عليه الأقاويل حتى استشهد، وكذلك الميرزا حسن كوهر، والشيخ علي تقي الأحسائي وغيرهم من علماء الشيعة.

إلا أن المؤرخين الذين نقلوا وتنافلوا تلك الاتهامات والإشكالات، لم يستطيعوا إلصاقها بالرئيس الشيخ العيثان، لأسباب ذاتية حينا، ولأسباب موضوعية

حينا آخر. مما جعل هؤلاء المؤرخين يقفزون على تلك الإشكالات التي أثيرت على علماء مدرسة آل البيت الحكمية.

ومع إيماننا الكامل بأن لشخصية الرئيس العيثان القيادية العامل الأهم في دفع تلك الإشكالات التاريخية عن مرجعيته، إلا أن هنالك أسبابا أخرى، ذات علاقة بجوانب موضوعية، عملت هي الأخرى في تجنيبه الإشكال التاريخي.

لقد شن الفلاسفة من أتباع الحكمة اليونانية، هجوما قاسيا على زعيم مدرسة آل البيت الحكمية، الشيخ أحمد الأحسائي؛ لعوامل ذاتية صرفة، لها علاقة بالغيرة والحسد، وقد قيل (عدو المرء من يعمل صنعته). فقد أصبح للشيخ الأحسائي مكانة عالية، جلبت عليه الكثير من الحسد والعداوة، وهذا ما أشار إليه العديد من المؤرخين الذين كتبوا عن الشيخ الأحسائي من أمثال السيد محمد حسن آل الطلقاني، الذي يؤكد قسوة خصوم الشيخ الأحسائي، والسعي لتشويه سمعته وتحطيم شخصيته، وكان وراء كل ذلك الحسد (إن الدافع الأول والأخير هو الحسد) الشيخية، ص ١٠٤. بينما يكتب الشيخ عبد الله نعمه عن علو شأن الشيخ الأحسائي ومكانته العالية عند سلاطين الدولة القاجارية (ومن الممكن أن يؤلب ذلك من حوله الحساد والمنافسين، ويثير من حولهم الظنون) فلاسفة الشيعة، ص ١١٤. وإذا كان هذا هو الأمر مع الشيخ الأحسائي، وتلامذته الكبار من أمثال السيد الرشتي والشيخ كوهر، فإن الشيخ العيثان وهو حكيم من الطراز الأول في مدرسة آل البيت الحكمية، أشرقت أنوار شمسه من مصادر متعددة، ولم يحاربه الفلاسفة، ولم يؤلب عليه الحساد، لأنه كان منفردا بالزعامة الدينية والفكرية في منطقة الأحساء والخليج.

وبالإضافة إلى عامل (الحسد) الذي لعب دورا كبيرا في الهجوم على المدرسة وقادتها، هناك العامل (القومي) الذي لعب هو الآخر، دورا هاما في الهجوم على مدرسة آل البيت الحكمية. فالشيخ الأحسائي، عربي في إيران الفارسية. والسيد الرشتي والميرزا كوهر - وغيرهما - فارسيان في كربلاء العربية. لذلك فقد عمل العامل القومي - الشعوبي - كثيرا في أحداث تلك الفتنة على المدرسة وقادتها. فلم يكن من السهل على الفلاسفة والمؤرخين الشعوبيين تقبل علماء فارس في حواضر

العالم العربي.

وعلى خلاف كل ذلك فالشيخ الرئيس العيثان، هو الحكيم والمرجع العربي الأحسائي في منطقة الأحساء العربية. فانتفى العامل الشعوبي الذي لعب أدوارا سلبية في التأليب على علماء الشيعة من أتباع المدرسة، وفي نفس السياق فالشيخ العيثان كتب مصنفاته، ودرّس تلاميذه باللغة العربية للقراء والتلاميذ العرب، بينما كتب الأحسائي ودرس باللغة العربية للتلاميذ غير العرب، وهكذا السيد الرشتي والميرزا كوهر- الفارسيان الأصل - اللذان كتبا ودرّسا للقراء والتلاميذ العرب.

إن الإشكالات التاريخية، والهجوم على علماء الشيعة، لم يتوقف عند الميرزا كوهر. بل تعداه إلى معظم أعلام المدرسة، ومنهم العلماء الأعلام من أسرة الأسكوئي الحائري.

وبالطبع فإن علماء أسرة الأسكوئي هم (التركمان الإيرانيين) الذين سكنوا في الديار العربية، وهذا الأمر لا يريح المؤرخين الشعوبيين، وهم العلماء غير العرب الذين كتبوا ودرسوا وناقشوا باللغة العربية، عند مقارنتهم بالعلماء العرب الكبار من نفس المدرسة، الذين استوطنوا مدنهم كالشيخ الكبير محمد حسين أبو خمسين، والشيخ حبيب بن قرين، والشيخ محمد العيثان، فتعرض الأعلام - غير العرب - للهجوم من قبل هؤلاء المؤرخين، ولم يتعرض الأعلام العرب.

وبالإضافة إلى ذلك، فمعظم أعلام المدرسة، ومنهم علماء أسرة الأسكوئي، استوطنوا لفترات طويلة الحواضر العلمية، وهي محل انقداح الأفكار العلمية، والمناقشات الحكمية، ومنشأ التيارات الفكرية المختلفة. فقد سكن الميرزا محمد باقر والميرزا موسى النجف الأشرف وكربلاء المقدسة لسنوات طوال، وبزغت مرجعياتهم في تلك المدن المقدسة، أما مراجع الشيعة الكبار من أمثال الشيخ العيثان، وأبو خمسين والسيد ناصر، والشيخ حبيب، فرغم انتمائهم لمدرسة آل البيت الحكمية، إلا أن مرجعياتهم سطعت بعيدا عن الحواضر العلمية.

لقد سكنت أسرة الأسكوئي الحائري العلمية - في العقود المتأخرة - بلاد

الأحساء والكويت، وهي أماكن بعيدة عن موطنهم الأصلي (اسكوء) حيث الأهل والعشيرة والرهط، بينما سكن العلماء الآخرون من علماء المدرسة بين عشيرتهم في مواطنهم الأصلية.

كما أن المؤرخين الذين كتبوا وهاجموا، وأشكلوا على مدرسة آل البيت الحكمية، وعلى أسرة الأسكوئي الحائري كانوا مطمئنين، وآمنين من الاستنكار والملاحقة الاجتماعية. فهؤلاء المؤرخين يكتبون بالعربية، عن أسرة فارسية الأصل، بعيدين عن موطن (الأسكوئي) الأصلي، وبعيدين عن مقر سكناهم في الأعم الأغلب. بينما لمراجعنا العظام العرب، العشيرة والأهل، الذين يشكلون سورا مانعا من التعدي عليهم.

وبالإضافة إلى كل ذلك فإن أسرة الأسكوئي الحائري، تمكنت باعتبارها إحدى الأسر العلمية، أن تتصدر المرجعية الدينية لعقود طويلة، بينما كانت المرجعيات الشيعية – من نفس المدرسة – فردية في غالب الأحيان، رغم أن تلك المرجعيات هي قادمة أيضا من أسر علمية، مثل أسرة العيثان وأبو خمسين.

وإذا انطبقت تلك العوامل على مرجعيات الشيعة من أسرة (الأسكوئي الحائري) فإن هذه العوامل لا تنطبق على أسرة (المامقاني) لأن مرجعيات هذه الأسرة بزغت وسكنت مرجعياتها في موطنها الأصلي (تبريز) وبذلك تجنبت الكثير من الهجوم والافتراء والتعدي، الذي تعرضت له المرجعيات الشيعية من أسرة الأسكوئي، بعد أن هاجرت من تبريز.

وبالإضافة إلى كل تلك الأسباب أو العوامل التاريخية، التي جنّبت مرجعية الرئيس الشيخ العيثان، معظم تلك الإشكاليات التي أثارها المؤرخون، هناك تلك المسافة الزمنية بين ظهور مدرسة آل البيت الحكمية على يد الشيخ الأوحد عام (١١٦٦ هجري) وبين بزوغ مرجعية الشيخ العيثان عام (١٢٦٠ هجري) أي أن هناك فاصل زمني يصل إلى قرن من الزمن بين مولد الشيخ الأوحد والشيخ الرئيس، ولقد قام هذا الفاصل الزمني في تهيئة الذهنية الإسلامية الشيعية لتقبل أفكار مدرسة

آل البيت الحكمية، بينما لم يتيسر هذا الفاصل الزمني للسيد الرشتي، وطبقا لنفس المعيار الزمني، كنا قد أشرنا - سابقا - إلى أن الفاصل الزمني بين بزوغ فلسفة ملا صدرا، وبزوغ حكمة الشيخ الأحسائي، كان طويلا، الأمر الذي أدى إلى ترسخ أفكار مدرسة (الحكمة المتعالية) في أذهان الفلاسفة والعلماء الشيعة، حتى أصبح أي طرح لقواعد حكمية جديدة هو في حد ذاته خروجا عن المألوف، وخروجا على تقاليد الحوزات الدينية.

لقد تجنبت مرجعية الشيخ الرئيس العيثان، العديد من إشكالات المؤرخين. فلم نجد مؤرخا يجرؤ على اتهام مرجعيته، أو شخصه، بعلاقتها مع (البابية). لقد نسب الباب للسيد الرشتي، بحجة أن الأول، قد تتلمذ على يد الأخير، وتلك حجة باطلة عقلا. فالتلميذ الحقيقي هو من يؤمن بمنهج الأستاذ، ويتبع آراء أستاذه حرفيا. لا أن يحضر درسا واحدا، ويخالفه الفكر والنهج معا. علما أن السيد الرشتي توفي، قبل أن يعلن الباب دعوته كما أوضحنا، وإذا حاول البعض من المؤرخين ربط مدرسة آل البيت الحكمية بالديانة البابية، محاولين تشويه المقام العلمي للشيخ الأوحد والسيد الرشتي، فإن المتأخرين لم يستطيعوا إلصاق تهمة البابية بالشيخ الرئيس العيثان. فمدرسة آل البيت الحكمية تأصلت في إيران على يد الشيخ الأوحد، وفي العراق على يد علماء كبار من أمثال الميرزا كوهر والميرزا محمد باقر، وفي الأحساء والكويت تأصلت على يد الشيخ محمد حسين أبوخمسين، فلم تعد هذه التهمة قابلة للنهوض أو التصديق حتى من قبل العامة، ولم تعد اتهامات المؤرخ الحسني تصمد لأي نقد تاريخي، وأضحت اتهامات السيد شفيع الموسوي الجابلقي (١٢٨٠ هجري) في (روضته البهية) غير قابلة للتسويق.نعم، نقل تلك الاتهامات السيد محسن الأمين صاحب الأعيان، إلا أن اتهاماته تلك، أصبحت تضحك الثكلى.

لقد كان للفاصل الزمني - منذ بزوغ دعوة الباب ومقتله عام (١٢٦٦) هجري، وبين إشراقه مرجعية الشيخ العيثان ووفاته عام(١٣٣١) هجري - دور في دفع الاتهامات عنه. كما أن للفاصل الجغرافي، دوره أيضا فدعوة البابية التي تربت في بوشهر، وبزغت في قزوين على يد (قرة العين)، بعيدة مكانيا عن مرجعية الشيخ

العيثان، التي نمت في كربلاء وسطعت في الأحساء.

وكما استطاعت مرجعية الشيخ الرئيس العيثان دفع إشكالات المؤرخين تلك، فإن (إشكالية التسمية) هي الأخرى نفذت منها مرجعيته بجدارة. فلم يجرؤ المؤرخون من وصم مدرسته أو مرجعيته (بالشيخية) بل وحتى المؤرخون المتأخرون، الذين يرددون، ويشنعون على هذه المدرسة (بالشيخية) بحجة الوصف التاريخي تارة، و(الأمانة التاريخية) تارة أخرى، تجدهم حين يأتون لكتابة الترجمة الشريفة لشيخنا العيثان، لا يجرؤون على إلصاق لقب (الشيخية) بمدرسته الفكرية التي ينتمي إليها. لكل الأسباب والعوامل التي أشرنا اليها قبل قليل.

ومن جهة أخرى، فإن هؤلاء المؤرخين، يحاولون - بقصد أو من غير قصد - تغييب الاتجاه الفكري للشيخ محمد العيثان وإخراجه من دائرة مدرسة آل البيت الحكمية التي ينتمي إليها.

ولقد دققنا كل الترجمات التي تحت أيدينا لسيرة الشيخ محمد العيثان، ولم نجد كلمة (شيخية) على الإطلاق في كل التراجم التي ترجمت سيرته الشريفة، ولقد تفحصنا تحديدا (الآثار الأريجية) للشيخ فرج العمران، الجزء الأول، ص ٣١٥، ص ٣١٦، ص ٣٥٣. وكذلك الجزء الثالث، ص ٣٦٨. ورجعنا إلى (أنوار البدرين) للعالم الرباني علي البلادي، ص ٣٣٢، ودققنا (دائرة المعارف الشيعية) الجزء الثاني، ٤٢٣، وراجعنا ترجمته في (معجم رجال الفكر والأدب) للدكتور محمد هادي الأمين، الجزء الأول ص ٩٠. وفتشنا في (الذريعة إلى تصانيف الشيعة) في العديد من أجزاءه مثل الجزء الأول، ص ٢١٨، والجزء الحادي عشر، ص ١٩٣، والجزء الثالث عشر، ص ٣٤٣، والجزء الخامس والعشرين، ص ١٨٤. وتفحصنا مخطوط زميلنا أحمد البدر (العلامة الإمام الشيخ محمد آل عيثان)، بالإضافة إلى اطلاعنا على ترجمة شيخنا الرئيس في مقدمة كتاب (الرد على النصارى) ص ١١-٤٠. ورجعنا إلى ترجمة الشيخ في كتاب (أعلام هجر) الجزء الرابع ص ٤٣٧- ٤٧٨. ودققنا مخطوطة كتاب الشيخ محمد باقر أبو خمسين (علماء هجر وأدباؤها في التاريخ) وترجمته للشيخ العيثان، ص ١٦٨. بالإضافة إلى تتبعنا إلى

العديد من الإشارات لذكر اسمه الشريف هنا وهناك في المصادر الأخرى، وكلها تحت أيدينا، فلم نجد إطلاق لقب (الشيخي) أو (الشيخية) عند ترجمة سيرته، أو عند المرور باسمه الشريف. رغم أن صاحب الذريعة يردد هذه اللفظة، عند مروره بتصنيف لأعلام مدرسة آل البيت الحكمية وكذلك صاحب (دائرة المعارف الشيعية) وغيرهما من المؤرخين.

لقد استطاع الشيخ محمد العيثان أن يكسر هذا الحصار على مدرسة آل البيت الحكمية. كما عملت العديد من العوامل الأخرى - التي أشرنا إليها - في تفكيك الطوق التاريخي على المدرسة. إلا أن هؤلاء المؤرخين، حاولوا استغلال ذلك في فصل مرجعية الشيخ العيثان عن تبعيتها لمدرسة آل البيت الحكمية. وإبعادها عن مسارها التاريخي الفكري.

وإذا استطاعت مرجعية الشيخ الرئيس العيثان من كسر تلك الإشكاليات، فقد استطاعت - مرة أخرى - في دفع تهمة (وراثة المرجعية) عنها، وهو الشيخ والمرجع الكبير القادم من أسرة علمية. دائرة المعارف، ج٢، ص ٤٢٣. أعلام هجر، ج٤، ص ٤٣٧. إلا أنها غير أسرة زين الدين، أوالمامقاني، أوالأسكوئي التي تولت الزعامات والمرجعيات الدينية في أزمان مختلفة.

ولقد أوضحنا قبل قليل، أن إشكالية (وراثة المرجعية) أو (الخليفة الرابع) أطلقها المؤرخون منذ زمن متقدم، وليست وليدة زماننا المعاصر. فلقد كانوا يشنعون، أن السيد الرشتي هو خليفة الشيخ أحمد الأحسائي، وأن الميرزا حسن كوهر هو خليفة السيد الرشتي، وكأن الأمر يجري في خلافة على ملك دولة، أو خلافة كرسي إمارة، لا على منصب علمي روحي، لا يأتي إلا بإجماع شعبي، وباختيار حر، ولا يتم بترشيح، ولا دخل للقوة ولا الجبر في اختيار منصب المرجعية.

لم يردد المؤرخون (وراثة المرجعية) على مرجعية الشيخ العيثان، رغم أن إشكالية (وراثة المرجعية) لم تنته بعد وفاته. بل استمرت في التداول على مراجع الشيعة من أعلام المدرسة، وتحديدا على مراجع الشيعة من أسرة الأسكوئي في هذا

الزمان المتأخر.

لهذا كله فإن الفصول السابقة، التي استعرضنا فيها (الإطار التاريخي) وناقشنا مختلفا (إشكالات المؤرخين) على مدرسة آل البيت الحكمية، لم تكن من باب الترف البحثي. بل وحتى يستطيع القارئ أن يلم بالأبعاد الزمانية والفكرية والاجتماعية لسيرة شيخنا العيثان، ولمسيرة مرجعيته المباركة.

إن هذه الدراسة - كما أكدنا منذ البدء - لا تسعى لأن تكون ترجمة تقليدية، جافة، منفصلة عن جذورها التاريخية. بل حاولنا، وبذلنا جهدنا لكي تكون ترجمة الشيخ الرئيس شاملة، متعددة الجوانب والاتجاهات، حتى يمكنها أن تلقي الضوء على بعض نواحي العظمة والشموخ في شخصيته، وهي بالطبع ليست شخصية عادية، على صفحات التاريخ.

ومن جهة أخرى حتى يتضح ذلك الحيف والجور على تغييب (شمس الشموس) من قبل بعض المؤرخين غير المنصفين. فشخصية تكون الشمس صفتها، لا يمكن للمؤرخين - مهما جاروا - أن يغيبوها طويلا، وإن غربت الشمس يوما، في آخر النهار، فلأنها تستعد للإشراق في يوم جديد، وهكذا هي شخصية ومرجعية (شمس الشموس) لزعيمنا الكبير، وشيخنا الجليل الشيخ الرئيس محمد بن عبد الله العيثان.

أولا: عصر المرجعيات

يمكننا القول بوثوق تام، أن عصر الشيخ الرئيس العيثان هو عصر المرجعيات المحلية الكبرى، ولقد نجح الشيخ الرئيس - وعلى عكس أهواء بعض المؤرخين - في دفع مدرسة آل البيت الحكمية إلى الصدارة، فتسود مرجعيته معظم تلك المرجعيات المحلية، ولم يكن نجاح الشيخ الرئيس، نجاحا فريدا خاصا به، دون الآخرين؛ لأن النجاح في إطار عملية صنع التاريخ، لا يسمى نجاحا، إذا هو لم يتجاوز الأفراد إلى مجمل طبقات المجتمع؛ لأن الأفراد يذهبون أما المجتمع بكل مكوناته النفسية والفكرية باق، ينقل مكوناته هذه إلى الأجيال اللاحقة.

لقد تحدثنا في الفصول السابقة، عن الحركة العلمية - الثورة الكبرى - التي فجرها الشيخ الأوحد في عصره، والتيارات العلمية التي سارت في إطار تلك الحركة العلمية، وأشرنا إلى أن الحركة العلمية تلك لم تتوقف بعد رحيل الشيخ الأوحد. بل إن المجتمعات، تنقل أمواجها الفكرية للأجيال التالية، ومن أبرز ملامح عصر الشيخ الرئيس تعدد مرجعيات التقليد المحلية، وهي محلية نسبة إلى المكان، لا إلى الانتشار والشمول والإشراق، ولقد ضم القرن الرابع عشر العديد من الفقهاء ومراجع التقليد، في ظاهرة فريدة من تاريخ الأحساء. فقد تكاثر العلماء والمشائخ وطلبة العلوم الدينية، والشعراء والأدباء أيضا، في ظل مرجعية شيخنا الرئيس.

ويمكننا إيراد أسماء العديد من مراجع وعلماء وفضلاء القرن الرابع عشر، الذين عاصروا مرجعية الشيخ الرئيس. من أمثال السيد محمد علي بن محمد بن خليفة الأحسائي المتوفي عام (١٣٠٥ هجري) دائرة المعارف، ج ٢، ص ٤٠٦. وكذلك السيد هاشم بن أحمد السلمان الموسوي المتوفي عام (١٣٠٩ هجري) المصدر السابق، ج٢، ص ٤٠٦. والشيخ محمد حسين أبوخمسين المتوفي عام (١٣١٦ هجري) أعلام هجر، ج٤، ص ٣٥. والشيخ علي بن محمد الرمضان المتوفي عام (١٣٢٤) علماء هجر، مخطوط، ج٢، ص ١٤٤. والشيخ سلمان بن محمد المحسني، المتوفي عام (١٣٤١ هجري) دائرة المعارف ج٢، ص ٤٠٧. والشيخ حبيب بن صالح بن قرين المتوفي عام (١٣٦٧ هجري) فقهاء الأحساء، مخطوط، ص ١٠٧. و الشيخ طاهر بن الشيخ محمد أبوخمسين المتوفي عام (١٣٤٢ هجري) دائرة المعارف، ج ٢، ص ٤٠٧، والشيخ عمران بن حسن آل سليم الفضلي، المتوفي عام (١٣٦٠ هجري) فقهاء الأحساء، مخطوط، ص ١٠٧. وكذلك الشاعر عبد الله الرمضان، دائرة المعارف، ج ٢، ص ٤٠٧، وخطيب المنبر الحسيني عبد الله بن علي، المصدر السابق، ج٢، ص ٤٠٧، وغيرهم العديد من الفقهاء الكبار، والشعراء، والخطباء الذين كانت تعج بهم الأحساء والقطيف إبان عصر الشيخ الرئيس العيثان.

ولقد قام الشيخ الرئيس بدور المحرك لهذه الحركة العلمية الواسعة في منطقة الأحساء والقطيف، وبذلك أثرى العلماء الكبار الذين جايلوه الساحة العلمية

بأفكارهم ومصنفاتهم، واستطاع الشيخ العيثان أن يؤثر في عصره عقائديا وفكريا، فانتشر الإيمان والتصديق بمقامات وفضائل آل البيت عليهم السلام، في كل قلوب المحبين لهم من الشيعة في هذه المنطقة، ولم يزل إلى الآن، ولا شك أن علماء الشيعة الكبار الذين سبقوا شيخنا الرئيس من أمثال الشيخ الكبير محمد حسين أبو خمسين، المتوفي عام (١٣١٦ هجري) والسيد هاشم بن السيد سلمان الموسوي المتوفي عام (١٣٠٩ هجري) اللذان ركزا مبادئ وقيم مدرسة آل البيت الحكمية في قلوب الأحسائيين، وركزا فضائلهم ومقاماتهم على الساحة العلمية الأحسائية. لهم الدور الكبير، وفضل السبق في هذا الجانب. راجع القطيف وملحقاتها، ج ١، ص ٤٤٩. واستكمل هذا الدور الهام بعدهما الشيخ محمد العيثان المتوفى عام (١٣٣١ هجري) والسيد ناصر الهاشم، المتوفى عام (١٣٥٨) هجري

ونتيجة لهذا العدد الكبير من المراجع الكبار ن والعلماء، والمشائخ في هذا القرن، فقدت شهدت الأحساء تحديدا انتشار المدارس العلمية الحوزوية، بشكل ملفت للنظر في ذلك الزمان. ولقد عرف لبعض هذه المدارس، أماكنها -أبنيتها - الخاصة. بالإضافة إلى انتشار التعليم الحوزوي في المساجد والحسينيات. راجع (العلامة الإمام) ص ٨٧.

ومن أبرز تلك الحوزات العلمية، تلك التي قام بإنشائها والتدريس فيها الشيخ محمد حسين أبو خمسين في الهفوف، والسيد هام الموسوي في المبرز. راجع القطيف وملحقاتها، ج ١، ص ٤٤٩، ٤٥٠.

أما في قرية القارة، فقد أنشأ الشيخ الرئيس محمد العيثان مدرسة علمية وحوزة كبرى، تولى التدريس فيها بنفسه، وعلّم وخرّج العديد من العلماء والأفاضل التابعين للمدرسة الحكمية، ومن ثم نقل الشيخ العيثان مدرسته إلى قرية (الحليلة) بعد انتقاله إليها، وهناك قام الشيخ العيثان باستكمال دوره العلمي والتربوي في نشر آراء مدرسة آل البيت الحكمية، باعتباره أحد أبرز أعلامها الكبار. راجع العلامة الإمام، مخطوط، ص ٨٧.

وبالإضافة إلى هذه الحوزات الكبرى، يعدد الأستاذ البدر المدارس العلمية

الأخرى التي انتشرت في عصر الشيخ العيثان تحديدا، وفي مختلف مدن وقرى الأحساء. مثل مدرسة الشيخ عمران بن حسن السليم، وابنه الشيخ معتوق السليم في قرية (العمران الشمالية) وكذلك مدرسة الشيخ عبد الكريم الممتن في قرية (الجبيل). وغيرها من المدارس الأخرى الكثير. المصدر السابق، ص ٨٧.

إن عصر الرئيس بحق هو عصر المرجعيات الكبرى في منطقة الأحساء والقطيف معا، وإذا تكاثرت المرجعيات الدينية في هذا العصر، فهو عصر المعرفة، وبه تتابعت حركة التنوير الديني التي بدأها الرواد الأوائل، وهما المرجعيتان الكبيرتان للشيخ محمد حسين أبوخمسين وللسيد هاشم الموسوي، اللتان أسستا الحوزات العلمية في كل من مدينتي الهفوف والمبرز، وإذا كانت بين أيدينا العديد من الإشارات والدلائل التي تؤكد استمرار نشاط الحركة العلمية مع مطلع القرن الرابع عشر الهجري، فهناك بالمقابل الكثير من الدراسات التي تناولت أحداث ومكونات القرن الرابع عشر، لمنطقة الأحساء بمدنها وقراها، وتجاهلت بشكل تام تلك الحركة العلمية النشطة. بل وتجاهلت دور شيخنا الرئيس محمد العيثان تحديدا.

ولعل من أبرز كتب التراجم، التي تجاهلت شيخنا الرئيس العيثان (أحسن الوديعة) للسيد محمد مهدي الأصفهاني. وهو من المعاصرين للشيخ العيثان. ففيما كانت وفاه الشيخ العيثان(١٣٣١) هجري، كانت وفاه السيد الأصفهاني عام (١٣٧١) هجري. ومع ذلك لم يرد ذكره في (أحسن الوديعه). بل إن السيد الأصفهاني عدّد في آخر مصنفه هذا (مراكز العلم الشيعية) من أمثال النجف الأشرف، وكربلاء، والحلة، وهمذان، وغيرها من المراكز العلمية الشيعية، وعندما جاء إلى ذكر (الأحساء) باعتبارها مركزا علميا من مراكز التشيع، لم يزد تعريفه لهذا المركز العلمي على بضعة أسطر قال فيها (مدينة بالبحرين، معروفه مشهورة، لأن أول من عمرها وحصنها وجعلها قصبة هجر أبو طاهر الحسن بن ابي سعيد الجنابي القرمطي، وهي إلى الآن مدينة مشهورة عامرة واهلها كلهم شيعة إمامية) راجع أحسن الوديعة، ج ٢، ص ١٠٦. ومن ثم انتقل السيد الأصفهاني للحديث عن الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي، وتكفير العلماء له!

ويكتب المؤرخ محمد بن عبد الله العبد القادر كتابه (تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء القديم والجديد) وقد جمع المؤلف في هذا المصنف التاريخي، مادته من كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي عندما ذكر المدن والقرى والمواضع في منطقة الأحساء، وذكر بعض الأسر الأحسائية، محاولا إرجاع نسبها إلى القبائل العربية المعروفة، وسرد العبد القادر أسماء العيون الواقعة في هذا الإقليم، وأفاض في الحديث عن الكبيرة منها، وتكلم عن الزراعة، فعدد أنواع التمر والفواكه والحبوب، وبعد كل ذلك التفصيل الطويل الذي تجاوز ثلث الكتاب سرد التاريخ السياسي، مبتدئا بدولتي معين وسبأ، وأشار إلى هجرة قبائل قضاعه وإياد وعبد القيس من غرب الجزيرة إلى هذا الإقليم، ثم استرسل في ذكر الحوادث التي تعاقبت على إقليم الأحساء، حتى ظهورالقرامطة مستمدا جلّ معلوماته من تاريخ ابن الأثير. ومن ثم أسهب في ذكر دولة العيونيين، التي حكمت البلاد زهاء قرن ونصف من الزمن، ثم تناول بشكل مختصر تاريخ بعض الدول التي حكمت الإقليم، وتناول العهد العثماني حتى فتح الأحساء على يد الدولة السعودية، و(في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية، غادر عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل بجيوشه بلد ةالرياض، عاصمة ملكه، وتوجه إلى جهة الأحساء، ولما نزل على بعض المياه القريبة منها، جاءت النذر إلى متصرف الأحساء) تحفة المستفيد، ص ٢٠٧، وهكذا يستمر العبد القادر في الإسهاب في وصف الحالة السياسية قبل عام ١٣٣١ هجرية، وهي سنة فتح الأحساء وهي نفس السنة التي توفي فيها الشيخ العيثان، داخلا في تفاصيل الحروب، والأحداث السياسية، وأخبار السلاطين والملوك، ولايذكر شيئا عن الحالة العلمية الحقيقية التي سادت مطلع القرن الرابع عشر الهجري، ولا يشير للأسر العلمية الشيعية التي عرفت في هذا القرن، ولم يترجم للأعلام الكبار من علماء الشيعة من أمثال الشيخ أبوخمسين، أو الشيخ محمد العيثان، ولا لجهودهم في نشر العلم والثقافة الدينية في المجتمع، ولا غرابة في ذلك فالشيعة الأحسائيين عند العبدالقادرهم جماعة صغيرة من الفلاحين تسكن القرى وتمارس الزراعة، وليست (القارة) بلد الشيخ الرئيس العيثان، عند مؤلف (تحفة المستفيد) سوى أنها (من القرى القديمة في سفح جبل الشبعان المتقدم ذكره، ويعرف الآن بجبل القارة،

وتقوم فيها سوق عامة لأهل الأحساء في يوم الأحد من كل أسبوع وأهلها شيعة فلاحون) نحفه المستفيد، ج١، ص ٣٩.

ويترجم صاحب تحفة المستفيد للإعلام في الأحساء، من القرن الحادي عشر وحتى القرن الرابع عشر الهجري، وكلهم من علماء ومشائخ السنة، ولا توجد ترجمة واحدة في كل من جزئي الكتاب لأي من علماء الشيعة الكبار.

وعلى نفس المنهج الفكري، كتب عبد الرحمن بن عثمان الملا كتابه (تاريخ هجر) مصدرا كتابه بعنوان (دراسة شاملة في أحوال الجزء الشرقي من شبه الجزيرة العربية. الأحساء - البحرين - الكويت وقطر)، وكان الباعث للكاتب لكتابه (تاريخ هجر) شعوره بأن عدد من الكتب التي عالجت تاريخ الأراضي الشرقية من الجزيرة العربية، لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، وقد جاء (تاريخ هجر) في جزأين اشتمل الأول منهما على ثلاثة عشر فصلا تناولت البحث في الأحوال الجغرافية الطبيعية، والبشرية، والاقتصادية، والمنجزات الحضارية والعمرانية. أما الجزء الثاني من الكتاب فيتكون من ثمانية فصول، تضمنت البحث في الأحوال السياسية لهذه المنطقة منذ فجر التاريخ إلى القرن الرابع عشر الهجري. راجع كتاب تاريخ هجر، ص ٥. وبالطبع قد تعرض المؤلف الملا لأحداث هذا القرن، وهو قرن الشيخ الرئيس، ولكن دون إشارة إلى الحالة العلمية التي شهدتها بدايات هذا القرن، والتي قام بها الرواد الكبار من العلماء. نعم ذكر المؤلف تحت عنوان (المدارس العلمية في الهفوف) أساليب الدراسة من كتاتيب، ومدارس خيرية، وأربطة علمية، حتى قيام المدارس النظامية إبان الحكم العثماني. المصدر السابق، ص ٢٣٥-٢٣٨.

لقد رصد المؤلف (تاريخ هجر) السني خلال تلك الفترة، زائحا الدور الشيعي، والعلماء والبيوتات الشيعية في هذا التاريخ. أما قرية (القارة) فقد أرخ لها في بضعة أسطر في تاريخه، مشيرا إلى هذه القرية بأنها (تقع في الشمال الغربي من جبل القارة ولعلها الجزء المتبقي من مدينة القارة إحدى مدن هجر المار ذكرها. وإلى القارة ينسب الشاعر الأديب سلمان عبد المحسن العلي القاري المتوفي سنة ١٣٥٩ هجرية والأديب السيد محمد باقر بن علي الشخص المتوفي سنة ١١٨٢ هجرية) المصدر

السابق، ص ٢٥٨. وإذا كان هذا كل ماكتبه المؤلف الملا عن تاريخ القارة القديم والحديث، فإنه أخطأ في تاريخ وفاة السيد الشخص المتوفى عام(١٣٨١). راجع أعلام هجر، ج٣، ص ٢٥٤.

وتحدث الدكتور خالد بن سعود الحليبي عن الحياة الثقافية في منطقة الأحساء في القرن الرابع عشر الهجري - قرن الشيخ الرئيس - مشيرا إلى أن هذا القرن والقرون الثلاثة السابقة له، قد شهدت (نهضة علمية مباركة بدأت منذ أواخر القرن العاشر الهجري واستمرت في النمو والازدهار حتى بلغت أوجها في النصف الأول من القرن الرابع عشر، حيث كانت مركز الثقافة والعلم في الخليج وشرقي الجزيرة، وامتدت أثرها إلى نجد) الشعر الحديث في الأحساء، ص ٢٧. وبالطبع فإن الدكتور الحليبي يرجع مجمل هذا الازدهار في النهضة العلمية في منطقة الأحساء إلى المشائخ والبيوتات السنية في تلك الفترة، ويحاكي الملا في (تاريخ هجر) حين يعدد الوسائل والأساليب في التعليم: من كتّاب، ومدارس علمية، وأربطة علمية، ومساجد بالإضافة إلى مجالس العلم العامة، ولا نتوقح من كتاب خصص لدراسة الشعر الحديث في الأحساء، أن يتناول عطاء الشيخ الرئيس العلمي في ذلك القرن، لأنه خارج تخصصا عن نطاق الكتاب موضوعا.

ويتناول الدكتور محمد عرابي نخله تاريخ الأحساء في القرن الرابع عشر الهجري، وتحديدا بين عامي ١٨١٨-١٩١٣ الميلادي، إلاأنه تناول هذا التاريخ من منظور سياسي بحت، ويصل إلى عام ١٩١٣ الميلادية والتي توافق العام الواحد والثلاثون والثلاثمائة والألف هجرية (١٣٣١) وهي سنة وفاة شيخنا الرئيس العيثان، ويخصصها في تفصيل (استعادة الأمير عبد العزيز آل سعود للأحساء) غارقا في التفاصيل التاريخية لهذا الحدث السياسي، ولا يتناول الكاتب أي من الجوانب العلمية أوالاجتماعية الأحسائية في تلك الفترة. راجع تاريخ الأحساء السياسي، ص ٢٢٧.

وإذا تناول الدكتور نخله تاريخ الأحساء من منظور سياسي بحت، فإن عبد الرحمن العبيد قد تناول تاريخ الأحساء من منظور جغرافي بحت هو الآخر، ولقد أشار العبيد في موسوعته الجغرافية، إلى هذا الجانب بوضوح: (وكان هدفي من هذا

البحث أن أبين مواقع المنطقة وجغرافيتها العامة للدارسين ومحبي البحث لمعالم الجزيرة العربية وما طرأ عليها خلال العصور) الموسوعة الجغرافية، ج١، ص ٩. وفي باب حرف (القاف) من الموسوعة أورد العبيد تعريفا لقرية الشيخ العيثان -القارة - وصفها بأنها (قرية معروفة في الأحساء، وتقع على سفح جبل القارة، يقام فيها سوق الأحد، وهي تابعة لمدينة الهفوف، يسكن فيها نحو ١٩٦٤ نسمة حسب إحصاء ١٣٨٠ هجري) المصدر السابق، ج ٢، ص ١٨٩.

وأشار العبيد إلى أن القرية بها عدد من المدارس الحكومية للبنين والبنات وبها شبكة الهاتف، والماء، والكهرباء. وقال الأستاذ العبيد أن قرية (القارة) قد ذكرها ابن عبد القادر في تاريخه، وذكرها الباحث الأثري (فيدال) عام ١٩٥٢م.

وإذا كانت هذه الموسوعة موسوعة جغرافية متخصصة، فلاعجب إذن اذا لم نجد إشارات واضحة للحياة العلمية والاجتماعية في بلدة القارة، أو لمدينة الهفوف، بحكم تخصص الموسوعة في الشأن الجغرافي.

إلا أن المؤرخ ف. ش. فيدال والذي ذكره العبيد في موسوعته، كان قد كتب عن الجانب الجغرافي، والاجتماعي، والاقتصادي في الأحساء، وعلى الرغم من أن الباحث الأمريكي فيدال، الذي عمل بشركة الزيت (آرامكو) في منتصف القرن الماضي، قد تعرض لكل تلك الجوانب، وبالأخص تعرضه لبعض الملامح الجغرافية والتاريخية القديمة للأحساء، إلا أن اهمية الكتاب الذي أسماه (واحة الأحساء) تكمن (في طريقة جمع مؤلفه للمعلومات، اذ اعتمد على الأسلوب الميداني، والتحدث المباشر إلى ذوي العلاقة، وجمع المعلومات في استمارات خاصة ومعاودة التأكد من معلوماته من مصادرها الأصلية، وطريقة انتقائه لها، فضلا عن إجادته للغة العربية، وفي المساعدة التي تلقاها من قسم الأبحاث العربية بشركة ارامكو) واحة الأحساء، ص ١٠.

ولهذه الأسباب قام الدكتور عبد الله السبيعي بترجمة الكتاب بالإضافة إلى (ما يفيض من معلومات قيمة عن تاريخ الأحساء الاجتماعي، كونه ينفرد بمعلومات

متميزة ودقيقة لم يسبقه اليها أحد من قبل عن قرى الأحساء، ودراستها دراسة تفصيلية، وتقديم قائمة - تكاد تكون كاملة - بأسمائها، ووصفها وبين أحوالها الاقتصادية والاجتماعية، وهي معلومات قد لا يحيط بها ابن الأحساء.) المصدر السابق، ص ١٠.

وبالفعل فقد تحدث فيدال عن قرية القارة بشيء من التفصيل مركزا على الجانب الجغرافي والزراعي للقرية، متناولا هذين الجانبين بأسلوب وصفي دقيق، يدل على دقة الملاحظة والتدوين الذي يتميز به الكاتب، وعلى الرغم من أن تاريخ (واحة الأحساء) لفيدال يتناول بالتحديد النصف الثاني من القرن الرابع عشر، إلا أن الكاتب لم يهتم كثيرا بالجوانب الثقافية والعلمية لإقليم الأحساء في تلك الفترة. ولو قدر لهذا الكاتب أن يتناول تلك الجوانب في بدايات القرن الرابع عشر، لجاءت كتاباته منصفة، ودقيقة، وشاملة لعصر الشيخ الرئيس العيثان. نقول ذلك لعلمنا أن الترجمة التي قام بها الدكتور السبيعي ليست ترجمة أمينة ودقيقة. فقد حذف وأضاف، أو أبدل من النص الانجليزي عندما نقله للعربية.

وإذا كان عبدالرحمن الملا صاحب (تاريخ هجر) قد نظر إلى الحالة الثقافية والعلمية الأحسائية من منظور مذهبي بحت، فإن الملا الآخر قد كتب أيضا من هذا المنظور أيضا. فقد كتب عبد اللطيف بن عثمان الملا عن الجانب التعليمي في الأحساء خلال خمسة قرون، بدء من القرن الحادي عشر الهجري، وحتى القرن الخامس عشر. وجاء عنوان مؤلفه (لمحات من الحياة العلمية في الأحساء) وتجنب الخوض في الجوانب الاقتصادية أو الاجتماعية للأحساء. وقد أكد الملا هذا التناول (لم يشتمل الكتاب على معلومات عن الحياة الفكرية والاجتماعية بالأحساء في الماضي إلا ما مر عرضا حسب المناسبة) ص ٨.

وبالإضافة إلى قصور الكتاب على الجوانب العلمية، فإن الكتاب ليس سوى مجموعة من المقالات الصحفية، التي تتشابه في موضوعاتها، كانت قد نشرت في أوقات سابقة في الصحف المحلية، ويوضح المؤلف عبد اللطيف الملا هذا الأمر عندما أشار إلى أن (موضوعات هذا الكتيب تعتبر بحوث موثقة بدأت إعدادها منذ

أكثر من خمس سنوات لصعوبة الحصول على المصادر التي يمكن الاعتماد عليها، وقد قمت بنشر بعضها في صحيفة اليوم على فترات ابتداء من عام ١٤٠٦ هجري، وإن من أهم الدوافع التي جعلتني أبادر بجمعها في كتيب واحد هي متابعة القراء الكرام وتشجيعهم) المصدر السابق، ص ٧.

ابتدأ الملا موضوعاته بمدارس الكتاتيب، وأعطى لمحة عن الحياة التعليمية بالأحساء. وعدد أقدم المدارس في المنطقة، وكل هذه المدارس والكتاتيب والأربطة من المذهب السني، ولم يشر المؤلف إلى مدرسة شيعية واحدة في تلك القرون الاربعة. وأورد العديد من أسماء علماء ومشائخ أهل السنة، ولم نجد إشارة واحدة لأحد علماء أهل البيت عليهم السلام. لذلك يمكننا القول أن تاريخ الأحساء التعليمي - كما جاء في كتيب الملا - هو تاريخ مبتور، لا يمثل كامل الحقيقة. ويكون المنظار الذي نظر به عبد اللطيف الملا صاحب (لمحات من الحياة التعليمية في الأحساء) هو نفس المنظار الذي نظر به أخوه عبد الرحمن الملا صاحب (تاريخ هجر).

ولا تنقصنا الشجاعة للقول: أن كتابات الكتاب الشيعة، هي الأخرى تمارس نفس الدور الاقصائي الذي يمارسه الكتاب السنة، عند تناول أعلام الأحساء، أو تاريخ الأحساء. فتكتب تلك الأقلام من منظور مذهبي واضح، ونحن نلتمس العذر لكل الكتاب الذين قاموا بتلك الجهود الفردية لتدوين ودراسة تاريخ الأحساء، إلا أننا لا نلتمس العذر للتدوين المؤسسي أو التاريخ الرسمي؛ لأن هذا النوع من التدوين، لابد وأن يأخذ شكله الوطني، ولابد أن يكون منصفا وعادلا وشاملا.

ونعود لرصد أبرز المصادر التي تحدثت عن تاريخ الأحساء القديم، محاولين إلقاء الضوء على الاتجاهات الموضوعية لكتابتها، واستشراف الحالة الفكرية والثقافية والتعليمية في بدايات القرن الرابع عشر الهجري، قرن الشيخ الرئيس العيثان. ولعل من أبرز المصادر الرائدة (ساحل الذهب الأسود) لمحمد سعيد المسلم، و(الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقية) لعبدالله السبيعي.

إلا أن تركيز كتاب (ساحل الذهب الأسود) للمسلم، كان على تاريخ المنطقة

القديم، وهجرات الأقوام القديمة من كنعانيين، وفينيقيين، وكلدانيين وعمالقة وقبيلة طسم وجديس مشيرا إلى بعض الجوانب الثقافية والفكرية والسياسية العامة، التي اختصت بها منطقة ساحل الخليج العربي عن غيرها من المناطق، ولم يشأ صاحب (ساحل الذهب الأسود) أن يدخل في تفاصيل تلك الجوانب الثلاث في القرن الرابع عشر. نعم للأستاذ المسلم إشارات أكثر تفصيلا في كتابه الآخر (القطيف) الصادر عن الرئاسة العامة لرعاية الشباب بالمملكة العربية السعودية.

وجاء كتاب الدكتور السبيعي بأجزائه الثلاثة، أكثر تفصيلا لمناحي الحياة العلمية قديما وحديثا لكامل المنطقة الشرقية، منذ عهد (الكتاتيب) لتعليم القرآن الكريم وبعض العلوم الشرعية، مرورا (بالمدارس العلمية) المخصصة لتدريس العلوم الشرعية للكبار، و(الأربطة العلمية) والتي هي المساكن الخاصة لطلبة العلوم الشرعية والوافدين إلى المنطقة من الخارج، ورغم التفاصيل التي كتبها الدكتور السبيعي في الأجزاء الثلاثة، إلا أنها لم تشر بشكل واضح للجهود العلمية لشيخنا العيثان في بداية القرن الرابع عشر، وكذلك قبله (ساحل الذهب الأسود) الذي ركز على الجوانب التاريخية والأثرية المغرقة في القدم.

أما الباحث علي أكبر بوشهري، فقد ركز على الجانب الأثري والتاريخي القديم لساحل الخليج العربي في كتابه (التاريخ القديم للبحرين والخليج العربي) غارقا في تفاصيل الرموز الدينية، والأختام التاريخية، والأزياء في دلمون، في الألف الثالث قبل الميلاد. بينما حاول محمد علي الشرفاء في (المنطقة الشرقية حضارة وتاريخ) أن يكتب كتابة شاملة لتاريخ المنطقة منذ الهجرات القديمة، مرورا بالعهد الإسلامي، وحتى استيلاء السعوديين على إفليمي القطيف والأحساء.

وبالطبع هناك العديد من الكتابات، والكتب القديمة التي تناولت الجوانب السياسية، أو أشارت للجوانب التعليمية والثقافية في منطقة الأحساء من أمثال المستشرق ج. ج لوريمر في (دليل الخليج)، أو حتى الكتابات الحديثة من أمثال (النهضة الأدبية في المنطقة الشرقية) لعبد الله الشباط، أو كتاب (الأحساء والكتاتيب) لأحمد بن محمد الملحم، إلا أنها لم تنتبه إلى أن هذا القرن - الرابع عشر الهجري -

هو عصر المرجعيات الكبرى، وفي مقدمة هذه المرجعيات الدينية المحلية مرجعية شيخنا الرئيس العيثان، وهذه ميّزة اختص بها عصر الشيخ العيثان، دون غيره من العصور التي شهدتها منطقتي الأحساء والقطيف، وقد كان الشيخ العيثان على درجة عالية من التواصل، والتآلف، دون أن يرصد لنا التاريخ أي صراع بين مرجعية الرئيس ومرجعيات العلماء الكبار المتواجدة في الأحساء والقطيف، أوالمجايلة لمرجعيته، وكان تيار مدرسة آل البيت الحكمية في مقدمة التيارات الشيعية الفاعلة في النصف الأول من القرن الرابع عشر، ولقد أشرنا في (الإطار التاريخي) من هذا الكتاب إلى أن عصر الرئيس قد ضم (١٢) فقيها وعالما من علماء الشيعة الكبار، أغلبهم من مراجع التقليد في منطقة الأحساء فقط، بالإضافة إلى الفقهاء الكبار ومراجع التقليد في القطيف الذين جايلوه، أو الذين تخرجوا من حوزته العلمية.

إن التاريخ لابد أن ينظر بتجرد، ويلتزم بمعيار الحيادية. بل وينظر بنظرة واسعة شاملة (بانورامية) لكل المتغيرات في عصر من العصور، عند رصد ظاهرة أي ظاهرة اجتماعية، وكثير من المؤرخين نظروا بعين واحدة لتاريخ الأحساء. وأهملوا بقصد أو من غير قصد الدور الشيعي في هذه المنطقة، والبعض الآخر أهمل بقصد مرجعية الشيخ الرئيس العيثان، وحاولنا التدليل على هذا الحيف والانحياز ضد ترجمة ودور الشيخ العيثان، بعشرات الأدلة من كتب المؤرخين القدماء والمعاصرين، وإذ أهملت كتب التاريخ الدور الكبير لمرجعنا الرئيس، فماذا عساها أن تكتب سوى عن بعض (الكتاتيب) لتعليم الصغار، أو عن بعض (المدارس العلمية) التي يتلقى فيها الطلبة بعض العلوم الشرعية.

ورغم الصعوبات العلمية لرصد تفاصيل الجوانب الثقافية والعلمية، والدور الاجتماعي للمراجع الكبار في تلك الفترة، لاقتصار كتب التراجم على السيرة العلمية البحتة، لهذا الفقيه أو ذاك. إلا أننا قطعا نستطيع أن نتلمس مظاهر عطاء تلك المرجعيات الكبرى.

ولعل من أبرز مظاهر عطاء مرجعية الرئيس هو الحفاظ على نهج مدرسة آل البيت الحكمية واستمراريتها، وتخريج ذلك العدد الكبير من الفقهاء - كما سيمر

علينا بعد قليل – من خلال حوزته العلمية المباركة.

ولا نريد أن نرجع كامل النهضة العلمية والفكرية في بدايات القرن الرابع عشر لشيخنا الرئيس فقط؛ لأننا سبق وأن أشرنا ولمرات عديدة لدور علماء الشيعة الكبار في الأحساء والقطيف منذ بدايات القرن الحادي عشر الهجري.

وفي هذا العصر – عصر المرجعيات – تواجدت مرجعيات كبرى في الأحساء قبل مرجعية الرئيس، وبعد مرجعيته بقليل، من أمثال مرجعية الشيخ أبو خمسين، والسيد السلمان في الأحساء، ومرجعيات الشيخ مبارك آل حميدان الجارودي، والشيخ حسين بن محمد بن جعفر الماحوزي البحراني، والشيخ عبدالله بن معتوق القطيفي التاروتي، والشيخ أبو الحسن الخنيزي، والسيد ماجد العوامي المتوفى عام (١٣٦٣ هجري) وبوفاته تكون قد أسدل الستار على عصر المرجعيات المحلية الكبرى.

ثانيا. شخصية العيثان

لا يمكن الادعاء بأن أساطير التاريخ اليوناني والروماني القديم، لم تؤثر على مشاعر المؤرخين المسلمين، فتحملهم على تقديس الشخصيات العظيمة، والبطولات النادرة، ولايمكن لنا التسليم بأن التاريخ الإسلامي، قد خلا من هذا التأثير اليوناني الذي حفل يوما بالعبقريات والمعجزات والخوارق. رغم ذلك، يمكن القول أن الإسلام قد حرر (العقل التاريخي) وبذلك جاءت صفحات إسلامية مشرقة (خلت تماما من تمجيد الفرد إلا بقدر ما يعمل في طاعة الله) المسلمون وكتابة التاريخ، ص ٢٢٠.

ونحن نعتقد جازمين أن (الفرد) البطل في الترجمة لا يصنع التاريخ وحده. لكن الشخصية البطلة قطعا لها ذلك التأثير الكبير في صنع التاريخ. كما أن الشخصية البطلة، تمثل تمثيلا دقيقا لعصرها التي ولدت فيه، وعاشت، وتفاعلت مع مختلف عوامل التأثير الأخرى، والتاريخ يرصد لنا شخصيتين بارزتين: شخصية ايجابية، تمثل هي بذاتها ظاهرة اجتماعية، تتفاعل معها وبها كل أحداث العصر ومحركاته.

وشخصية أخرى سلبية، على هامش الأحداث، فتبقى على مداخل أبواب التاريخ البشري لايمكنها الولوج إلى ردهات التاريخ.

هناك شخصيتان: شخصية تتمثل فيها ملامح البطولة، أي كانت سماتها، وشخصية منسية، تتمثل فيها ملامح مزيفة من شوامخ العظمة. إلا أن (الشخصية البطلة) وإن كانت ظاهرة اجتماعية - كما يرى المؤرخون المتأخرون - إلا أنها ظاهرة ايجابية الهدف، ونقية القصد، وبذلك أن ننضوا عنها ثوب البطولة الذاتية، ولايفيد صفحات التاريخ أن تبرز صفات التفرد والعبقرية، والعطاء، والتأثير الذي أحدثته في تاريخ مجتمعاتها، أو لربما في تاريخ البشرية قاطبة.

ولكن كيف يمكن لنا الادعاء أن شخصية الشيخ محمد بن عبدالله العيثان، هي من تلك الشخصيات الفذّة التي أثرت في مجتمعاتها؟ ويبقى السؤال الأصعب: كيف لنا أن فهم شخصية عملاقة مثل شخصية الرئيس العيثان؟.

نعتقد أن (كمال العقيدة) هو مفتاح شخصية العيثان. هذا المفتاح الإيماني، هو الذي يفك كل مغلق من أبواب عظمة شخصية الرئيس، ولا نبالغ إذا قلنا أن هذا المفتاح هو الذي يوضح كل ملمح، يحتاج إلى توضيح في جوانب شخصيته.

و(كمال العقيدة) هو ذلك الإدراك الواعي بأبعاد الدين الحكمية، وهو الإيمان المطلق بالمنزلة العالية، والمقامات الربانية لآل البيت عليهم السلام، وهو - باختصار شديد - ليس سوى الاعتقاد الجازم بكل أفكار وآراء مدرسة آل البيت الحكمية.

وقد كان الإيمان المطلق، يملأ قلب شيخنا العيثان وهو صغير، بينما أنار الاعتقاد الجازم عقل شيخنا العيثان وهو كبير، ولم تخرج سمات شخصيته الفذة، وفي كل أدوار حياته عن الإيمان والاعتقاد يوما.

وبذلك استطاعت تلك الشخصية الأحسائية الفذة، أن تصنع تاريخ مجتمعها في القرن الرابع عشر الهجري، وبعطائها العلمي الكبير، وبتربيتها جيلا أحسائيا مؤمنا، وبإعدادها مجموعة كبيرة من العلماء والفقهاء الرساليين.

لقد كان (كمال العقيدة) فطرة إنسانية، في قلب الشيخ العيثان، وفي فكره، وفي تحصيله العلمي، وفي كل علاقاته بأهله ومجتمعه وربه. فمنذ مولده الشريف بقرية (القارة) عام (١٢٦٠) هجري، وقد نشأ وتربى وترعرع في بيئة أحسائية طاهرة، وفي كنف والده العلامة الشيخ عبد الله العيثان، عارفا ومصدقا بمقامات آل بيت النبوه عليهم السلام. ثم هاجر إلى العراق عام ١٢٨٣ هجري، وعمره ٢٢ عاما. ودرس في النجف الاشرف، وفي كربلاء المقدسة، وهما أضخم مركزين علميين في عالم التشيع، تمتلىء حوزتيهما، وتمتلئ قلوب مجتهديها الكبار ب(كمال العقيدة) ألا وهو التصديق المطلق لمقاماتهم عليهم السلام، وهناك حضر على يد أساتذة كبار، فتحول (إيمانه المطلق) إلى (اعتقاد جازم) بولايتهم المطلقة عليهم السلام.

وليس أدل على (الاعتقاد الجازم) عند الشيخ العيثان، إلا تتلمذه على يد أستاذه الكبير الميرزا محمد باقر الأسكوئي الحائري المتوفى عام (١٣٠١) هجري، حينما قرأ عنده في مدينة كربلاء المقدسة، كتب الحكمة الإلهية للشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي. فقرأ (شرح العرشية) و(شرح المشاعر) و(شرح الفوائد الحكمية) بل وقرأ أيضا كتاب (اللوامع الحسينية) للسيد كاظم الرشتي. أعلام هجر، ج ٤، ص ٤٥٨.

ولازم (كمال العقيدة) شيخنا العيثان في كل أدوار حياته: طفلا في حجر أمه، وصبيا متجولا في أزقة القارة، ولازمه يافعا مهاجرا من الأحساء للعراق، ولازمه كهلا عائدا إلى وطنه لكي يقوم بواجباته الدينية والإرشادية، معلما للناس وإماما. وبقي هذا الايمان المطلق - كمال العقيدة - وهو مرجعا كبيرا، قد امتدت مرجعيته إلى خارج الأحساء، ولازمه في انتقاله من (القارة) للسكن في بلدة (الحليلة) عام (١٣٢٠) هجري، ولم يزل شيخنا العيثان (كامل العقيدة) حتى لاقى ربه في الأحساء يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام من عام (١٣٣١) هجرية. ودفن في مقبرة الحليلة. المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٦٣.

و(كمال العقيدة) تحديدا، هو الذي قرّبه من أساتذته، وجعله محط حبهم واحترامهم، وطوّر علاقته بعلماء عصره الكبار، وليس أدل على ذلك، إلا علاقته

بأستاذه العلامة السيد مهدي بن السيد حسن القزويني عندما طلب منه شرح كتابه (الشهاب الوامض في أحكام الفرائض) فشرحه الشيخ العيثان في مجلدين ضخمين استدلاليين، وبالطبع فإن الشيخ العيثان قد وصل لهذه (العلاقة الوطيدة بعلماء عصره، وذلك بحكم مكانته العلمية العالية التي تبوأها) العلامة الإمام، ص ٨٩. إلا أن الصحيح أيضا أن الزهد والورع والتقوى التي هي مظاهر (كمال العقيدة) عند شيخنا العيثان، هي التي جعلت له تلك المكانة المميزة.

وبالإضافة إلى علاقته بأستاذه السيد القزويني، فعلاقته الأخرى بأستاذه الميرزا محمد باقر الأسكوئي هي محط إعجاب الكثير من الكتاب والمؤرخين، إلا أنهم عجزوا أو تناسوا، كيف استطاعت شخصية الرئيس العيثان أن تسمو إلى هذه المكانة العالية، وربما تصوّر البعض أن مكانته العلمية العالية، هي الوحيدة التي جعلت منه ذلك المرجع الكبير محمد العيثان.

لم يكن المجتمع الأحسائي في ذلك اليوم بسيطا وساذجا، وفيه ٢٧ مجتهدا كبيرا، وعشرات المشائخ والخطباء الحسينيين، حتى يتفرد العيثان من دونهم ويلقب بـ(شمس الشموس)، ولولا أن الشيخ العيثان يستحق هذا اللقب بجدارة، لم يلقب بهذا اللقب البهي، ولما أصبح مرجعا لكل الأحسائيين بلا منازع، ولما امتدت مرجعيته إلى بلدان الخليج وايران.

كان الشيخ العيثان (بكامل عقيدته) فرفعته إلى أعلى، وقربته من أساتذته. فكان يراسل الميرزا محمد باقر الأسكوئي المتوفي عام (١٣٠١) هجري، مستفسرا ومناقشا العديد من المسائل الحكمية، ومن أشهرها (أسئلة في معنى جف القلم) فأجابه الميرزا الأسكوئي بكتاب عنوانه (رسالة في جواب أسئلة الشيخ محمد بن عيثان في معنى جف القلم) قرنان من الاجتهاد والمرجعية، ص ٦٢٠.

وجمعته علاقة حميمية وطيدة مع الشيخ الكبير محمد بن حسين أبوخمسين المتوفى عام (١٣١٦) هجري. فكانت علاقة صحبة، وتواد، وزيارات متبادلة. العلامة الإمام، ص ٩١.

ومن علاقاته الوطيدة كانت له جوابات، وزيارات متعددة مع كل من الشيخ أحمد بن حبيب الدندن، وكذلك العلامة الجليل الشيخ محمد بن حسين الخليفة المتوفي عام (١٣٢٨) هجري، والشيخ العلامة موسى بن عبدالله أبوخمسين الذي كان أحد مراجع التقليد في الأحساء، وهو من أطلق لقب (شمس الشموس) على شيخنا العيثان.

ولولا (كمال العقيدة) ومظهرها من تقوى، وصلاح، وزهد، وإيمان راسخ بمقامات آل البيت عليهم السلام، لما نال هذا اللقب العالي من مرجع كبير مثل الشيخ موسى أبو خمسين، ولولا أنه (كامل العقيدة) لما بقي هذا الحب الكبير له في قلوب الأحسائيين، بعد مائة عام على وفاته.

ولا ننس علاقته الفريده بتلامذته، وبالأخص تلميذه الكبير الميرزا موسى الحائري الأسكوئي. راجع كتابنا (أول المجتهدين) ص ٧٩. وكذلك العلامة الإمام، ص ٩١. إلى غير ذلك من الصداقات العلمية، والأخوة الدينية التي ربطت شيخنا العيثان وبين العديد من علماء الأحساء والقطيف والعراق، والتي لم يسجلها لنا المؤرخون تفصيلا.

ورغم كل هذا الانشداد لشخصية رسالية، مثل شخصية الرئيس العيثان، إلا أن التاريخ المنصف، يعاود طرح السؤال الأول: كيف يمكن لنا الادعاء أن شخصية الشيخ محمد العيثان، هي من تلك الشخصيات الفذة التي أثّرت في مجتمعها؟ ماذا عمل الشيخ الرئيس تفصيلا بعد عودته من العراق إلى الأحساء، حتى تعد شخصيته من الشخصيات البطولية على صفحات التاريخ؟

كنا قد أشرنا قبل قليل - إجمالا - إلى أن الشيخ العيثان حمل لواء فكر مدرسة آل البيت الحكمية، التي أسسها الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي. وأعدّ علماء رساليين كبار، وبنى مجتمعا مؤمنا، بغرس حب آل البيت عليهم السلام في قلبه، والتعريف بمقاماتهم الشريفة، وكان ذاك عبر عدد من الأعمال والوسائل الجليلة التي كان يقوم بها رضوان الله عليه.

ولقد تطرق كل من ترجم للشيخ العيثان إلى هذه الأعمال الجليلة، وأشار إليها بوضوح السيد هاشم محمد الشخص في (أعلام هجر) و(دائرة المعارف الشيعية) وتناولها الأستاذ أحمد البدر تفصيلا في (الشيخ محمد العيثان العلامة الإمام)، وأسهب في التركيز على الأدوار التي قام بها الشيخ الرئيس عقب عودته إلى الأحساء.

أ: الزعامة الدينية:

لم يكد الشيخ محمد العيثان يصل إلى الأحساء عام (١٣٠٩) هجري، إلا وألقى إليه أهلها أمورهم الدينية. فكان الزعيم الديني في قريته والقرى الشرقية، ومدينة الهفوف، وكذلك مدينة المبرز، التي فقدت زعيمها الديني السيد هاشم السلمان. العلامة الإمام، ص ٩٨.

وبالطبع لم يرجع إليه أهل الأحساء قاطبة، وتتجاوز مرجعيته الأحساء منطقة الأحساء لمكانته العلمية العالية، ولدرجته الرفيعة، بل للثقة المطلقة في نهجه العقائدي، و(كمال عقيدته) التي استمدها من فطرته ومن مبادئ وأفكار مدرسة آل البيت الحكمية.

ب: الحراك الاجتماعي:

لقد تصدى الشيخ العيثان لإصلاح المجتمع، وعمل على حل الخلافات الاجتماعية. وخصص لها وقتا من يومه، وخصص لها مكانا معلوما. فقد اتخذ له منزلا في الساباط المعروف بساباط محمد العباد في فريق (الرحل) الواقع جنوب قرية (القارة) سابقا، وهو يقع خلف مسجد (الوكرة) الحالي القريب من حسينية العيثان. وكان شيخنا الرئيس يجلس لمقابلة الناس، والسؤال عن أحوالهم، وحل خلافاتهم، وتدبير أمورهم المعيشية في أوقات محددة. فتراه رضوان الله عليه، يحكم بينهم في مختلف القضايا الشائكة، ويجيب على مسائلهم الشرعية، بل ويقوم بتحرير الوثائق الشرعية، والوثائق الخاصة لمن يستحق عليه الخمس والصدقات من الفقراء.

وقد عمل الشيخ العيثان على إصلاح ذات البين، وتنقل (الذاكرة الشفهية) لأجدادنا عشرات الحوادث التي قام فيها الشيخ بإصلاح ذات البين بين الناس.

ج: النشاط المرجعي:

وكان للرئيس العيثان نشاط مرجعي ضخم متعدد الجوانب، في شتى نشاطات مرجعيته الكبرى. وكعادة المراجع الكبار في ذلك الزمان، فقد نصّب الشيخ العيثان عددا من الوكلاء الشرعيين عنه، وهم جميعا من المشائخ والعلماء الأفاضل من أمثال الشيخ عبدالله بن علي الدويل في مدينة الهفوف، والشيخ حسين بن الشيخ علي الصحاف في الكويت كما ترجح العديد من الشواهد التاريخية. راجع تذكرة الأشراف، ص ٢٩ - ٣٥. ورغم أن لشيخنا العيثان مقلدون في بلدان الخليج الأخرى، والبصرة، إلا أنه لا يمكننا القطع بأسماء وكلائه هناك.

د: إعمار المساجد:

وطالما أن الشيخ محمد العيثان عالم رسالي، فقد كان من أهدافه السامية، إقامة صلاة الجماعة وتعمير بيوت الله، وبالفعل أمر الشيخ العيثان ببناء المساجد والحسينيات في بلدة (القارة) ومن ثم (الحليلة) بعد سكناه فيها. كان ذلك عقب رجوعه من العراق مباشرة، حيث شرع في إعادة بناء أحد مساجد القارة القديمة، وإقامة الصلاة فيه، وأمر ببناء دار للوضوء، قرب المسجد، توجد بها عين، تعرف بعين (عيدة) وتوجد بهذه الدار غرفة للاغتسال، وعرف هذا المسجد لاحقا باسم مسجد الشيخ محمد العيثان. كما أقام صلوات الجماعة في الحليلة أيضا.

هـ: إنشاء المدارس:

وكما قام الشيخ العيثان بانشاء المساجد وتعميرها، فقد حرص أيضا على انشاء المدارس الدينية (الحوزات العلمية). وبالفعل قد اقام الشيخ بعد رجوعه من تحصيله العلمي بالعراق، بانشاء حوزة علمية كبرى في بلدة القارة وتخرج فيها العديد من الفضلاء الكبار - كما سيمر علينا في الفصل القادم - ومن العلماء الرساليين

المؤمنين بأفكار ومبادئ مدرسة آل البيت الحكمية. وقد اشار إلى هذه المدرسة (الحوزة العلمية) العديد من الكتاب المنصفين، الذين كتبوا عن النهضة العلمية في بدايات القرن الرابع عشر الهجري من أمثال الشيخ محمد الحرز، حينما تنأول (التركيبة المذهبية في الأحساء) مجلة الواحة، عدد ٣٨، ص ١٠٤، وكذلك الأستاذ عبد الله الشباط في كتابه (الأحساء أدبها وأدباؤها المعاصرون) ص ١٧ وغيرهما. ويرى الأستاذ البدر ان الشيخ العيثان، قد أنشأ مدرسة علمية أخرى في بلدة (الحليلة) عقب انتقاله للسكن فيها، رغم استمرارية مدرسته الأولى في بلدة القارة. العلامة الإمام، ص ١٠٥.

و: تولي القضاء:

وبالاضافة إلى كل تلك الاعمال الجليلة التي قام بها الشيخ العيثان، والتي انطلقت من حس ايماني ومن كمال عقائدي في كل جوانح شخصيته الفذة، تولى أعلى وأهم منصب اجتماعي وديني الا وهو (القضاء). وإلى هذا المنصب الرفيع يشيراليه الشيخ محمد الحرز بوضوح (تضمن نشاطه إضافة إلى أعباء المرجعية، جانب القضاء بين الناس في مقر إقامته بقرية (الحليلة) حيث كان محط أنظار الناس داخل الأحساء وخارجها والفصل في جميع خصوماتهم وخلافاتهم). ونعتقد ان منصب القضاء كان شاملا لكل منطقة الأحساء، خلافا لمايراه بعض الكتاب من ان (القضاء) الذي تولاه الشيخ العيثان، كان قاصرا على بلدة الحليلة أو القارة. والسبب يعود إلى ان القضاء، أحد وظائف (المرجعية المطلقة) التي كان الشيخ العيثان يتسنمها -في ذلك الوقت- في كل مدن الأحساء وبلداتها، بل وخارج منطقة الأحساء أيضا. راجع العلامة الإمام، ص ١١٠.

وفي اطار هذه المرجعية الكبرى للشيخ الرئيس العيثان، كان يتصدى للدفاع عن المظلومين، ولا يتردد في الدفاع عن العقائد الاسلامية، ويرد على الاستفسارات التي ترد اليه من المؤمنين. ويفند اشكالات المشككين.

كما قام رضوان الله عليه بواجبه العلمائي، بالاجابة على المسائل الشرعية

والحكمية التي تصل اليه من العلماء الشيعة من داخل الأحساء وخارجها من أمثال اجوبته (لمسائل الشيخ حسين الصحاف) و(اجوبة المسائل الكويتية) وكلاهما من خارج منطقة الأحساء.

ز: أعباء الزعامة الكبرى:

والحقيقة أن تصدي الشيخ الرئيس للمرجعية الدينية بل للزعامة الكبرى في منطقة الأحساء هي من أهم الأعمال على الإطلاق التي قام بها الرئيس، وهي عنوان عام لكل ماسبق من أدوار ونشاطات للشيخ العيثان، وهي التي جعلت من شخصيته تلك الشخصية البطولية الفذة، والتي جعلته مع مصاف العظماء ممن صنعوا التاريخ.

وسنركز على هذا الدور المحوري لمرجعيته في الفصل القادم، ونوضح كيف أصبح الشيخ العيثان، أحد أبرز رموز التنوير في منطقة الأحساء والخليج.

وتتلاقى في شخصية الرئيس جانبا العلم والإيمان، وهذان الجانبان يتمثلان في (كمال العقيدة). فتترسخ في شخصيته التقوى والورع والزهد وحب العمل، ووتبلورت ب (كمال العقيدة) شخصية عرفانية من الطراز الأول، وإيمانية من الدرجة العالية. فينقل لنا المؤرخون (الكرامات) النورانية التي تصدر منه رضوان الله عليه، ونعتقد جازمين أن (كمال العقيدة) تأصل في شخصية العيثان، فأصبح ذلك العالم العرفاني، والشيخ المهيب الذي لا يدانى. راجع ترجمة الشيخ حسين بن محمد الدندن التي كتبها الحاج عبد الوهاب المريضيف. وكذلك (أنوار البدرين) في ترجمة السيد عبد القاهر التوبلي البحراني، ج١، ص ٥٥٠. حيث أشار هذان الكاتبان للكرامات النورانية للشيخ محمد العيثان.

إلا أن شخصية بحجم شخصية العيثان، وهي بهذا الكمال العقائدي، لا تكتفي بهذه الكرامات فقط. فما يلحق اليوم بسيرة الشيخ العيثان من كرامات، تصل إلى حد الأساطير التي لا تصدق. يقول الأستاذ البدر وهو أحد أبناء قرية الشيخ العيثان القارة (ولقد سمعت من بعض كبار السن في (القارة) و(الحليلة) و(الجبيل) ذكر الكثير

من الكرامات للشيخ محمد العيثان، سمعوها من آبائهم، وقد أعرضت عن ذكرها لعدم نقلها من مصدر مكتوب، ولكن بعض المعلومات الشفهية، وخاصة فيما يتعلق بالمدح والثناء والكرامات وغيرها لا تخلو من المبالغات البعيدة عن الصحة والتي تكون أشبه شيء بالأساطير) العلامة الإمام، ص ١٧٢. ولا يهمنا هنا أن نضيف إلى سيرة الشيخ العيثان كرامة لا تصدق. لاعتقادنا الراسخ أن الكرامة لن تزيد شخصية الرئيس بريقا ولمعانا وهو (شمس الشموس). إلا أننا لا نستغرب ولا نستوحش من كرامة تصدر من شخصية عرفانية، مُلأت (بالعقيدة الكاملة) في خضوعها لخالقها، وفي معرفة وحب محمد وآل محمد ﷺ.

وشخصية الرئيس الشيخ - من جانب آخر - من عائلة (العيثان) الأسرة الأحسائية الكريمة، التي سكنت بلدة (القارة) طوال ثلاثة قرون من الزمن، وهي أسرة علمائية، يكثر فيها المشائخ والعلماء والخطباء. العلامة الإمام، ص ٢١-٣٨. أعلام هجر، ج٤، ص ٤٣٨.

وقد أشار إلى أسرة (العيثان) وجلالة شأنها العديد من المؤرخين من أمثال الشيخ جعفر الهلالي، مجلة تراثنا، عدد ٢٢، ١٤١١. والشيخ حبيب آل جميع، مجلة الموسم، عدد (٩-١٠) ص ٥٤٢. والشيخ علي البلادي أثناء ترجمته لشيخنا العيثان (وكان سلمه الله تعإلى من بيت علم وكثير من آبائه علماء فضلاء) أنوار البدرين، ٣٣٢. وكذلك الدكتور محمد هادي الأميني النجفي في ترجمة الشيخ الرئيس (لقد كان بيت المترجم له من البيوتات العلمية، وأكثر رجال بيته من العلماء والفضلاء) معجم رجال الفكر والأدب في النجف، ج١، ص ٩٠. وغيرهم العديد من المؤرخين المعاصرين، الذين أشاروا إلى هذا الجانب من شخصيته الأسرية.

فالشيخ الرئيس هو الشيخ محمد بن الشيخ عبدالله بن الشيخ علي بن الشيخ أحمد بن الشيخ علي العيثان. العلامة الإمام، ص ٣٨. وبذلك يكون هذا النسب العلمائي الكريم، قد عمّق الجانب العقائدي عن الشيخ العيثان، فأضحى من جهة الآباء، والتورّث، مؤمنا ومحبا ومصدقا بمقامات آل البيت عليهم السلام، ومن جهة التعليم، فقد تعلّم الحكمة على أيدي علماء كبار ساروا على نهج الشيخ أحمد بن زين الدين

الأحسائي، زعيم مدرسة آل البيت الحكمية. فكانت شخصية العيثان من زاويتي التربية والتعليم خالصة في (كمال العقيدة) لا تشوبها شائبة.

وإذا كان شيخنا الرئيس العيثان (هو أبرز عالم من هذه الأسرة في القرن الرابع عشر الهجري، وهو رمز عزتها ومجدها، وقد تولّد من سلالة علمية كريمة وآباء ذوي شأن عظيم) أعلام هجر، ج ٤، ص ٤٣٩. فإن تعلق علماء هذه الأسرة بمنهج مدرسة آل البيت الحكمية، وزعيمها الشيخ الأوحد، يمتد إلى أبعد من هذا القرن، وأبعد من عصر الشيخ الرئيس، ولا ننس العالم الكامل، الشيخ عبدالله بن ابراهيم العيثان أحد أبرز حواري وتلاميذ الشيخ الأوحد، والملازمين له في حله وترحاله. راجع كتابنا، أول المجتهدين، ص ٧٦. وكذلك أعلام هجر، ج ٢، ص ٢٢٠. فأسرة العيثان التي تبنى علماؤها العديد من مدارس الفكر الشيعي، عرفت مدرسة آل البيت الحكمية في بواكير تأسيسها.

ولم يتخل علماء ومشائخ أسرة العيثان عن هذا النهج لمدرسة آل البيت الحكمية. فقد رسّخ الشيخ الرئيس هذا النهج الفكري - بحكم (كمال العقيدة) في سمات شخصيته - في توجهات أولاده وأهل بيته الكرام، فبرز من أبناء الشيخ الرئيس: العلامة المجتهد الشيخ علي بن الشيخ محمد العيثان المتوفى عام (١٤٠١) هجري. أعلام هجر، ج٤، ص ٤٤٤. والشيخ حسن بن الشيخ محمد العيثان المتوفى عام (١٣٦٣) هجري. المصدر السابق، ج ٤، ص ٤٤٣. وبالإضافة إلى أبنائه، هناك أخوة الشيخ محمد، الذين تعلموا على يديه، ونهجوا على نهجه الحكمي المستمد من فكر مدرسة آل البيت الحكمية، وهما الشيخ حسن بن الشيخ عبدالله العيثان، المتوفى عام (١٣٤٩) هجري والشيخ علي بن عبد الله العيثان، المتوفي عام (١٣٣٧) هجري. راجع العلامة الإمام، ص ٧٣. مجلة تراثنا، عدد ٢٢، ص ٥٩. وغيرهم العديد من علماء وأفاضل أسرة العيثان الذين ذابوا حبا في آل البيت عليهم السلام، واعتقدوا صدقا بمنهج مدرسة آل البيت الحكمية. ولم تزل وإلى الآن كل أسرة آل عيثان بل وكل أهالي الأحساء والخليج من شيعة آل البيت محبين لهذا النهج مصدقين به.

نعم هناك قلة من الناس لا ترى سلامة هذا النهج، وغير مصدقة بالمقامات النورانية لمحمد وآل محمد صلى الله عليه وآله، وتشكك في (ولايتهم التكوينية) عليهم السلام. إلا أن

معظم مراجعنا المعاصرين كالإمام الخميني، والسيد الخوئي، والميرزا حسن الحائري، والسيد الشيرازي والشيخ البهجه، والميرزا التبريزي وغيرهم من العلماء الأعلام للطائفة، قد صرّحوا بثبوت الولاية التكوينية لهم عليهم السلام. راجع (أول المجتهدين) ص ١٠٤ -١٠٧.

ونعود للتأكيد - ونحن نسعى لمحاولة التعرف على (شخصية العيثان) الربانية - إنها شخصية بطولية فذّة، بما قدمته لمجتمعها، وبما أثرت في هذا المجتمع الإسلامي، وبما غرست في هذا المجتمع من قيم دينية عليا، ومبادئ إسلامية، وحب عقائدي راسخ لمحمد وآل محمد عليهم السلام، باق وإلى اليوم، رغم مضي قرن من الزمن على (غروبها) من على سطح الارض. وشخصية (شمس الشموس) تلك الشخصية الإيمانية العملاقة، التي كانت إيجابية الهدف، ونقية القصد، حينما أعطت بلا حدود لمجتمعها الإسلامي. فكتبت وألّفت، ودافعت عن الدين الإسلامي، وركّزت العقائد الإيمانية الكاملة في النفسية الأحسائية. فكانت شخصيته رضوان الله عليه، الصفحة الأنصع في تاريخ الأحساء في القرن الرابع عشر الهجري، ولا غرابة في ذلك، فالشيخ الرئيس هو العالم الكبير، والمرجع المطلق، الذي صبر في طلب العلم، وجاهد في الدفاع عن الحق، وغرس حب النبي محمد وآل بيته عليهم السلام في قلوب الأجيال الأحسائية المتعاقبة.

وإذا كان وصفنا لشخصية الرئيس العيثان دقيقا ومنصفا - وهو كذلك - فمن حق أهله، ومحبيه، وتلامذته أن يتفجعوا، ويبكوا لغيابه عنهم، لأنهم فقدوا شمسا ساطعة في سماء الأحساء، وشخصية تاريخية بطلة، لا يجود بها الزمان في كل وقت وحين.

ولعل أول من رثاه أخوه الشيخ حسن بن عبد الله العيثان، بأبيات ثلاثة لاتزال مكتوبة على قبره وإلى اليوم:

علامة العلماء ألبس رزؤه ... كل الأنام من الأسى جلبابا
لهفي على قمر تكوّر نوره ... في الأرض واتخذ التراب حجابا
وغدت تنوح لفقده أم العلى ... مذ أرخوه (فيا لبدر غابا)

ولا يخفى ذلك التوجع وذلك الأسى، والحزن الكبير على فقد الشيخ الرئيس. فكان رثاء أخيه له مرا، ومجسدا لفداحة المصيبة التي نزلت على أهالي الأحساء بفقد الشيخ العيثان، لأنهم فقدوا عالما، وإماما، ومرجعا، ومجاهدا، ولفقده لبسو الأسى أثوابا حداد عليه، وتجد في تلك الأبيات اللوعة والمرارة على غياب نور القمر البازغ تحت الثرى.

أما أخوه الثاني الشيخ علي بن الشيخ عبدالله، فقد رثاه هو الآخر بقصيدة طويلة، جسدت سمات شخصيته البطولية، وملامح مظهر (كمال العقيدة) في شخصية الرئيس، وأوضح جهاد الشيخ محمد، والعطاء النوراني الذي قدّمه لمجتمعه:

به أصبح الدين القويم مشيدا وأمسى به حكم الشريعة يسطع
به فجعتنا حادثات دهورنا فمن ذا له من بعده نتطلع
فنحن حيارى ضائعون بفقده وقد ضاعت الآراء والفكر أجمع

ففي هذه الأبيات بالإضافة إلى اللّوعة، والحزن، والمرارة بفقد الشيخ، تصريح بأن الشيخ العيثان قد أشاد الدين، ورسّخ مبادئ الإسلام، وأرسى قواعد التشيع في المجتمع الأحسائي، ولم يتم كل ذلك إلا بفضل علميته، وفقاهته، ومرجعيته المطلقة، وإيمانه المطلق بمدرسة آل البيت الحكمية.

أما تلك المبادئ والقواعد بتطبيقها في هذه المجتمعات، فإنها تسطع مثل شعاع الشمس. وإذا غاب الشيخ الرئيس - وهو شمس الشموس - فإن الخوف من أن كل تلك الآراء والأفكار تغيب بغيابه. فكأن الشاعر أراد أن يقول أن الشيخ الرئيس هو صاحب الرأي السديد، وهو صاحب الرأي الأول والأخير، والفكر الصائب الذي إن غاب لم يبق بعده فكر؛ لأنه المفكر، والمجتهد القائد، الذي أضحى أهالي الأحساء بعده يتامى.

ويواصل الشيخ علي رثاءه للشيخ الرئيس:

وأنت على الإسلام ظِل، وملجأ لدى الضعفاء والمجدبين ومفزع
فياضيعة المعروف والجود في الورى ويابدر ثم غاب ماعاد يطلع

لقد هدت الأركان من جانب الهدى وذّل به والله من يتشيع

وتلك من صفات شخصيته الحانية، تلك الشخصية التي (اكتملت عقيدة) وإيمانا، وحبا للنبي محمدا وآل بيته عليهم السلام. فأصبحت شخصية الرئيس في نظر الشاعر خيمته، وملجأ الأيتام، والضعفاء والمظلومين، وهو يرعاهم كالأب الحنون. بل إن شخصيته هي تجسيد للمعروف، ومثال للجود والكرم، ما إن غابت لن يطلع مثلها مدى الدهر. بل إن فقدان العالم العابد كالشيخ العيثان، فيه تهديم لأركان الدين، وبموته انثلم الدين ثلمة. أما الشيعة بفقده فقد أصبحوا يتامى حائرون، وأسرى أذلاء بيد أعدائهم. فقد كان الشيخ العيثان هو الحامي والمدافع بالقول والعمل عن حياض الدين، وعن الضعفاء والمظلومين.

ويكمل أخوه الشيخ علي قصيدته، وهي مليئة بالحزن، واللوعة، والتفجّع. ولاغرابة في ذلك حيث فقد أهل الأحساء مرجعهم الكبير، وقائدهم في الملمات:

فيامقلتي من مزن دمعك فاهملي فلله قلب بعده لا يقطع
رعى الله قبرا قد حوى جسم عالم له الناس طرا بلأقاليد ترجع
فياليتني كنت الفداء له ولا بقيت على فقدانه أتوجع
فو الله لو ذابت من الحزن مهجتي ودمعي عليه ساكب ليس يقطع
ونفسي عليه دائما في تلوّع ولم يهن لي نوم ولا أنا أهجع
حقيق عليه أن أنوح بحسرة وآفاق حزني في الحشا لي تلذع

وحق للشاعر الشيخ علي أن يحزن ويلتاع، إذا كان الفقيد من مثل أخيه الشيخ الرئيس، ولم ينس الشاعر هذا المصاب الجلل، فقد نقل لنا المؤرخون العديد من قصائد الشاعر الشيخ علي في رثاء أخيه، وبها الكثير من الحسرة والتوجع والألم. وبكل بيت من أبيات الشاعر به ملامح من السمات العالية التي كان شيخنا الرئيس يتحلى بها، ويلوم الشاعر كل من يوصيه بالصبر على تلك الفجيعة. بل ويعاهد نفسه أن لا ينساها أبد الدهر:

فيا عاذلي خلّني والجوى فما لملامي وجه يرى

تـؤمـل مـنـي أسـلـو عـمـادي ... دلـيـل الـرشـاد وهـدي العما
فـتـا الـلـه هـذا مـرام بعيد ... وحـاشـا تـنـلـه ولـو بـالـفـنا
فـلا تـتـرجـى سـلـو الـفـتـى ... فـهـذا رجـاء أراه هبا
أأسـلـو سـنـادي ومـعـتـمـدي ... وقـد عـشـت فـي عـصـره بالحيا
وكـان يـحـدثـنـي بـالـحـديـث ... الـصـحـيـح صـبـاحـا ومـسـا
حـقـيـق يـنـوح عـلـيـه الـتـقـى ... وأعـلام ديـن رسـول الـهـدى
وحـق لـنـا أن نـنـوح عليه ... ونـمـزج أدمـعـنـا بـالـدمـا

ورثاه الشاعر سلمان بن أحمد التاجر البحراني بعدد من القصائد الحارة:

حـادث قـد خـر كيوان به ... هـل تـرى أبـلـتـه أشـجـان
ام غـشـاه نـبـأ هـدت له ... مـن بـنـاء الـديـن أركـان
أم نـعـى أحـمـد فـي (مـحـمـد) ... سـنـة تـعـفـى وقـرآن
أم تـرى جـبـريـل قـد أبّـنـه ... فـي الـسـمـا وارتـاع رضـوان
شـيـعـوه وإلـى اسـتـقـبـالـه ... زُيـنـت حـور وولـدان
وكـذا الـجـنـات فـتـحـن إلـى ... روحـه الأبـواب وإزدانـوا
فـعـلـى الـرجـف قـد كـادبـه ... فـرقـا يـنـهـار ثـهـلان

وفي قصيده أخرى للشاعر البحراني يقول:

دمـعـت عيننا عـلـم أهـل البيت ... عـلـم الـوصـي وأسـرار أحـمـد
حملتنا مـالـم تـحـمـلـه الـقـود ... من الوجد سال كالدمع في الخد
ومذ استفحلتني على الناس بالحزن ... المبيد الـقـوي وجـاوزت الحد
قتيل هـل أوحـشـتـك واعـيـة آل ... نـاعـي الـيـت مـحـمـدا بمحمد
قـلـت فـي أنـسـه بـلـقـيـاه أرخ ... (ذاك عـام يعيش فـيـه محمد)

وفـي هـذه الأبيات تصريـح واضح بحمل الشـيخ الرئيـس العيثـان علوم أهل البيـت عليهم السلام، وكيف لا؟، وهو العالم الربانـي، الذي درس الحكمة الإلهية، وأصبح أحد العلماء الأعلام من مدرسـة آل البيت الحكمية، ثم يقول الشـاعر مخاطبا الشيخ

محمد: بفقدك تحملنا مالم تتحمله النوق الضخمة أو الخيول القوية، من هموم وأعباء، وأحزان. حتى لقد استفحل الحزن بفقدك أيها الشيخ كل حدود، فلم تعد الناس قادرة على حمل أحزانها، ورغم كل هذه الأحزان فالشاعر يقسم بالنبي محمد ﷺ، أن واعيه الشيخ محمد، قد أنست وفرحت بلقيا النبي ﷺ، وأن هي أوحشت المؤمنين بفراقه.

وللشاعر مجموعة من القصائد التي هي مرثيات موجعة في شيخنا العيثان، نقلها كاملة أحمد البدر في (العلامة الإمام) ص ٢٣٥-٢٤١، وكذلك أعلام هجر، ج٤ ص ٤٦٣ - ٤٦٧.

وشخصية الرئيس العيثان التي خلّفت برحيلها، كل هذا الحزن العميق والعويل داخل قلوب الأحسائيين والشيعة في كل مكان؛ لأنها شخصية ربانية، تستحق منا كل تلك الدموع. فالشيخ العيثان الذي ولد في القارة وعاش فيها طفولته، لم ينسها في كهولته، فقد رجع الشيخ العيثان إلى الأحساء، بعد سبع وعشرين عاما قضاها في النجف الأشرف، وكربلاء المقدسة متتلمذا على أيدي العلماء الكبار هناك، حتى نال شرف الإجازات العالية.

إلا إننا نستطيع القول بجزم أن علمية الشيخ العيثان العالية، لم تكن وحدها التي أهلته لمنصب القيادة، والمرجعية الكبرى. بل إن هناك العديد من الجوانب في شخصية العيثان هي مثار للدهشة والعجب. فالشيخ توفرت في شخصيته مؤهلات ومواصفات أخلاقية عدة. فشخصية العيثان جسّدت الفضائل المعنوية السامية، والقيم الإلهية، وبها نفذ إلى قلوب الأحسائيين، ومن ثم إلى باقي الشيعة في البلدان الأخرى، وهذا النفوذ الإيماني، هو الذي جعل من شخصيته، شخصية محورية في تاريخ الأحساء.

والشيخ الرئيس وبحكم كماله النفسي، وكماله العقائدي، حمل تلك المؤهلات الأخلاقية، وبالطبع لا تأتي المؤهلات المطلوبة من النصوص والمباحث العلمية، والتحصيل الفقهي والأصولي، بل عبر تهذيب النفس، وصقل السلوك المعنوي

الذي يتم بالتوازن مع التحصيل العلمي. فشخصية الرئيس قامت على محوري العلم والتقوى.

وبين يدينا العديد من شهادات العلماء في حق الشيخ العيثان، وكلام المؤرخين، وقصائد الشعراء، وهي تشهد جميعا بهذة الجوانب في شخصيته رضوان الله عليه. وسنأتي على ذكر بعض هذه الشهادات في الصفحات القادمة. فالشيخ العيثان بحكم (عقيدته الكاملة) شخصية دأبت على ممارسة أعمالها العبادية، بل وإلزام نفسه بالمستحبات حتى تفوقت على غيرها من شخصيات التاريخ الأخرى. فشخصية الشيخ العيثان عرفت بين المقربين، بحرصها على قيام الليل، والتهجد، والدعاء، والذكر، والزيارة، وقد نقلت لنا تلك الشهادات في حق شخصيته الإيمانية، صورا خلاقة من الجوانب القدسية والروحانية في كل خطوة من خطوات حياته. فكما كانت هذه الشخصية المتكاملة، تكتب الرسائل العملية في أحكام العبادات والمعاملات، وترد على الأسئلة، وتجلس للقضاء، فإنها كانت تمثل مصداقا عمليا وسلوكيا لكل هذه الأحكام الإسلامية العالية.

ومن ملامح شخصية العيثان العقائدية، معرفتها للمسؤولية وتحملها لهذه المسؤولية الكبرى. فالشيخ المرجع العيثان يدرك أنه قد أصبح في موقع حساس وخطير، فهو القائد الاجتماعي، والمرشد لعموم الشيعة، وقد يكون عرضة للزلل والخطأ بحكم بشريته، لأن المرجع هو واسطة لبيان الأحكام السماوية، ونائب للمعصوم عليه السلام لتوضيح شريعة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك فقد كان شخصية العيثان المرجعية حذرة، ودقيقة تأخذ بالاحتياط، وتبتعد عن القياس والأحكام المسبقة والمعايير الشخصية، خوفا من الوقوع في الخطأ.

ومن ملامح شخصية العيثان حبّه للناس، وللأحسائيين خاصة فقد أعطاهم كل حب. وعمل لأجلهم بكل مافي وسعه من جهد. فأصبحت شخصيته - رغم ماتمتاز به من هيبة - قريبة منهم، وقد تجسد هذا الحب للأحسائيين في كل سلوك الشيخ العيثان: في خطبه، وفي تعامله معهم، ولذلك أحبوه بالمقابل، ورجعوا إليه، وأجمعوا على زهده، وورعه، وتقواه، وتعدى هذا الحب عند الشيخ الرئيس إلى

بحثه ومراجعاته واستنباطاته للأحكام الفقهية. فالأحسائيين الشيعة، هم عباد الله، لذلك فقد حرص على مصلحتهم والخوف عليهم، لأنه تجسيد لحبه لله سبحانه وتعالى ولنبيه وأئمته عليهم السلام.

ونستطيع أن نتلمس بوضوح البساطة، في شخصية الرئيس. فقد عامل الناس بمحبة وود وباحترام، وعامل الأحسائيين - تحديدا - بكل تواضع وحب، وخصّ طلبة العلم بهذا الحب والاحترام. فكتابات الشيخ، ووثائقه موجودة إلى اليوم، ولم نجد فيها كلمة واحدة، غير ما ذكرناه. فلم نقرأ في الوثائق التي بين أيدينا غير كلمات مثل (الأقل الفقير إلى الله محمد بن الشيخ عبدالله العيثان) مخطوطة العلامة الإمام، ص ٢٤٨.

وكل الوثائق الأخرى لم نجد فيها تمجيدا ولا تعظيما لذاته. بل لم نجد فيها أكثر من لفظة (الشيخ) محمد العيثان. كما لم نجد أن الشيخ الرئيس قد خلّف قصرا في بلدته (القارة) ولم يسكن قصرا في بلدة (الحليلة)، ولم ينقل لنا المؤرخون أن الشيخ العيثان خلّف وراءه الأموال، والمزارع، والبيوت. بل عاش الشيخ متواضعا، يسكن كما يسكن أهالي الأحساء البسطاء، ويشرب ويأكل كما يفعل فقراء الناس. ولم ينقل لنا التاريخ أن الشيخ العيثان قد خطى إلى بلاط الملوك، والأمراء. أو أنه أفتى كما يرغب أمراء الجند، والولاة العثمانيون. لقد عاش الشيخ العيثان، والعثمانيون يسيطرون على الأحساء، ورغم هيبة الولاة منه، وتقديرهم لمكانته العلمية، واطلاعهم على قوّة رئاسته، إلا أنه بقي يسكن بين الناس، لايرغب في قصر منيف، ولايطمح في منصب زائل، وهكذا كانت شخصية العيثان في ذلك العصر. عاشت ببساطة، وسمو معنوي وروحي وعقائدي، فكانت قدوة مشرقة، وأسوة حسنة لكل الأحسائيين، بل لكل الشيعة في كل البلدان والأمصار.

أما إذا ذهبنا نتلمس (كمال العقيدة) في شخصية الشيخ العيثان من خلال مؤلفاته وأجوبة كتاباته، في علوم مدرسة آل البيت الحكمية. فالشيخ الرئيس له من (المؤلفات الجليلة والمصنفات المفيدة ما تجعله في مصاف الخالدين المحلقين في أجواء العبقرية والنبوغ. ذلك لما تجلى فيها من التحقيق العلمي، والإحاطة بأم

المسائل التاريخية والفقهية والأصولية والكلامية والفلسفية وما أشبه) هداية العباد، ص ٨. وعلى الرغم من أن السيد محمد حسن الشخص لم يستدل على (أم المسائل) بأمثلة عن إحاطات الشيخ في العلوم المختلفة، إلا أن الأهم أن السيد الشخص لم يشر إلى نهج الشيخ العيثان الحكمي، وحمله لواء مدرسة آل البيت الحكمية.

لقد حمل الرئيس العيثان لواء هذه المدرسة الحكمية المباركة، ودافع عن زعيمها الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي، ودافع عن علمائها البارزين، من أمثال السيد كاظم الرشتي، والميرزا حسن كوهر، والميرزا محمد باقر الأسكوئي. وواصل جهاد سلفه الشيخ محمد حسين أبوخمسين في الدفاع عن هذه المدرسة الحكمية، ونشر معارفها، والدعوة إلى مبادئها الحكمية، وتدريس علومها.

ولنأخذ بعض عناوين مصنفات الشيخ الرئيس لكي توضح هذا الادعاء. فهذه أجوبته المسماة (أجوبة مسائل الشيخ حسين الصحاف) فهذه المسائل في علم الحكمة ومراتب الأئمة عليهم السلام. أعلام هجر، ج ٤، ص ٤٨٧، وأنوار البدرين، ج ٣، ص ١٢٠، وخاض الشيخ بحكم (كمال عقيدته) حربا فكرية شريفة، مع كل المدارس التي تعارض مدرسة آل البيت الحكمية، فكتب (البرهان الرائق في القول بوحدة الناطق) أنوار البدرين، ج ٣، ص ١٢٠. والعلامة الإمام، ص ١٣٤. وحارب الشيخ العيثان وتصدى بالفكر والقلم لكل من يتجرأ على الإسلام فكتب (الرد على الباكورة السليمانية) والمعروف (بالرد على النصارى)، و(الباكورة) كتاب ألفه أحد كتّاب النصارى المعارضين للشيخ الرئيس، وكان النصراني يستهدف من الكتاب النيل من الإسلام، والنيل من النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فقام الشيخ العيثان بتفنيد ادعاءات النصراني. مجلة الموسم، العددان (٩-١٠) ص ٤٠٠. مجلة الواحة عدد ١٦، ص ١١٩. معجم المؤلفات الشيعية في الجزيرة العربية، ج ١، ص ١٠٤. وكذلك مخطوط العلامة الإمام، ص ١٣٥.

وإلى جانب هذا الدفاع العقائدي عن الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وأئمة الهدى عليهم السلام، نجد دفاعه عن حكمتهم عليهم السلام، وعن مقاماتهم ومراتبهم التي وضعهم الله فيها، وأمرنا باتباعهم عليهم السلام. وكتب الشيخ الرئيس (رسائل الحكمة) العلامة الإمام،

ص ١٤٣ و(رسالة في الأخبار وماتتضمن من فعل الإمام) المصدر السابق، ص ١٤٦. وكذلك له (رسالة في حل بعض الألغاز الحكمية) و(رسالة في شرح اللوامع الحسينية) المصدر السابق، ص ١٤٦. إلى غيرها من الرسائل الحكمية التي ألفها الشيخ الرئيس، والتي تشير بوضوح إلى كمال الجانب العقائدي في شخصيته رضوان الله عليه.

ثالثا. مرجعية الرئيس

الخلق لا العقل هو الذي تقوم عليه الجماعات البشرية، وتُؤسس الديانات، وتُبني الأمم والدول. بل إن (الخلق الجمعي) هو الذي يجعل الحضارات تتقدم، بما تحس به وتعمل، وما كان كسب الأمم وافرا من شحذ الأذهان والتعمق في التفكير. سر تطور الأمم، ص ٣٦.

ويجادل هؤلاء المؤرخون بأن تأثير الخلق في حياة الحضارات عظيم، أما العقل فضعيف على تفاوت فيه. ويستشهدون بتاريخ الأمة الرومانية. فقد كان الرومان إبان سقوطهم ذوو عقول أرقى من عقول أجدادهم القاهرين، لكنهم سقطوا لأنهم فقدوا صفاتهم الأخلاقية، الي ورثوها عن أجدادهم، فأضاعوا العزيمة والمثابرة، وركنوا إلى الدعة، وولى عنهم الجلد الذي لم يكن يعرف الوهن يوما. لقد فقد الرومان إبان سقوط حضارتهم، القدرة على التفاني في نصرة المطلب، واحترام القوانين إلى حد التقديس. وتلك الصفات هي التي كانت وراء نهوض حضارتهم الأولى، وهي السبب في عظمة آبائهم وأجدادهم السابقين. المصدر السابق، ص ٣٦.

ونعتقد أن الأمم في تطورها تحتاج إلى هذا وذاك. فكما تحتاج لرقيها إلى الخلق، فهي تحتاج إلى العقل أيضا. إلا أن انهيار الخلق - الأخلاق - في حضارة من الحضارات، يسرع في انهيارها واندثارها. وضعف العقل يجعلها في آخر ركب الحضارات الطويل.

وتحتاج الأمم في سعيها للرقي والتقدم إلى رجالات عظماء، يبنون مدارج عزتها طوبة فطوبة، ويعطون من نتاج عقولهم، لعقل الأمة، ويدفعون بخلقهم

رجالات تلك الحضارة؛ لتبقى دوما في مقدمة الركب.

وتاريخنا الإسلامي يحفل بآلاف الرجال اللامعين، الذين قادوا بخلقهم وبعلمهم ركب الحضارة الإسلامية، في كل بقعة من هذه الأرض. ولولا هؤلاء العظماء الذين تواجدوا في مختلف الأزمان، وفي مختلف البلدان، لم تبق شمس الحضارة الإسلامية مشرقة براقة. ولولا هؤلاء الرجال المخلصون، والعلماء العاملون من شيعة آل البيت عليهم السلام، لانحسر التشيع اليوم في بقعة صغيرة على هذا الكوكب.

وفي تاريخ الأحساء، تقف شخصية الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (الأوحد) شامخة منذ منتصف القرن الثاني عشر الهجري، ليقود نهضة علمية مباركة، تهدف لإعلاء الدين، ورفع راية رسول الله صلى الله عليه وآله. وبمنهج مدرسة آل البيت الحكمي، الذي أسسه الشيخ الأحسائي، حدثت تلك (الثورة الكبرى) التي تحدثنا عنها في الفصول السابقة، والتي تردد صداها إلى بدايات القرن الرابع عشر الهجري.

وكلما همّت الأحساء أن تغفو، جاء مصلح كبير ليطرد النعاس من عينيها. وهكذا توالى الرجال الكبار، والمصلحون، والعلماء الأجلاء من أمثال الشيخ أبوخمسين، والسيد الموسوي، والشيخ آل عيثان، والشيخ ابن قرين وغيرهم من علمائنا الكبار الذين كان لهم الدور الاكبر في نهضة الشيعة والتشيع. ولهم الدور البارز في بناء الحضارة الإسلامية، بمساهماتهم العلمية.

ولكن كيف يحق لنا أن نصف الشيخ العيثان، بالشيخ (الرئيس) رغم وجود العديد من العلماء الكبار قبل وبعد زمنه بسنوات طوال!.

إن الحالة العلمية في الأحساء التي كانت متوقدة بوجود عالمين كبيرين هما: الشيخ محمد أبوخمسين، والسيد هاشم الموسوي، كادت أن تفقد بريقها بوفاة الشيخ أبوخمسين عام (١٣١٦) هجري، وقبله السيد الموسوي عام (١٣٠٩) هجري. إلا أن رجوع الشيخ آل عيثان من العراق إلى الأحساء في أواخر عام ١٣٠٩ هجري، بعد

أن استقر في العراق مدة تكاد تقارب ثلاثة عقود، بعث الأمل من جديد في نفوس الأحسائيين باستمرار المنهج الرباني لمدرسة آل البيت الحكمية. وإذا كانت الأحساء في نهايات القرن الثالث عشر وبدايات القرن الرابع عشر الهجريين، قد ازدهرت النهضة العلمية والعلمائية فيها بوجود هذين العلمين الأحسائيين (أبوخمسين والموسوي) فإن القطيف قد خلت في هذه الفترة من العلماء الكبار - بحجم هاتين الشخصيتين العظيمتين - للتصدي لتحريك العجلة العلمية المتوقفة هناك.

بل وخلت القطيف وقراها في ذلك الزمان -بدايات القرن الرابع عشر الهجري- من الحوزات العلمية، والتي هي بمثابة الجامعات الكبرى في هذا العصر، لتخريج المشائخ والعلماء والخطباء، والإسهام في رقي المجتمعات، لأن هؤلاء الخريجون مؤهلون علميا وأخلاقيا لممارسة هذا الدور الحضاري، أكثر بكثير من غيرهم من الرجال الآخرين.

وهناك العديد من الإشارات التاريخية لتواجد المدارس - الحوزات - قبل تاريخ حوزتي أبوخمسين والموسوي في منطقة الأحساء. يؤمها الكثير من طلبة العلوم، ويدرّس فيها مراجع كبار، وتخرج منها عدد من العلماء الكبار. إلا انها قطعا ليست حوزات علمية منظمة،

نعم هناك العديد من الإشارات لوجود الكتاتيب، والدروس الدينية، نجدها مثلا في سيرة الشيخ أحمد الأحسائي، وفي سيرة الشيخ حسين أبوخمسين المولود بين عامي (١١٨٠ - ١١٩٠) هجري، وكذلك ابنه الشيخ محمد حسين أبوخمسين المولود عام (١٢١١) هجري إشارات واضحة إلى دراستهما في تلك المدارس والكتاتيب بالأحساء.

وهذه الإشارات التاريخية، موجودة أيضا في تاريخ منطقة القطيف. ولعل أقدم هذه الإشارات التاريخية نجدها في سيرة الشيخ حسين بن محمد الماحوزي البحراني، الذي استقر بالقطيف عام ١١٣٥ تقريبا (حيث أصبح مقره مدرسة علمية لكثير من العلماء وطلبة العلوم الدينية) راجع القطيف وملحقاتها، ج١، ص٤٤٦. ومجلة

الموسم، العددان ٩ و١٠. إلا أن القطيف لم تعرف (الحوزات العلمية) المنظمة إلا بعد هذا التاريخ بزمن طويل، أي في منتصف القرن الرابع عشر الهجري.

اتخذت مرجعية العيثان طابعا تنويريا، انطلقت من القارة إلى مختلف مدن الأحساء وقراها، حتى تصل القطيف وقراها أيضا. بل وتتعدى مرجعيته التنويرية منطقتي الأحساء والقطيف. كما أن مرجعية العيثان بالإضافة إلى ذلك، هي (الحلقة الذهبية) بعد غياب مرجعيتي الموسوي وأبوخمسين، ونشوء وتعدد المرجعيات بعد مرجعيته. لقد تميزت مرجعيته، بتجسير مرجعية الشيخ أبوخمسين بالعديد من المرجعيات الدينية التي خرجتها حوزته العلمية في القارة والحليلة.

إن الشيخ العيثان يستحق بكل جدارة لقب الشيخ (الرئيس). فهو القائد الذي أجمع الأحسائيون على مرجعيته. ولعل اجماع الأحسائيين على مرجعية عالم مثله لن تتكرر إلا بعد قرون من الزمن. فشيخنا العيثان من كبار العلماء الذي تجمعت فيه الصفات والمؤهلات العلمية والخلقية، لتسلم زمام القيادة الدينية المطلقة، رغم وجود مرجع كبير مثل الشيخ محمد أبوخمسين، فقد رجع للشيخ العيثان (في التقليد بعد رجوعه للأحساء سنة ١٣٠٩ هجري خاصة بعد وفاة السيد هاشم السلمان الذي كان أحد المراجع، حيث رجع إليه أهل القرى الشرقية والقرى الشمالية ومدينة (المبرز) وبعض أهالي البحرين ممن كانوا يرجعون في تقليدهم للسيد هاشم السلمان) العلامة الإمام، ص ١٢١.

وبعد وفاة الشيخ أبوخمسين رجع إلى الشيخ العيثان (معظم أهالي الأحساء وكثير من أهالي القطيف والبحرين و(دبي) والكويت والبصرة وأطرافها. فأصبح في منطقة الخليج من كبار مراجع التقليد وزعماء الطائفة) أعلام هجر، ص ٤٦٠.

وإذا كان هذا الاجماع على شخص الشيخ العيثان، فإنه بحق القائد والزعيم والرئيس الأحسائي بلا منازع في ذلك الزمان. ولم يكن أهالي الأحساء والقطيف في ذلك الوقت من السذاجة أن يسلّموا مقاليد دينهم لشخص لم يعرفوه حق المعرفة، بل (عندما رأى منه أهالي الأحساء كل ذلك العلم الجم، والورع والاجتهاد، ألقوا إليه

مقاليد البلاد، والزعامة الدينية المطلقة، وصار المرجع الوحيد لجميع الطبقات هناك من خاص وعام) هداية العباد، ص ٦. كادت الأحساء أن تغط في نعاس طويل بعد وفاة السيد هاشم السلمان، والشيخ أبوخمسين، لولا أن هيأ الله لها إشراقة (شمس الشموس) من جديد.

أما في القطيف وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري، فقد خلت ساحتها من الرموز الدينية الكبرى، وخلت من (الحوزات العلمية) التي يمكن أن ترفد المجتمع بالعلماء العاملين. يقول جهاد الخنيزي في (معالم من مرجعية الإمام الشيرازي) موصِفا تلك الفترة (ويبدو أنه كان متصلا بفترة الفراغ من العلماء والموجهين التي عاشتها القطيف من قبل، فمرت بفترة جهالة دينية قبل ظهورجيل العلماء من المجتهدين خلال النصف الأول من القرن العشرين) ص ٢٩. وأغلب علماء هذا الجيل من العلماء المجتهدين، تعلموا وتخرجوا من مدرسة آل عيثان الأحسائية. لذلك فهو بحق رئيس العلماء الكبار من الأحسائيين والقطيفيين معا.

لقد كان العبء الديني والاجتماعي على كاهل الشيخ العيثان ضخما ومرهقا. فكان لزاما عليه أن يملأ (فراغ) مرجعيتين بارزتين كبيرتين - أبوخمسين والسلمان - في الأحساء، ويبقى على عجلة الحركة العلمية سائرة. ولم يكن أحد قادرا على تحمل هذا العبء، وسد الفراغ الكبير، إلا رئيس يمتلك من المزايا كما تمتلك شخصية آل عيثان.

وكان على الشيخ العيثان أن يمد أنوار شمس مرجعيته إلى منطقة القطيف لأنها (في مطلع القرن الرابع عشر من الهجرة - كانت القطيف - خالية من العلماء أو تكاد، فكان أكثر المواطنين من المحدثين. أما الأصوليون فعلى قلة وضآلة... وكان فيها إلى جانب هذا الفراغ الرهيب المرعب شعورا عميقا، وإحساسا مرهفا، في فئة خيرة، موزعة في عاصمة القطيف (القلعة) وبعض مدنها وقراها. المصدر السابق، ص ٢٩.

لم تكن الساحة في القطيف خالية من العلماء تماما ولكن لم يكن هناك علماء كبار في مطلع القرن الرابع عشر تحديدا، وكان هناك بعض العلماء الذين جاؤوا من

خارج القطيف، وبقوا قليلا فيها ثم رحلوا. وإذا أخذنا المعيار الزمني فهناك مثلا الشيخ أحمد آل طعان المتوفي عام ١٣١٥ هجري، والإمام حسن بن علي البدر المتوفي عام (١٣٣٤)هجري. إلا أن الإمام البدر ولد وعاش معظم حياته في النجف الأشرف. ورغم ذلك فالإمام البدر ولد عام (١٢٧٧) هجري، وتوفي وعمره (٥٧) سنة فقط. بينما ولد الشيخ العيثان عام (١٢٦٠) هجري. ورجع للأحساء عالما مجتهدا عام (١٣٠٩) هجري والإمام البدر منشغل بتحصيله العلمي في هذا التاريخ في النجف الأشرف.

وهذا التوصيف - الفراغ الرهيب - حيال منطقة القطيف في بدايات القرن الرابع عشر الهجري دقيقا إلى حد كبير. لقد كانت منطقة القطيف شبه خالية من العلماء الكبار، وحين يصف الدكتور عبدالله السبيعي الحياة العلمية في القطيف، يذكر أسماء العلماء الذين برزوا في منتصف القرن الرابع عشر الهجري. ولا يذكر أيا من العلماء البارزين في مطلع هذا القرن. راجع (الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقة) ص ٣٨.

وهذا صحيح، إلا أن الصحيح أيضا أن الشيخ العيثان، قد جدد دماء التيار الأصولي في منطقة القطيف، كما حافظ على تدفق الدماء الجديدة في شريان هذا التيار في منطقة الأحساء، بل في كل مدن وبلدات ساحل الخليج الشرقي. راجع مخطوطة علماء هجر وأدباؤها في التاريخ، ص ١٦٨. وبهذا الدور الضخم الذي قام به الشيخ العيثان، كان الأجدر بلقب (الرئيس) لعلماء الأحساء والقطيف معا.

لانظننا مجانبين الإنصاف، ونحن نلقب الشيخ العيثان بالرئيس. فشيخنا الجليل وهو (شمس الشموس) يستحق هذا اللقب بكل موضوعية، وإنصاف. ولا نظننا منحازين تاريخيا لوصف مرجعيته بالمرجعية الكبرى لساحل الخليج العربي بكل مدنه وقراه. فالشواهد التاريخية، وكتابات المؤرخين التي أوردناها تشير إلى هذا الأمر بوضوح تام. ولا نعتقد أننا تجاوزنا المديح، وتحت أيدينا قائمة طويلة بأسماء العلماء الأعلام، والمراجع الكبار من القطيف والهفوف والمبرز وقراهم، وكذلك من كربلاء الذين درسوا وتخرجوا من مدرسة الشيخ آل عيثان. وعلى الرغم من تلك القائمة الطويلة بهذه الأسماء الكبيرة، إلا أن أسماء تلامذة الشيخ الرئيس في النجف، وكربلاء من العلماء،

لم ينقلها لنا المؤرخون كاملة، فاقتصرت على ذكر الأسماء الأحسائية والقطيفية فقط. ولعل من أشهر وأبرز أسماء مراجع وعلماء ومشايخ تلك القائمة مايلي:

١- المرجع الكبير العلامة الميرزا موسى بن ميرزا محمد باقر الأسكوئي المتوفي عام (١٣٦٤) هجري. أعلام هجر، ج ٤، ص ٤٦١. أول المجتهدين، ص ٧٩.

٢- العلامة الرباني المرجع السيد ناصر السيد هاشم الأحسائي المتوفي (١٣٥٨) هجري العلامة الإمام، ص ٧٨، أعلام هجر، ج٢، ص ٤٦٠، مجلة الموسم، العددان ٩-١٠، ص ٤٦٣

٣- العلامة الحجة المرجع الشيخ عبدالله بن معتوق القطيفي التاروتي، المتوفى (١٣٦٢) هجري. المصدر السابق، ج٤، ص ٤٦٠. الأزهار الأريجية، ج ٢، ص ١٦٨.

٤- العالم الكبير المرجع الشيح حبيب الله بن الشيخ صالح بن قرين الأحسائي المتوفى (١٣٦٤) هجري. أعلام هجر، ج ٤، ص ٤٦١، والعلامة الإمام، ص ٦٩.

٥- العلامة الحجة والمرجع الديني السيد ماجد بن السيد هاشم العوامي القطيفي المتوفى (١٣٦٧) هجري أعلام هجر، ج ٤، ص ٤٦٠.

٦- الشيح أحمد بن الشيخ حبيب بن خميس الدندن الأحسائي المتوفي عام (١٣١١) هجري وله من الشيخ العيثان إجازة رواية، أعلام هجر ن ج٤، ص ٤٦١. والعلامة الإمام، ص ٦٩.

٧- الشيخ حسن بن عبدالله آل عيثان. والمتوفي عام (١٣٤٩) هجري، علماء هجر وأدباؤها، ص ١٧٤.

٨- الشيخ حسن بن محمد بن عبدالله آل عيثان (ابنه) المتوفي عام (١٣٦٧) هجري. درس على يديه المقدمات في الأحساء. الرد على النصارى، ص ٢٥

٩- الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن الشيخ أحمد الممتن المتوفي (١٣١٦) والد الشيخ عبدالكريم الممتن، حضر عنده في الأحساء. أعلام هجر، ج٤، ص ٤٦١.

١٠- الشيخ علي بن محمد بن عبدالله آل عيثان (ابنه) فقيه مجتهد، درس المقدمات على يديه في الأحساء. أعلام هجر، ج٤، ص ٤٦٢.

١١- الشيخ حسين بن محمد بن عثمان الدندن المتوفي عام (١٣٦٣) هجري درس على يديه في الأحساء علم الحكمة والمعارف الآلهية. أعلام الأحساء، ج١، ص ٢٥٩، الرد على النصارى، ص ٢٥، مطلع البدرين، ج٢، ٦٥٩.

١٢- الشيخ علي بن عبدالله العيثان المتوفي عام (١٣٣٧) في العراق درس على يديه في الأحساء، العلامة الإمام، ص ٦٩.

وبالإضافة إلى هؤلاء الأعلام من المراجع، والعلماء، والمشائخ الذين درسوا على يديه يقينا في الأحساء وفي النجف الاشرف وكربلاء المقدسة، هناك عدد آخر من علماء ومشائخ الأحساء، يرجح المؤرخون، أنهم درسوا على يديه، وتخرجوا من مدرستيه في (القارة) و(الحليلة) كما أشار الحاج جواد الرمضان في (مطلع البدرين) والأستاذ أحمد البدر في (العلامة الإمام):

١٣- الشيخ حسن بن الشيخ حسن الخليفة، من مدينة الهفوف توفي عام (١٣١٢) هجري.

١٤- الشيخ حسن بن عبدالله بن محمد الهودار، من مدينة الهفوف توفي (١٣٢٦) هجري.

١٥- الشيخ حسن بن محمد صالح المطر من قرية (القضول) توفي بعد سنة (١٣١٨) هجري.

١٦- الشيخ عبدالله بن علي الدويل، إمام مسجد (الحدادين) في الهفوف وهو أحد وكلاء الشيخ محمد العيثان. توفي عام (١٣٤٢) هجري.

١٧- السيد هاشم بن خليفه النحوي. نسخ كتاب (رساله في الطهارة والصلاة) وهي الرسالة العملية للشيخ العيثان.

١٨- الملا علي بن الملا ابراهيم بن محمد الثواب، وهو والد الملا سلمان الثواب، وأحد الخطباء في عصره، ومن رواد مجلس الشيخ العيثان.

١٩- الشيخ عبدالكريم بن حسين الممتن، علامة جليل القدر، وهو أديب وشاعر من قرية (الجبيل) بالأحساء، وكان والده من تلامذة الشيخ العيثان، ولا يستبعد تتلمذه هو الآخر على يد العيثان.

٢٠- السيد أحمد بن السيد علي الشخص. ولد ونشأ بالقارة، وتوفي في العراق سنة (١٣٤٤) هجري وهو أخ العلامة السيد محمد باقر الشخص.

٢١- الشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن الشيخ علي العيثان، من أبناء عم الشيخ الرئيس، توفي بعد سنة (١٣٤٠) هجري

٢٢- الشيخ سلمان بن عبدالمحسن العلي، ولد عام (١٣٠٠) هجري تقريبا وتوفي عام (١٣٥٩) هجري وهو من علماء قرية (القارة) المعروفين.

٢٣- الشيخ أحمد بن الشيخ حسن بن الشيخ علي الجلواح، وهو من مشائخ قرية (القارة) ومن أقارب الشيخ محمد العيثان من جهة الأم. توفي بعد سنة (١٣٧١) هجري.

٢٤- السيد أحمد بن السيد محمد بن السيد عبدالمحسن الشخص، خطيب بارع، ومن فضلاء قرية (القارة) ولد عام (١٣٠٤) تقريبا وتوفي سنة (١٣٦٤) هجري.

٢٥- السيد هاشم بن السيد محمد بن السيد هاشم الشخص، ولد عام (١٢٦٨) هجري، وهو من خطباء قرية (القارة) المعروفين، توفي عام (١٣٤٨) هجري.

٢٦- السيد علي بن السيد أحمد بن السيد إبراهيم الشخص، ولد في أواخر القرن الثالث عشر الهجري، وهو والد العلامة السيد محمد باقر الشخص المعروف. والسيد علي من الفضلاء المشهورين بالزهد والعبادة. توفي عام (١٣٤٨) هجري.

٢٧- السيد شرف الدين بن عبدالله الموسوي، ولد بقرية التوثيرعام (١٢١٠) هجري تقريبا، القريبة من قرية (القارة) تلقى تعليمه في قرية القارة، وتوفي عام (١٣٠٩) هجري.

٢٨- الشيخ أحمد بن الشيخ علي بن الشيخ محمد العيثان، ولد في (القارة) ونشأ فيها، وهو من أبناء عمومة الشيخ الرئيس، توفي سنة (١٣٣٥) هجري تقريبا.

٢٩- الملا سلمان بن علي الثواب ولد عام (١٣١٨)، من الخطباء المشهورين في قرية (القارة)، حضر مجلس الشيخ محمد العيثان وهو صغير السن برفقة والده الملا علي الثواب - المتقدم ذكره - وتوفي عام (١٣٩٦) هجري.

٣٠- الملا أحمد بن ابراهيم العيثان، وهو أحد خطباء قرية (القارة) ومن أقارب الشيخ الرئيس، توفي عام (١٣٤٠) هجري.

٣١- الملا محمد حجي العلي. من مواليد البصرة سنة (١٣٠٨) هجري، انتقل إلى الأحساء بعد وفاة والده سنة (١٣١٦) هجري. وهو من الخطباء المعروفين في منطقة الأحساء وقراها. توفي عام (١٤٠٠) هجري.

٣٢- الملا حسين بن علي بن حسين المطوع، من معلمي القرآن ببلدة (القارة) وتجمعه قرابة بأسرة العيثان.

٣٣- أحمد بن حسين العمار، وهو من نسّاخ الكتب المعروفين، نسخ كتاب (الرد على النصارى) للشيخ الرئيس.

٣٤- الشيخ عبدالرحيم بن حسين الممتن، وهو أصغر سنا من أخيه الشيخ عبد الكريم من قرية (الجبيل).

٣٥- الملا علي بن عبد المحسن بن عبدالله العلي، أحد خطباء المنبر الحسيني ببلدة (القارة) ولد مطلع القرن الرابع عشر، وهو أخ الشيخ سلمان العلي، توفي عام (١٣٥٠) هجري.

٣٦- محمد بن علي البقشي، من نسّاخ الكتب في تلك الفترة، توجد نسخة بخط يده من كتاب (رساله الطهارة والصلاة) وهي الرسالة العملية للشيخ الرئيس.

٣٧- الشيخ محمد بن الشيخ حسن بن الشيخ علي الجلواح. من مشائخ قرية (القارة) وكان خطاطا بارعا نسخ بيده عدة كتب منها (أجوبة مسائل الشيخ حسين الصحاف) وكتاب (الرد على النصارى) وهما من كتب الشيخ الرئيس.

وليس من المستبعد أن يكون كل هؤلاء العلماء والمشائخ والخطباء، قد تلقوا دروسهم في حوزة الرئيس العلمية، التي استمر توهجها وعطاؤها طوال عقدين من الزمن. بل إننا نرجح وجود عشرات الأسماء الأخرى من القطيف، ومن النجف الأشرف حيث كان يقيم، التي لم يدونها المؤرخون.

وليس غريبا أن تضم حوزة الشيخ العيثان كل تلك الأسماء العلمائية المعروفة، وفيهم المراجع الكبار، والعلماء الأفاضل. ولوجود كل هؤلاء في حوزة الشيخ العيثان، وتلقيهم العلم على يديه، جاز لنا أن نلقبه بالرئيس.

أما مرجعية الشيخ العيثان، والتي امتدت منذ رجوعه للأحساء عام (١٣٠٩) هجري، وحتى يوم وفاته رضوان الله عليه، فهي أشبه بالمرجعية المطلقة والشاملة، وخاصة بعد وفاة الشيخ محمد أبو خمسين عام (١٣١٦) هجري ورجوع الأحسائيين والكثير من أهل القطيف والبحرين والبصرة له في أمور عباداتهم وأمور معاملاتهم، ولذلك يحق لنا أن نصفه بالشيخ الرئيس.

أما المؤرخون فقد أجمعوا على جلالة قدره، وسعة علمه، وتبحره في حكمة آل البيت عليهم السلام. وقد أشرنا في الفصول السابقة، أن الحيف، والإقصاء الذي يواجهه العلماء الشيعة السائرين على نهج مدرسة آل البيت الحكمية، لم يشمل شيخنا العيثان؛ لأن مرجعيته كانت بعيدة عن الحواضر العلمية - النجف، كربلاء، مشهد - في ذلك اليوم، بالإضافة إلى كونه ابن الأحساء، الذي بزغت شمس مرجعيته بين ظهراني الأحسائيين.

بل إن شيخنا الرئيس مُدح من قبل بعض المؤرخين الذين عرفوا بتشنيعهم و(بحربهم) لمدرسة آل البيت الحكمية، و(التباهي) بالقضاء عليها وتدميرها. ولم يسع هؤلاء المؤرخون، إلا الإذعان لسطوة مرجعيته وعلمه، والخوف من سطوة أسرته وتلامذته ومحبيه، لذلك يقول الدكتور الفضلي عن الشيخ محمد العيثان (كان فقيها مجتهدا، ومتكلما عارفا، تتلمذ في النجف على أعلامها آنذاك، ورجع إليه في التقليد في بلاده) دائرة المعارف الشيعية، ج ٢، ص ٤٠٧. ويقول السيد الشخص (يعد شيخنا

المترجم له من كبار علمائنا وأجلائهم في عصره، لقد شهد له بالاجتهاد المطلق كافة مشايخه، الذين كانوا أئمة الشيعة ومراجع الدين في عصرهم، ولقد أذعن له كل من عرفه بالمقام السامي الشامخ والعلم الجم) أعلام هجر، ج ٤، ص ٤٥٩.

ولقد صدق السيد الشخص، فقد أذعن لشيخنا الرئيس كل من عرفه، ولم يستطع أحد من التجرؤ على مقامه السامي، ووصفه بأنه من مراجع فرقة (الشيخية) أو (الكشفية). ولم يجرؤ أحد من المؤرخين المعاصرين فينسب إلى الشيخ آل عيثان (الغلو) في شأن أهل البيت عليهم السلام. أو أن يثير أي من (الشبه والمؤاخذات) التي أثيرت على زعيم مدرسة آل البيت الحكمية، أو العلماء الشيعة الآخرين ممن ساروا على نهج هذه المدرسة.

وبالمقابل فإن تتلمذ الشيخ آل عيثان على يد علماء كبار، ومراجع عظام في النجف الأشرف وكربلاء المقدسة طوال ثلاثة عقود تقريبا، جعله بحق الشيخ الرئيس. فالعالم الكبير لا يعرف فقط بتلامذته الكبار، بل ويعرف أيضا بأساتذته العظماء الأعلام. من أمثال:

١- الشيخ عبدالله آل عيثان توفي (١٣٠٦) هجري وهو من علماء بلدة (القارة) البارزين، ووالد شيخنا محمد العيثان. وقرأ الشيخ محمد على يد والده في بلدة (القارة) قبل سفره إلى النجف الأشرف، مقدمات العلوم والآداب وبعض مقدمات النحو والصرف. الرد على النصارى، ص ٢٠، العلامة الإمام، ص ٦٣، هداية العباد، ص ٥.

٢- العلامة الجليل الشيخ محمد حسين الكاظمي توفي (١٣٠٨) هجري، وهو أحد مراجع التقليد العظام، ولد في الكاظمية عام(١٢٢٤) هجري، وله العديد من المؤلفات: (بغية الخاص والعام) و(حاشية القوانين) وغيرهما. ودرس الشيخ العيثان على يديه أبحاث الخارج في علمي الأصول والفقه، وكان الشيخ آل عيثان من الملازمين لأستاذه حتى وفاته. أنوار البدرين، ص ١١٩، الرد لى النصارى، ص ٢١.

٣- السيد محمد مهدي بن حسن القزويني توفي (١٣٠٠) هجري، والسيد

القزويني عالم كبير، وشاعر مرموق، يعد من أكابر العلماء والمجتهدين في مدينة (الحلة) بل وفي العراق قاطبة في تلك الفترة من الزمن، توفي رضوان الله عليه وهو عائد من أداء فريضة الحج ز ودرس الشيخ آل عيثان على يديه علم الفقه والتوحيد والكلام والحكمة الإلهية. الإجازة بين الاجتهاد والسيرة، ص ٦٢، هداية العباد، ص ٦، أنوار البدرين، ص ١١٩.

٤- الشيخ محمد طه نجف توفي عام (١٣٢٣) هجري وهو الشيخ محمد طه نجف التبريزي، أحد رؤساء الدين المشهورين، علامة ومجتهد كبير له العديد من المؤلفات الفقهية مثل (إتقان المقال في أحوال الرجال) و(القواعد النجفية) و(الفوائد الأصولية) وغيرها من الكتب الكبرى. وقد تتلمذ الشيخ آل عيثان على يديه في النجف الأشرف في البحث الخارج وفي علمي الأصول والفقه. العلامة الإمام، ص ٦٤، هداية العباد، ص ٦. الإجازة بين الاجتهاد والسيرة، ص ٦٢، أنوار البدرين، ص ١٩.

٥- العالم الرباني الميرزا محمد باقر الأسكوئي توفي سنة (١٣٠١) هجري، والميرزا محمد باقر هو والد الميرزا موسى الحائري الإحقاقي صاحب (إحقاق الحق). والميرزا محمد باقر علامة جليل القدر، ومن مراجع الدين البارزين في كربلاء المقدسة. هاجر إلى النجف الأشرف وتلقى تعليمه هناك. ثم استقر في كربلاء، وأخذ علوم الحكمة الالهية من أستاذه الميرزا حسن كوهر أحد أبرز علماء مدرسة آل البيت الحكمية. وتتلمذ الشيخ محمد العيثان على يد الميرزا محمد باقر في علم التوحيد والكلام والحكمة. وكان الشيخ محمد آل عيثان يتردد على مدينة كربلاء المقدسة في صيف كل عام ليقرأ على يد الميرزا (شرح العرشية) و(شرح المشاعر) و(شرح الفوائد الحكمية) وكلها في علم الحكمة من تأليف الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (الأوحد). كما قرأ على يديه كتاب (اللوامع الحسينية) في الحكمة من تأليف السيد كاظم

الرشتي. أعلام مدرسة الشيخ الأوحد، ص ٥٠٩، قرنان من الاجتهاد والمرجعية، ص ٥٦، أنوار البدرين، ص ١١٩، الرد على النصارى، ص ٢٠، أعلام هجر، ج ٤، ص ٤٥٨.

وبحكم هذا الدرس المكثف للشيخ محمد آل عيثان، على أيدي هؤلاء العلماء العظام، وغيرهم ممن لم يشر إليهم التاريخ، فقد حصل على إجازتهم في الرواية والدراية رضوان الله عليهم جميعا. حتى أصبح هو من العلماء الكبار، بل ورئيس العلماء غي عصره. الرد على النصارى، ص ٢١-٢٢، أعلام هجر، ج ٤، ٤٥٨-٤٥٩.

وبالإضافة إلى إجازاته من مشايخه العظام، فقد أجيز الشيخ العيثان بالرواية والاجتهاد من الإمام المجاهد السيد ميرزا حسن بن السيد محمود الحسني الشيرازي. أعلام هجر، ج ٤، ص ٤٥٩.

وبعد أن وصل شيخنا إلى هذا المقام العلمي العالي، والإيمان العقائدي الكامل، رجع إلى موطنه الأحساء. وسكن قرية الآباء والأجداد (القارة) أم القرى الأحسائية في ذلك الوقت، تهوي إليها أفئدة العلماء للتزود بعلوم أهل البيت عليهم السلام، وتُشد إليها الرحال. ومنها تسطع شمس الشموس، لتضئ بنورها كل قرى ومدن الأحساء والقطيف والخليج قاطبة. ولا عجب في ذلك أن يتسلم زمام القبادة المطلقة (ولمقامه العلمي الرفيع ومكانته السامية تسلّم في الأحساء الزعامة الدينية فور عودته إليها من النجف سنة ١٣٠٩ هجري. وانقادت إليه الجماهير في بلاده ومحيطه، وأصبح بعد فترة وجيزة من زعماء الدين وأئمة المسلمين.) أعلام هجر، ج ٤، ص ٤٥٨. وبذلك استحق الشيخ العيثان لقب الرئيس في هذه البلاد وكل البلاد الإسلامية.

وليس أدل على استحقاقه لهذا اللقب إلا كلمات المراجع العظام، والعلماء الكبار في حقه، من أساتذة وتلاميذ ومحبين. فقد خاطبوا الشيخ العيثان بلغة العلماء الشيعة الكبار، ومجدوه ولقبوه بما يستحقه مراجع الشيعة من تمجيد وألقاب، لا يجوز صرفها إلا لمن ارتقى تلك المكانة العالية من العلم، والمرتبة السامية من الأخلاق، في سلسة رواة أئمة الحديث من علمائنا الشيعة.

ودعونا نتأمل بعض العبارات التي خاطبه بها مراجع الشيعة، والكلمات التي وصفه بها مؤرخو المسلمين، لكي ندرك أي مكانة عالية وصل إليها الشيخ محمد آل عيثان.

ولعل أهم تلك الشهادات في حق الشيخ العيثان تلك الصادرة من أستاذه المرجع الديني الكبير الميرزا محمد باقر الأسكوئي (١٣٠١) هجري الذي يخاطبه (الأخ المعتمد، والشيخ المسدّد، العالم الفاضل، المدقق الفاضل، ذو القلب السليم، والذهن الوقاد المستقيم، اللوذعي الألمعي، الذي قد فاق بالاعتدال في فهمه وذكاه أقرانه والأمثال، حيث جمع رتبتي المعقول والمنقول، واستعد لدرجة الاستيضاح للفروع في الأصول، المؤيد الممجد، جناب الشيخ محمد بن الشيخ الأواه الشيخ عبدالله بن الشيخ علي بن عيثان الأحسائي) الرد على النصارى، ص ٣٢.

ويكتب العالم الكبير والمجتهد الجليل الشيخ عبدالله بن معتوق القطيفي التاروتي في حق أستاذه الشيخ العيثان شهادة مماثلة تدل على تلك المكانة التي كان شيخنا العيثان يحتلها في قلوب تلامذته الكبار. فيصفه بن معتوق (الشيخ الجليل، والفاضل النبيل، بحر علوم المعارف الربانية، وعين أحكام العناية الإلهية، الحاوي للعلوم الشرعية والعقلية والنقلية، شيخي، وأستاذي، ومن عليه اعتمادي، الأمجد، الأوحد، التقي النقي الشيخ محمد بن الشيخ عبدالله آل عيثان الأحسائي.) مجلة التراث، العددان (٧-٨) ص ٩٠-٩١، العلامة الإمام، ص ٦٦.

أما تلميذه الآخر الميرزا موسى الحائري الإحقاقي، فيصفه بأوصاف عالية، وألقاب جليلة، معترفا بأستاذيته ومشيخته (العالم الماهر، والنور الزاهر، علم الأعلام، المؤيد من الملك العلام، أويس عصره، وسلمان دهره، نادرة الأوان، وعين الإنسان، شيخي وسندي وأستاذي محمد بن عبدالله بن علي بن أحمد بن عيثان الأحسائي) الإجازة بين الاجتهاد والسيرة، ص ٦٤. أول المجتهدين، ص ٧٩.

تلك نتف من شهادة الأساتذة والتلاميذ في حق شيخنا الجليل محمد آل عيثان، ومالقبوه به، وما وصفوه به - وهم الأعرف به منا - يفوق ماوصفناه نحن

بلقب (الرئيس). وإذا أعدنا قراءة تلك الشهادات الصادرة من مراجع عظام وعلماء كبار، وتأملناها جيدا، حين ذاك يحق للأحساء أن تفخر، وتتباهى بأن الشيخ محمد آل عيثان منها.

ويحق لكل أحسائي أن يفخر ويفاخر أن الشيخ الرئيس أحد رجالاتها العظام. وإذا كانت تلك شهادات العلماء الكبار في حق الشيخ آل عيثان، فيحق لنا في هذا العام (١٤٣١) هجري، وبعد مرور مائة سنة على وفاته رضوان الله عليه، أن نزور قبره الشريف، مطأطئي الرؤوس حزنا لفقده، ومتبركين بتراب قبره الشريف، ومقسمين أننا لن نتخلى عن نهجه العقائدي المتكامل.

ويحق لنا أن نذرف الدموع لفقد شيخنا العيثان في هذا العام -١٤٣١ هجري- بل وفي كل عام. ولن نخجل أن نبكي من جديد شيخنا الرئيس. ونبلل وجناتنا بالدموع. فمن مثلنا - ونحن يتاماه - يحق لهم أن يبكوا مَن مثله في العظمة والشموخ والسمو.

وإذا جاز لنا البكاء، فيجوز لنا الفخر والاعتزاز بأن شيخنا محمد آل عيثان، من أهالي الأحساء، ومن أبناء جلدتنا، ومن رموزنا وأبطالنا الذين نقدمهم على صفحات التاريخ بكل تباهي واعتزاز. واثقين أنهم النموذج الأكمل، والشخصية الأفضل بتاريخ الأحساء في عصره. كما وصفه الميرزا محمد باقر الأسكوئي (الأجل الأمجد، والولي المسدد، العالم العامل الزكي، التقي الورع الصفي، اللوذعي الألمعي، ذو الذهن البارع الوقاد، والفهم السريع لإدراك السداد والرشاد، المولى المؤتمن والمعتمد، جناب الشيخ محمد بن الشيخ عبدالله بن الشيخ علي بن عيثان) شرح حياة الأرواح، ص ٦، قرنان من الاجتهاد والمرجعية، ص ٦٢.

ولم يحز شيخنا تلك الألقاب والأوصاف من أساتذته وتلاميذه فقط. وإن كانت تلك الشهادات هي الأرجح لدينا، بل إن الشيخ العيثان ولشدّة سطوع شمسه، وعلو قامته، ورفعة شأنه، قد وصفه عدد كبير من المراجع والعلماء والمشائخ والمؤرخون منذ زمانه حتى هذا الزمان. وامتدحوه، ووصفوه بالألقاب والعبائر الدالة على هذه

المكانة التي وصلها.

ومن أبرز وصف هذه العبائر، وصف العلامة الشيخ علي البلادي القديحي له في أنوار البدرين ب (العالم العامل الفاضل الأواه الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله آل عيثان الأحسائي، كان (سلمه الله) عالما فاضلا مجتهدا كاملا) ص ٣٥٧.

وقال عنه المرجع الكبير الميرزا عبدالرسول الحائري في مقدمة كتاب (شرح حياة الأرواح) بأن الشيخ الرئيس هو (عمدة العلماء المحققين، وقدوه الحكماء والمدققين، نادرة الأوان، وعين الإنسان الشيخ محمد بن الشيخ عبدالله آل عيثان) ص ٦

ووصفه العلامة الشهير أغابزرك الطهراني في مخطوط (طبقات أعلام الشيعة) للقرن الرابع عشر الهجري (الشيخ العالم الكامل المتبحر الجليل الشيخ محمد بن الشيخ عبدالله بن علي بن أحمد آل عيثان الحسائي القاري) القرن ١٤، ص ١٩.

أما الشيخ الكبير محمد حرز الدين فقد قال عنه في (معارف الرجال): (الشيخ محمد كان عالما فاضلا، مجتهدا كاملا) ج ٣، ص ٢٦٦.

وبالإضافة إلى هذه الشهادات فقد رصد الأستاذ أحمد البدر في كتابه المخطوط عن الشيخ العيثان (العلامة الإمام) عشرات الشهادات للمشائخ والعلماء والكتاب، وكلها تدل على علو منزلته. وكلها تأخذ بأيدينا لوصفه بالشيخ (الرئيس) لتفوقه على الكل، وتدريسه للكل، ورجوع كل شيعة الأحساء والخليج إلى مرجعيته منقادة له، ومسلّمة أمرها إليه.

ولابد أن نشير - ونحن نختم حديثنا عن مرجعية الرئيس - إلى نقطتين هامتين:

الأولى: إن مرجعية الرئيس العيثان لايمكن فصلها - بأي حال من الأحوال - عن مرجعيات علماء الطائفة الشيعية الإثني عشرية، فمرجعيته التي تميزت بشمولها واتساعها الجغرافي، وعمقها العقائدي، هي امتداد للمرجعيات الشيعية الكبرى في النجف الأشرف، وكربلاء المقدسة، وقم، وغيرها من مرجعيات البلاد الإسلامية.

فهي مرجعية أصولية، تمتد جذورها إلى أعماق الحوزات العلمية الشيعية، درسا، وفكرا، وتدريسا، فلايحق لنا أن نبني حواجزا إسمنتية حول مرجعيته رضوان الله عليه. وبالتحديد فإن مرجعيته الأحسائية، ليست سوى امتداد لمرجعيتي الشيخ الكبير محمد أبوخمسن والسيد الكامل هاشم الموسوي. وليست مرجعية السيد ناصر السلمان والشيخ حبيب بن قرين، إلا امتدادا لمرجعية رئيسهم وأستاذهم الشيخ محمد العيثان.

ونؤكد أن مرجعية العيثان لم تبن أسوارا عالية حولها، بل فتحت أبوابها وفكرها للهواء والشمس، وتفاعلت مع كل الأفكار والمدارس الشيعية والإسلامية بلا استثناء. وسيمر علينا في الفصل القادم آراء الرئيس الفقهية، وكتبه التي تناولت مختلف المواضيع الفكرية الإسلامية. وهناك تلك الرابطة الإسلامية الوثيقة، التي تشد كل المرجعيات الإسلامية إلى بعضها البعض. وهكذا عرفت مرجعية الشيخ الرئيس في هذه المنطقة، فلم يعرف أنها اصطدمت، أو حاربت، أو هزمت مدرسة من مدارس الشيعة. ولم يعرف عن مرجعيته أنها دخلت في صراعات جانبية تفتت شمل الأمة وتهد كيانها. واستطاعت مرجعية الرئيس أن تدير (الصراع) إلى جانبها في بعض الحوادث الصغيرة، واستطاع الشيخ أن يتسامى على الخلافات والصراعات. وكان ينظر للخلاف أنه خلاف فكري، يُحل بالحجة والدليل والمنطق لا بالتهريج والمعارك الخاسرة.

وإذا دخل البعض في معارك مع المدارس، أو الاتجاهات الشيعية الأخرى، مفاخرا بتدميرها وسحقها، فإن مرجعية الشيخ العيثان، حاولت تجنب (الصراع) والتركيز على العمل والتدريس والعبادة، معتبرة أن كل المدارس، وكل الاتجاهات الشيعية مصانة، لايجوز هتكها، ولا يجوز تدميرها، طالما أن الإطار الإسلامي محفوظ، وطالما أن القاسم المشترك للمذهب الشيعي متفق عليه. راجع أول المجتهدين، ص ٧٥.

وبهذا المعنى أيضا أصبح الشيخ العيثان هو الشيخ (الرئيس) لكل المدارس الشيعية، ولكل التيارات الشيعية بلا استثناء، في كل مدن الأحساء والقطيف والخليج

قاطبة. وإذا أردنا أن نكون منصفين حقا، فإن مراجعنا الكبار في الأحساء، لم يعرف عنهم أنهم دخلوا في معارك لتصفية أي مدرسة شيعية أخرى، أو لدحر أي تيار شيعي آخر. نعم كانت هناك أفكار علمية، ونقاشات، وحوارات، وكتب تؤلف وجوابات مسائل يجاب عليها، إلا أن كل ذلك في إطار الحوار العلمي المشروع.

الثانية: أن العمر الزمني لمرجعية الشيخ العيثان، قد امتد لأطول من عقدين من الزمن. وتحديدا منذ باديات رجوعه إلى الأحساء عام ١٣٠٩ هجري وحتى سنة وفاته عام ١٣٣١ هجري. وبذلك يكون قد تولى المرجعية وهو لم يكمل عقده الخامس بعد. وهذا العمر الطويل لمرجعيته، قد أهله - وهو الجدير لذلك - لأن يكون والد العلماء ورئيس العلماء. وتكون مرجعيته قطب الرحى، بين المرجعيات في منطقة الخليج.

وهذا العمر الطويل للمرجعية، أعطاها فسحة من الزمن لكي ترسخ مشروعها العقائدي في المنطقة، وأن تتبنى العديد من المشاريع الدينية، ويكون نتاجها المعرفي وفيرا، ونتاجها الحوزوي كثيرا. ولم تكد مرجعية الشيخ العيثان تغرب، حتى تكاثرت المرجعيات الدينية في المنطقة بعده. من أمثال مرجعية الشيخ عبدالله بن معتوق، والسيد ناصر السلمان، والشيخ حبيب بن قرين، والسيد ماجد العوامي وغيرها من المرجعيات التي بذرتها مرجعية الشيخ العيثان. والعديد من المرجعيات الأخرى التي استفادت من الجو العلمي في المنطقة وتفاعلت مع تلك الحركة العلمية التي أوجدتها مرجعية الشيخ بمشاريعها.

ولولا قيام مرجعيه الرئيس المباركة، لعاشت المنطقة فراغا هائلا في القطيف، ولكادت أن تشهد انقطاعا في الأحساء. وبالفعل لم تأفل مرجعيته، إلا والمرجعيات الدينية في المنطقة في أوج تألقها.

الفصل الرابع

فكر العيثان

الفكـر والإرادة، همـا المحـركان الأساسـيان لعجلـة التاريخ. وهمـا - الفكر والأرادة - يشكلان المحتوى الحقيقي للفرد الإنساني. فمن دون افرادة يصبح الفرد عاجزا عن التغيير، ومن دون الفكر، يكون التغيير عشوائيا، بلا غايات مثلى.

أما الفكر - في السياق التاريخي - فليس سوى المعلومات، والأساليب، والقيم، والمناهج، التي تقوّم شخصية الأمة الثقافية والحضارية، وتصبغ على تاريخها سمتها المميـزة لها، عن باقي الأمم، وتخط لهـا دورها المميز في حركة التاريخ الكبرى. إن هـذه المعلومات، والقيم والمناهج، تشـكل في مجملها (فكـر الأمة) و(عقل الأمة) وروحهـا وضميرهـا (وهي تنظـر إلى الكون والحياة والإنسـان والأمـم الأخرى من خلال هذه المعلومات والشـرائع والمناهج والقيم، وتواجه مشاكلها ومسائل حياتها علـى ضوء الحلول والمواقف التي يحملها هـذا الفكر. وإنتاجها العقلي النظري كله يكـون مطبوعا بطابع هـذا الفكر محتويا روحه ومسـتهديا بالنور الذي يشـعه) حركة التاريخ، مرجع سابق، ص ٦٤.

ولكـن هذا الفكـر لا يكون فاعلا ومؤثرا إلا بـالإرادة. والإرادة - كما الفكر - من محتويات الفرد الداخلية للإنسـان. والكائن البشري هو الذي يصنع هذه الغايات السـامية، ويجسـد هذه الأهداف الحضارية العالية على صفحات التاريخ، من خلال مزجه بين فكر وإرادة.

ولا يخفى أن تلك العلاقة العضوية بين المحتوى الداخلي للفرد الإنساني ومجتمعه. يقول السيد الصدر (فالعلاقة بين المحتوى الداخلي للإنسان والبناء الفوقي والتاريخي للمجتمع، هذه العلاقة علاقة تبعية، علاقة سبب بسبب، هذه العلاقة تمثل سنة تاريخية قال تعالى (إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الرعد الآية ١١. وهذه الآية واضحة جدا في المفهوم الذي أعطيناه وهو أن المحتوى الداخلي للإنسان هو القاعدة والأساس للبناء العلوي، للحركة التاريخية، لأن الآية تتحدث عن تغييرين: إحداهما تغير القوم (إن الله لا يغير مابقوم) يعني تغيير أوضاع القوم، شؤون القوم، الأبنية العلوية للقوم، ظواهر القوم، هذه لاتتغير حتى يتغير ما بأنفسهم) المدرسة القرآنية، ص ١٤١.

وبالطبع فإن التغيير الداخلي لا يستهدف تغيير الفرد الواحد ولا الاثنين والثلاثة. بل يستهدف ذلك التغيير الجماعي داخل جموع الأفراد. أي أن هناك بناء داخلي وبناء خارجي، ويجب أن يسير هذان البناءان جنبا إلى جنب. وإذا استطاع الفرد الإنساني من تغيير - البناء - محتواه الداخلي استطاع أن يبني البنية العلوية. لأن الإنسان هو محور التاريخ، ومحور المجتمعات. ولاغرابة في ذلك لأن (المحتوى الداخلي للإنسان يجسد الغايات التي تحرك التاريخ. يجسدها من خلال وجودات ذهنية تمتزج فيها الإرادة بالتفكير) المرجع السابق، ص ١٤٥.

وإذا أردنا أن نتحدث عن (حكمة المدرسة) وجهود شيخنا الرئيس العيثان، نضع نصب أعيننا، أن (فكر وإرادة) الشيخ آل عيثان بالفعل قد ساهمت في حركة التاريخ؛ ذلك لأن التغيير الذي أحدثه الرئيس، تغيير شامل في نفسية دواخل الجموع. لقد استطاع الرئيس أن يحدث تغييرا في (المحتوى الداخلي) في نفوس الأحسائيين والقطيفيين وأهالي الخليج، فاستطاع أن يغير (الأبنية العلوية).

وعلى الرغم من وضوح هذه المسلّمة (السنّة) التاريخية التي تحدث عنها الشيخ محمد مهدي شمس الدين في (حركة التاريخ) والسيد محمد باقر الصدر في (المدرسة القرآنية) إلا أننا - في إطار حديثنا عن الشيخ الرئيس - لا نريد أن نجعل كل

التغيير في (الأبنية العلوية) جاءت من مؤثر واحد. ولا أن نحصر كل التغيير بمرجعية واحدة، ولا بشخص واحد، وحتى لو كان هذا الشخص بمثل ومكانة الشيخ محمد آل عيثان.

ولعل السبب يعود إلى أن فحص أية حضارة، ودراسة أي حركة للتاريخ، لاتقوم على الإزاحة للعوامل الأخرى. ولا يجب أن تتم على معيار التجريد والتنصل؛ لأن (الفكر الإنساني) الذي يلعب هذا الدور الكبير في حركة التاريخ (وعلى اختلاف مراميه وتباين أهدافه ليس كلا يقوم بذاته دون سائر المؤثرات الأخرى) المدخل إلى الفكر الفلسفي، ص ٢٦

إذن هناك موروث حضاري إسلامي، وهناك مرجعيات كبرى في الأحساء، وفي مراكز العلم الشيعية، ساهمت جميعا في إحداث ذلك التغيير الذي أرادته مرجعية الشيخ العيثان. وبالإضافة إلى كل ذلك، هناك البيئة الحاضنة لهذا التغيير الإيجابي. فالتربة الخصبة تلعب دورا مهما، في الإسراع بعملية التغيير. بعكس التربة السبخة التي تصبح من معوقات التغيير التاريخي.

لقد جاءت مرجعية الشيخ الرئيس إلى منطقة الأحساء، والأجواء مهيأة لها، لترسيخ ونشر أفكار ومبادئ مدرسة آل البيت الحكمية، فقد سبقت مرجعيته المباركة، مرجعية الشيخ الكبير محمد حسين أبو خمسين (حيث كان - أبوخمسين - متشربا بفكر الشيخ الأوحد - أحمد بن زين الدين - فقد آل على نفسه إلا أن يغرس الفكر النير وعلم أهل البيت الصافي من فلسفات البشر بين مواطنيه. وبذلك كان أول من جاء بفكر الشيخ الأوحد إلى الأحساء ونشر تعاليمه وثبت أركانه، وصنع جماهيريته) في محراب الشيخ محمد آل أبي خمسين، ص ١٠٠.

نعم كانت أفكار المدرسة الحكمية قد ثُبتت أركانها في البيئة الأحسائية، والجماهير في المنطقة، اعتنقت تلك الأفكار عن قناعة تامة، وعن تبصر واع، تاركة فلسفات البشر جانبا، مسلمة بحكم آل البيت عليهم السلام. وجاء الشيخ الرئيس فعاود دفع تلك الآراء العقائدية إلى الإمام، وحفظها من الاندثار أو النسيان.

الفلسفة الإسلامية:

لم تكن للعرب فلسفة خاصة بهم، لها مذاهبها ومناهجها، بل إن ماجاء في شعرهم بعيد عن التفكير الفلسفي؛لأن الفلسفة جلّ مافي جوهرها، تفكير في الماورائيات. فلم يعرف العرب هذا النوع من التفكير إلا بعد الإسلام. وبعد مجيء الإسلام، وانقضاء العصر الأول للخلافة، ظهرت مسألة النص والتفسير، وتلاحقت العديد من إشكالات المسائل العقائدية، ذات الأبعاد الفلسفية، كقضية الصفات الإلهية، والقضاء والقدر، والظاهر والباطن، فحركت العقل العربي لابتداع مناهج وأطر فلسفية، يقيم عليها تصوراته الماورائية، وأسسه العقائدية.

ومع توسع الفتوحات الإسلامية وازدياد حركة الترجمة، أمكن للعقل العربي، أن يحتك بثقافات الحضارات الأخرى مثل الرومية والفارسية والهندية فيأخذ منها الكثير من تصوراته الذهنية للوجود. ولم يكتف العقل العربي بالأخذ من هذه الحضارات، بل إنه أخذ من الحضارات القديمة أيضا كاليونانية، مبتدئا بمحاكاة تلك الفلسفات، ومقتبسا منها العديد من أطرها الفلسفية. إلا أنه وبعد ردح من الزمن، تمكن المسلمون العرب من خلق فلسفتهم الخاصة بهم. وبالرغم من تأثرهم بالفلسفة اليونانية، ونسجهم على منوال افلاطون وارسطو، إلا أن فلسفتهم في أحيان كثيرة تميزت بعقلانيتها من جهة، وبكونها فلسفة توفيقية – في غايتها – من جهة أخرى. تخطت الدين حينا، وتوافقت معه حينا آخر. راجع كتابنا آخر الفلاسفة، ص ١٠٦

وتعددت مسالك الفلسفة الإسلامية (العربية) في ظل المجتمع الإسلامي الجديد، إلى مسالك متباينة فيما بينها، متأثرة بفلسفات الأقوام السابقة، رغم أنها حاولت – في غايتها – الاعتماد على الكتاب والسنة، ثم حكّمت العقل في العديد من المشكلات التي واجهتها. ومن أبرز (المشكلات) العقائدية والمسائل الفلسفية التي واجهها الفلاسفة والمتكلمون، في الصدر الأول (الجبر والتفويض). فجاءت (الجهمية) وادعت أن الإنسان مجبور في أفعاله، لاقدرة له ولا اختيار. بينما ادعت

(الجهنية) أن الإنسان رب أفعاله، ولا تسيطر عليه أية قوة خارجية على إرادة أفعاله. واتخذ الشيعة الموقف الوسط، وقالت (لاجبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين).

ومع بدايات ظهور (علم الكلام) للدفاع عن العقائد، برزت التيارات الفلسفية، والمدارس الإسلامية بمقولاتها الفلسفية المتمايزة.

والفلسفة التي ولدت من رحم (علم الكلام) هي علم الأشياء بحقيقتها. أو هي (البحث العقلي عن حقائق الأشياء المؤدي إلى الخير) كما يراها سقراط. أما عند ابن سينا فالفلسفة هي (الحكمة في استكمال النفس الإنسانية، بتصور الأمور والتصديق بالحقائق النظرية والعلمية، على قدر الطاقة الإنسانية) أي أن الفلسفة هي العلم الوحيد الذي يبحث في الوجود وماهيته، وعلّته، مجردا من القيود أو لنقل أن موضوع الفلسفة هو الكون ومابعده والإنسان. ومن هناك كانت مهمة الفيلسوف مهمة عقلية كما ترى، وليست لفظية. وإذا استعمل اللفظ، فإنما يستعمل كوسيلة فقط، وأداة للتعبير عن حقائق عقلية مجردة. المصدر السابق، ص ١١١.

وإذا كانت مهمة الفيلسوف، مهمة عقلية صرفة. وإن منهج الفلسفة وطريقها ليس سوى (العقل). فإن للعقل أسلوبين لاستخراج الحقيقة:

الأول: قديم وهو القياس الصوري الذي اعتمده آرسطو، واضع علم المنطق. أما الثاني فهو الاستنباط الرياضي الذي اعتمده ديكارت، وسلّم به العقليون من بعده.

وسمي الأسلوب الأول بالقياس الصوري، لأنه يهتم بصورة التفكير وهيأته وقال آرسطو: (لايصح الحكم على أمر بأنه صادق إلا إذا كان نتيجة لقياس مضبوط) أي أن هناك تلازما عقلانيا بين قولين، فإذا ما سلمنا بصحة المقدمات فليزمنا التسليم بالنتيجة، باعتبارها قهرية لهذه المقدمات. فالقياس ينتقل بنا من مقدمات معلومة إلى حقيقة مجهولة، ولا شك أن آرسطو وضع ذلك القياس في أسلوب منهجي كامل ومترابط.

أما الاستنباط الرياضي - الأسلوب الثاني لاستخراج الحقيقة - فيتلخص في استخراج الحقيقة من البديهيات التي يجزم بها العقل لذاتها دون دليل. هذه الحقيقة تنتقل للذهن مباشرة، دون أي عمليات فكرية وسيطة، يقصد بها الاستدلال، أي ينتقل الذهن من حقيقة معلومة إلى حقيقة مجهولة مباشرة، كانتقالنا من (أنا أفكر) إلى (أنا موجود). إلا أن الفلاسفة المسلمين، اعتمدوا على القياس الأرسطي، ولم ينكروا الاستدلال الرياضي، ولا التجربة كأسلوب ثالث لاستخراج الحقيقة.

ومن هنا وطبقا لهذين الأسلوبين السابقين، فإن الفيلسوف يقوم دائما بإرجاع مباحثه الفلسفية إلى مبادئها الأساسية، وفروضها التي قامت عليها، قاصدا الكشف عن الأسس التي تقوم عليها الممكنات. المصدر السابق، ص ١١٣-١١٤.

وفي بحث الفيلسوف عن الماهيات يستخدم العقل بأساليبه معوّلا عليها كل التعويل باعتبارها منهجا جريئا، يقوم على افتراض قدرة الطريقة العلمية وسدادها في كل ميدان، بل إن النظرة التأملية الفلسفية نظرة عالية لاتقل عن النظرة الدينية التأملية عن عالم خلقه إله قادر على كل شئ.

وباعتماد الفلاسفة المسلمين على (العقل) في جميع مباحثهم الفلسفية، فإن المسافة بين الدين والفلسفة، أضحت تطول وتقصر من فيلسوف لآخر. فجاءت الحاجة للتوفيق بين الدين والفلسفة، ليحقق الفيلسوف الانسجام بين نظرته العقلية ومعتقده الديني.

هذا التوفيق بين الدين والفلسفة، أصبح اتجاها سائدا لتقرير العلاقة بين الوحي والعقل. لا ينكره أحد من فلاسفة المسلمين، بل نراهم يحرصون على عدم الجدل في مبادئ الشرائع. ويذهبون إلى أن الفلسفة لاينبغي لها التعرض لقول مثبت أو مبطل لمبادئ الشرائع العامة. وبالرغم من أن العديد من الفلاسفة المسلمين قد نادوا بهذه المسلمات، وانخرطوا في محاولاتهم التوفيقية بين الدين والفلسفة، إلا أن البعض عوّل على العقل ولم يبال بالعقائد. ورفض آخرون الفلسفة باعتبارها هدم للعقائد. وحاول أصحاب الموقف الثالث، التوفيق بينهما. إلا أنهم لم يخرجوا من

تلك الأطر - المواقف - الثلاثة، حتى جاء الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (الأوحد) ليقرر منهجا حكميا جديدا في الفكر الإسلامي.

إن محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة والتي في أصلها تعني وجوب تقرير العلاقة بين الوحي والعقل، لم تخرج منهجيتها الفلسفية من اعتمادها على مصدرين رئيسيين: الأول ويتكئ على الموروث الفلسفي اليوناني، والثاني نتاجية العقل البشري، أي الاعتماد على سداد الأساليب العقلية وحدها.

وقفزا على محاولات توفيقية عديدة للفلاسفة المسلمين، من أمثال الفارابي وابن سينا، والسجستاني، ومسكويه، وابن رشد نجد المحاولة الكبرى لصدر المتألهين، الملاصدرا. إنتهاء بالمنهج الحكمي الجديد للشيخ الأحسائي. المصدر السابق، ص ١٣١.

منهج العيثان الحكمي

وإذا كان هذا التداخل الكبير بين علم الكلام والفلسفة، فإن الفلسفة بكل مدارسها القديمة والحديثة قد تداخلت أفكارها، واختلطت مصطلحاتها ورؤاها لماهية الأشياء. لقد حدث خلط بين العرفان والتصوف، وبين الزهد والانقطاع التام عن متع الحياة. (ومن هذا الوسط المشحون بمصطلحات الكلاميين - بعد أن برز في الأفق من يستنكر على أصحاب علم الكلام والتصوف تفكيرهم وسلوكياتهم، وفي ذلك الوقت نصب العداء لفكر أهل البيت عليهم السلام عبر معاداة أتباعهم من محبيهم، وتشديد النكير عليهم، ونعتهم بالكفر والبدع، وإلصاق التهم التي ما أنزل الله بها من سلطان فيهم، انبثق العالم الرباني الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (١١٦٦-١٢٤١) هجري الذي نفض عن الحكمة غبار التصوف، وألجم التطرف الناصبي بنشر الفضائل المحمدية، وأرسى دعائم التوحيد الخالص من فلسفة المشائين والسفسطائيين والإشراقيين، وقدم لمجتمعه المرتكز العقائدي، الذي يصلح منطلقا للبناء الحضاري) في محراب الشيخ آل أبي خمسين، ص ١٣٨.

ويضيف الشيخ موسى الهادي واصفا منهج الشيخ الأحسائي بأنه المنهج

الصافي من جميع الشوائب اليونانية الدخيلة على الدين الإسلامي. فجاء منهجه الحكمي مفحما لكل الفلسفات الأخرى التي لا تتخذ من القرآن الكريم وأحاديث أهل البيت عليهم السلام مصدرا وحيدا.

لقد جاءت تلك الفلسفات غير النقية، من النهضة العلمية والفلسفية للحضارة اليونانية الوثنية، قبل أكثر من ألفين سنة، ثم عاودت تتسرب للفكر الإسلامي على أيدي المفكرين العرب مع حركة الترجمة الواسعة، التي أمر بها سلاطين الدولة العباسية. وفي القرن الحادي عشر الهجري، استوى للفلسفة شأن كبير على يد الملا صدرا الشيرازي، الذي أسس فلسفته المعروفة (الحكمة المتعالية) لينهي الكثير من الجدل، حول العديد من قضايا الفلسفة الشائكة، التي تصب في صالح نهج الملا صدرا. (ولكن مع ذلك تبقى المؤآخذات عليه، أن لاأصل له في فكر أهل البيت عليهم السلام، فضلا عن أن منشأه كان من الإغريق، إذ لم يدخل ضمن أبحاث علم الكلام، ومناقشات العقائد الإسلامية، إلا بعد حركة الترجمة) المصدر السابق، ص ١٤١.

لذلك فإن منهج الملا صدرا الشيرازي وفلسفته (تحولت إلى نسيج عجيب، ونسق غريب من الأفكار، الأمر الذي أثار استحسان أغلب من جاء بعده فأورثوه كرسي الزعامة، وإنه أعظم الفلاسفة على الإطلاق حتى قيام الساعة) المدخل، ص ٢٣. ولم يستطع الملا صدرا مع كل هذه الزعامة التي حصل عليها، والشهرة التي حظي بها، أن يجعل من فلسفته، فلسفتة إسلامية حقيقية، إذ أن المقياس في ذلك، هو تابعية الفلسفة للدين الإسلامي، أو تابعية العقل للنقل.

وأمام هذا المشروع الكبير للملا صدرا، الذي حصد الكثير من الأتباع - رغم المؤاخذات عليه - كان لابد للفلسفة الإسلامية من تصحيح قوي وجذري. وقد أدرك الشيخ الأحسائي الخطر، وفداحة الأمر، وعظم المهمة (فأخذ على عاتقه إنجاز مهمة التصحيح لمسار الفكر من خلال إعطاء المتبوعية المطلقة للنصوص القرآنية والمعصومية، وجعل التابعية المطلقة للفلسفة) المصدر السابق، ص ٢٦. وكان لابد للشيخ الأحسائي أن يتخذ من فلسفة سلفه الملا صدرا هدفا للنقد، وانموذجا للتصحيح، باعتبارها الفلسفة (الأحدث) و(الأوسع) مزجا لكل التيارات والفلسفات المتباينة.

وبالفعل قام الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي بهذه المهمة الإسلامية الكبيرة، وأصبح الأكثر شهرة في كل البلدان الإسلامية قاطبة (وبسطوع نجم الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي تغيّر المسار الثقافي في المنطقة، وبالذات فيما يتعلق بشؤون الفلسفة، إذ ولدت مدرسة جديدة) في محراب الشيخ محمد آل أبي خمسين، ص ١٤١.

نعم لقد تغير المسار الثقافي، ولكن ليس على مستوى المنطقة فحسب، بل وعلى مستوى العالم الإسلامي في ذلك اليوم. إن المهمة التي قام بها الشيخ الأحسائي، أصعب بكثير من محاولات أسلافه من الفلاسفة، وأنقى بكثير من حكمة الملا صدرا (المتعالية)؛ ذلك لأن الشيخ الأحسائي لم يمتهن الفلسفة بمعناها الحرفي، لكي يحاول تقريب الفلسفة للدين. بل كان عالم دين رباني حاول فهم (الحكمة) من خلال النص القرآني. بالإضافة إلى ذلك (فإن محاولة ابن زين الدين، تسعى لتقريب الفلسفة لا للدين فقط، بل وإلى حظيرة المذهب الشيعي الإمامي باتجاهه الأصولي) فيلسوفان ثائران، ص ٣٧.

إن منهج الشيخ أحمد الأحسائي الحكمي الذي قال به: هو عدم اعتماده على القواعد المقررة مسبقا في علم الفلسفة وحدها. بل ابتدع - في إطار هذا المنهج - أدوات فلسفية - حكمية - جديدة، وقواعد مبتكرة، معتمدا على النصوص القرآنية، وعلى أخبار أهل البيت عليهم السلام. أي أن هذا المنهج الجديد، يعتمد الحكمة المستخلصة من النص القرآني، وتراث الأئمة عليهم السلام، والاعتبار عنده بما لا تقره أخبارهم. وتمشيا مع هذا المنهج المبتكر، ومن خلال نقده (للحكمة المتعالية) اعتمد على استنباط الأحكام العقائدية الإمامية من القرآن الكريم، وأخبار أهل العصمة عليهم السلام. أي إن الشيخ الأحسائي يرى أن استنباط الأحكام العقائدية الإمامية من الكتاب والسنة أولى من استنباط الأحكام الفرعية منها. لأصالة العقائد الإمامية في الدين. فكر ومنهج، ص ٥١.

ويدلل الشيخ الأحسائي على سلامة وصحة منهجه الحكمي ذلك، بعجز العقل البشري عن التشريع. فالمرشد للعقل في جميع استنتاجاته، هو التشريع السماوي المحفوف بالعصمة الإلهية، فيلزم على العقل البشري اتباع الدليل التشريعي حتى يأمن الزلل والخطأ. وتحديدا في القضايا والمسائل العقائدية. لأن العقائد توفيقية

لاتقاس بالعقل. راجع كتابنا آخر الفلاسفة، ص ١٣٣. بالإضافة إلى ذلك فإن الشريعة الإسلامية، اهتمت بالأمور الصغيرة جدا، وجعلت لها أحكاما خاصة، فكان مع الأولى الرجوع إلى الدين في الأمور العقائدية، وهي الأكبر التي لا يمكن للعقل البشري قياسها أو تصورها.

ويمكن رصد ثلاث مرتكزات رئيسة للمنهج الحكمي الذي جاء به الشيخ الأحسائي وسار عليه العيثان:

أولا: ابتكاره لمنهج فلسفي - حكمي - جديد لم يسبقه اليه أحد، خلاصته ظهور حكمة إسلامية جديدة من القرآن الكريم ومن أخبار أهل البيت عليهم السلام؛ لأنه يستخلص الحكمة من تراثهم المنقول عليهم السلام.

ثانيا: تفسيره للعديد من الأخبار، وحل الكثير من المسائل الشائكة، وقدرته على فك الرموز الغيبية في هذه الأخبار، ممن تركها القوم في سنابلها خشية من تناولها.

ثالثا: تناوله بالشرح أصعب الكتب الفلسفية آنذاك، ومنها (المشاعر) و(العرشية) لملا صدرا. وابتداعه للعديد من المقررات والمصطلحات الحكمية التي لم يألفها المشتغلون بالحكمة أنفسهم. المصدر السابق، ص ١٤٠.

تلك مرتكزات رئيسية ثلاثة لمنهج الشيخ الأحسائي الحكمي. أما عن الآليات في هذا المنهج لتحصيل المعارف الإلهية، فيرى الحاج حسن فيوضات، أن الشيخ قد قسم الأدلة التي يتم بواسطتها تحصيل هذه المعارف إلى ثلاثة أدلة:

١ - دليل الحكمة.

٢ - دليل الموعظة الحسنة.

٣ - دليل المجادلة بالتي هي أحسن.

ولقد شرح الميرزا حسن فيوضات تلك الأدلة الثلاثة بإيجاز في كتابه (مدخل إلى فلسفة الشيخ أحمد الأحسائي) ص ٤١ - ٤٩.

وإذا كان هـذا هـو منهج الشـيخ أحمـد الأحسـائي الحكمي، الذي سـار عليه الشـيخ الكبير محمد أبوخمسـين، فهو بالتأكيد نهج ومسـار الشيخ محمد بن عبدالله العيثـان، لأنهما من مدرسـة واحدة، ومـن لحمة واحدة. ولقد تجلت حكمة الشـيخ الرئيـس فـي كتاباته الإلهية. وبنظرة واحدة على عناويـن مصنفاته، يتضح لنا ها الأمر بجلاء واضح.

١- أجوبة مسائل الشيخ حسين الصحاف:

وهو من كتب الشـيخ العيثان المخطوطة، وأجوبة الشـيخ الرئيس جميعها عن مسـائل الصحـاف الحكميـة، تدور في علـم الحكمـة، ومراتب الأئمـة المعصومين عليهم السلام وفضائلهم. وفي هذا الكتاب يحاكي الشـيخ الرئيس أسـاتذته في الإجابة على هذا النوع من الأسئلة الحكمية. العلامة الإمام، ص ١٣٣.

٢- أجوبة المسائل الكويتية.

وهـذا الكتاب غير الكتاب السـابق الذكـر، الذي أجاب فيه الشـيخ الرئيس على أسئلة الصحاف، ويسمى أيضاً (رسالة في أجوبة المسائل الكويتية) وقد أودع فيه الشيخ الرئيـس أسـرار الحكمـة الإلهية، وأجاب عن تلك المسـائل الكويتيـة إجابات حكمية (فلسفية) من روح وجوهر مدرسة آل البيت الحكمية. مستشهدا فيها بآراء الشيخ أحمد الأحسائي. معجم المؤلفات الشيعية في الجزيرة العربية، ج ١، ص ١٥٥.

٣- البرهان الرائق في القول بوحدة الناطق.

وهو أحد كتب مدرسة آل البيت الحكمية الهامة. والدال بوضوح على انتساب الشـيخ الرئيس آل عيثان لهذه المدرسة، والدفاع عنها، والتمسك بأفكارها. والجدير بالذكر أن أعلام مدرسـة آل البيت الحكمية، لهم كتب مشـابهه للرد على (المدرسـة الكرمانيـة) لقولهم بوجوب وجود الركن الرابع. فهناك كتب حملت عناوين مشـابهة لهذا العنوان، في الرد على دعوى وحدة الناطق للميرزا موسـى الحائري الأسكوئي، والشـيخ حبيب بـن قرين، وغيرهما من أعلام المدرسـة. والكتاب مناقشـة عقائدية،

استدلالية عميقة، في بطلان وحدة الناطق. والكتاب هو حوار عملي هادئ، ومناقشة للأدلة وتفنيدها. أنوار البدرين، ص ٣٣٢.

٤- دليل الحيارى في الرد على النصارى.

ويسمى الكتاب أيضا (الرد على الباكورة السليمانية) وطبع مؤخرا باسم (الرد على النصارى). وكتاب (الباكورة) من تأليف أحد النصارى المعاصرين للشيخ العيثان، وفيه نيل للإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ. فقام الشيخ الرئيس بتفنيد كل شبهاته وادعاءاته على الدين الإسلامي. الذريعة، ج ١٠، ص ١٨٩.

٥- مسائل في الحكمة

وهو كتاب غير مكتمل، من تأليف الشيخ العيثان، وفيه يناقش الشيخ الرئيس العديد من المسائل الحكمية المستعصية، ويفيض قلمه بأنوار الحكمة الإلهية الحقّة. ويتضح من استدلالاته ومناقشاته لتلك المسائل الحكمية، عمق علم الشيخ، وتضلعه في حكمة مدرسة آل البيت عليهم السلام. العلامة الإمام، ص ١٤٣.

٦- رسالة في الأخبار وماتتضمن من فعل الإمام.

وهو أحد الكتب الحكمية الهامة للشيخ العيثان، يتضح فيه منهجه وأسلوبه الحكمي لمدرسة آل البيت. العلامة الإمام، ص ١٤٦

٧- رسالة في أن الإنسان مختار في أفعاله أم لا.

وهو من كتب الشيخ المخطوطة، ويناقش فيه أعقد المسائل الفلسفية التي شغلت الفكر الإسلامي لقرون عديدة. العلامة الإمام، ص ١٤٦

٨- رسالة في حل بعض الألغاز الحكمية التي وردت في أبيات من الشعر:

أيا راكبا يطوي الفلا فوق أجرد يفدالفيافي فدفدا بعد فدفد
تحمل رعاك الله عني رسالة تبلغها أهل المدارس في غد

ونشير إلى أن أعلام مدرسة آل البيت الحكمية لهم مصنفات مماثلة لشرح هذه

الأبيات الحكمية، مثل الميرزا موسى الأسكوئي. ولا نعلم من قائل تلك الأبيات الحكمية. العلامة الإمام. ص ١٤٨.

٩- رسالة في شرح (اللوامع الحسينية).

و(اللوامع الحسينية) من الكتب الحكمية الهامة للسيد كاظم الرشتي. وقد قرأ الشيخ آل عيثان شرح اللوامع على يد الميرزا محمد باقر الأسكوئي في كربلاء المقدسة. أما شرح اللوامع من قبل الشيخ الرئيس، فيدل على طول باعه وتبحره في علم الحكمة. العلامة الإمام، ص ١٥١

١٠- رسالة في (لو علم المكلف نفسه).

من كتب رسائل الحكمة للشيخ الرئيس. المصدر السابق، ١٥٦.

١١ - رسالة في معاني الحروف.

وهي من الرسائل الحكمية الهامة لشيخنا آل عيثان، وتوجد رسائل مشابهة لعلماء وأعلام مدرسة آل البيت الحكمية، في تفسير معاني الحروف ودلالاتها. الفهرست المفيد في أعلام الخليج، ص ١٦٥.

١٢- هداية العباد إلى طريق الحق والرشاد.

أشار إليه العلامة أغابزرك الطهراني في كتابه (الذريعة). وهو كتاب في أصول الدين وفروعه. وقد رتب على فصلين: أولهما في أصول العقائد، في خمسة أبواب ١- التوحيد ٢- العدل ٣- النبوة ٤- الإمامة ٥- المعاد. وجفّ قلمه - رضوان الله عليه - بعد المعاد. وقد طبع الكتاب بأمر من ابنه العلامة الشيخ علي (١٤٠١) هجري، وباعتناء من الخطيب السيد محمد حسن الشخص (١٤٠٨) هجري. العلامة الإمام، ١٦٥.

١٣- الرسالة العملية.

١٤- رسالة في التصرف في مال الطفل.

١٥- رسالة في التعادل والتراجح.

١٦- رسالة في تقليد الأموات والمنع عنها.

١٧- رسالة في حقيقة التقليد وماهو؟

١٨- حاشية على القوانين.

١٩- خواص القرآن الكريم.

٢٠- رسالة في الزكاة (استدلالية).

٢١- رسالة في الزكاة والخمس.

٢٢- رسالة في شرح بعض الأخبار.

٢٣- رسالة في صحة صوم الاستحاضة ومايتعلق بها.

٢٤- رسالة في صحة العبادة والامتثال مع فقد بعض الشرائط.

٢٥- رسالة في الصوم. استدلالية. (مخطوط).

٢٦- رسالة في الطلاق وأقسامه.

٢٧- رسالة في الطهارة.

٢٨- رسالة في عصير العنب.

٢٩- رسالة في علم الجفر.

٣٠- رسالة في المفضول.

٣١- رسالة في القضاء (استدلالي).

٣٢- رسالة في القضاء (وهي غير السابقة الذكر).

٣٣- رسالة في المعاملات.

٣٤- رسالة في مناسك الحج.

٣٥- شرح الشهاب الوامض في أحكام الفرائض.

٣٦- شرح رضاعية السيد مهدي القزويني.

٣٧- رسالة في مناسك الحج (منسك الحج)

وقد أشار لكل هذه المؤلفات من تصنيف الرئيس العيثان، الأستاذ أحمد البدر في مخطوط (العلامة الإمام) ص ١٣١ - ١٧٠. ونحن على يقين تام، أن مصنف كل تلك المؤلفات في الحكمة والأصول، والفقه لهو على دراية تامة - تحديدا - بحكمة مدرسة آل البيت الحكمية. فكيف لايكون كذلك، وهو يقوم بشرح (اللوامع الحسينية)، ويكتب في كل تلك العلوم، ويوضح مقامات آل البيت عليهم السلام، ويشرح رتبهم عليهم السلام. ولاشك عندنا من أن الرئيس قد قرأ وفهم عبارات الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (الأوحد)، وهذه العبارات كما يصفها السيد الرشتي (لايحيط بها ولا يعرفها كما ينبغي، إلا أن يكون عالما محيطا بدقائق علوم شتى) كشف الحق، ٤٩. لذلك فإن الشيخ الرئيس بحكمته، قد أتقن تلك العلوم الصعبة ومنها علوم الصناعة، وعلم الهندسة، وعلم الهيئة للأفلاك، ومعرفة علم النجوم، والعلم الطبيعي، والعلم الإلهي العام منه والخاص، وعلم التوليد والضم والاستنتاج والتفريق والانفصال، وعلم أحكام النفس الأمريّة، وعلم التطبيق والتوفيق، وعلم الموازين، وعلم الكتاب التدويني، وعلم الكون الشرعي، وعلم المناظر والمرايا، وعلم التأويل والباطن، وعلم الأصول وغيرها من العلوم اللازمة، التي أتقنها الرئيس آل عيثان لمعرفة كلمات الشيخ الأوحد حتى صار من أبرز حكماء مدرسة آل البيت الحكمية. وهي علوم (لابد منها ولامحيص عنها في معرفة عباراته المذكورة، فإذا عرفها وأتقنها وأحكمت مافيها من الدقائق والإشارات والحقائق والتلويحات ربما تحظى ببعض مطالبه ولطائف إشاراته المودعة في طي عباراته، لا جميع مايريد منها كمايريد بما يريد، فإن ذلك صعب المنال عزيز الوصال، لايهتدي إليها إلا من أنار الله قلبه وكشف عن بصيرته وسره، وعرّفه الحيث والكيف، والكم وأحاط بعلم الكيفوفة

وسر القيمومة، واستنار بنور الكينونة، وخرج من عالم البينونة، وذلك أوحدي العصر وواحد الدهر) المرجع السابق، ٨٩.

ونعتقد جازمين أن الشيخ العيثان، قد استطاع أن يفهم عبارات الشيخ الأوحد؛ لأنه أتقن كل دقائق تلك العلوم على أيدي علماء كبار لامثيل لهم، ولأنه وصل إلى مرتبة عالية في العلم، شهد بها العديد من أساتذته، والكثير من تلامذته - كما نقلنا شهادتهم - مقرين معترفين بعلميته، ومسلمين لحكمته. كما أن إجاباته لتلك المسائل الحكمية العسيرة، وشرحه لكتب الحكمة، دليل على تلك المكانة التي وصل إليها شيخنا العيثان. إنها مكانة عالية لايدانيه فيها أحد في عصره؛ لأنه رئيس العلماء والحكماء.

فقه الشيخ:

لكل من (الدين والفقه والشريعة) في قواميس اللغة العربية والعرف معان متعددة. إلا أن تلك الكلمات الثلاث ليس لها إلا معنى واحد في الإسلام. قال تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) سورة آل عمران، آية ١٩. والفقه الإسلامي عندما نعرفه لغويا، فنعني به (الفهم). أما في اصطلاح الفقهاء فهو (مجموعة الأحكام الشرعية العملية) فلسفات إسلامية، ص ٩١٦. فالفقه ينظم سلوكيات الفرد المؤمن في عباداته مع الله، وفي تعاملاته اليومية.

ويشرح الشيخ محمد جواد مغنيه مدلول لفظة الفقه، في مصطلح أهل الفن والعلماء قائلا (هو العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية كالوجوب والحظر والاستحباب والكراهة والإباحة، وكون هذه المعاملة صحيحة أو فاسدة، وهذه العبارة تامة أو ناقصة، وهذا القرين يرث دون ذلك، وهذا الزواج شرعي أو غير شرعي) تاريخ الفقه الجعفري، ص ٥.

ومع بدايات القرن الرابع الهجري، بدأ في تدوين فروع الفقه الشيعي الجعفري. وكان الشيخ الجليل محمد بن أحمد الجنيد المتوفي عام (٣٨١) هجري هو أول من فتح باب استنباط الفروع من أدلتها وهذبها. وعلى يد الشيخ الجنيد، ومن ثم الشيخ

الحسن الحذاء، فتحت أبواب حركة الاجتهاد، وسارت تلك الحركة الاجتهادية قدما، إلا أنها وصلت إلى ذروتها في بدايات القرن الخامس الهجري مع الشيخ المفيد محمد العسكري المتوفي عام (٤١٣) هجري وكذلك السيد المرتضى الذي ألف كتاب (الإنتصار) وهو علم في الفقه المقارن. وقد تعهد شيخ الطائفة الطوسي - في النجف - حركة الاجتهاد، ونهض بها وألف كتبا عدة، منها كتاب (الخلاف) وهو في الفقه المقارن أيضا. راجع كتاب الحوزة العلمية في النجف، ص ١٦٨. ومنذ ذلك العهد والحوزة العلمية في النجف الأشرف وهي ترفد العالم الإسلامي بآلاف الفقهاء والعلماء والمجتهدين، وكان شيخنا الرئيس محمد العيثان أحد العلماء والفقهاء الكبار الذين تخرجوا من هذه الحوزة العلمية الشريفة.

إن القراءة المتأنية لتاريخ الفقه الجعفري، يمكن لها أن تلاحظ التطور الكبير الذي أتيح للفقه الإمامي عبر تاريخ مابعد الغيبة الكبرى وإلى اليوم، رغم الصعوبات والعراقيل التي واجهت طلاب العلوم الدينية، ورغم الملاحقات التي طالت العلماء الكبار، على أيدي الطغاة من الحكام، فقد كتب في الفقه عددا وحجما. ورغم الملاحقات، فقد برز علماء كبار، صنفوا في الفقة وصنفوا في أصوله كتبا أوسع وأشمل مماعهدوه في كتب الشيخ الطوسي، أوابن ادريس الحلي. وإذا تجاوزنا تلك القرون والكتب التي ألفت خلالها من أمثال (شرائع الإسلام) و(المبسوط) و(النهاية) وإذا فتشنا في مؤلفات فقهاء الإمامية في مجال الفقه والأصول خلال القرنين الأخيرين، نجد أمامنا (جواهر الكلام) للشيخ محمد حسن النجفي، و(فوائد الأصول) للشيخ مرتضى الأنصاري، حيث عد هذان الكتابان خطوة جبارة في عالم الفقة والأصول، ليس لهما نظير. إلا أن حركة الاجتهاد بعد ذلك لم تقف عند هذا المستوى. فقد جاءت بعد ذلك قفزات عملاقة، يستطيع أهل الفن ملاحظتها بيسر وسهولة.

هؤلاء الفقهاء المجتهدون الذين كتبوا وصنفوا، هم مراجع الأمة الإسلامية، الذين يرجع إليهم عامة الناس لأخذ الفتوى منهم في شتى أمور دينهم ودنياهم. لذلك فإن المرجعية في اصطلاح الفقهاء هي (الجهة المتولية لشؤون الأمة أو الفرقة أو

الطائفة بأجمعها، وبيدها الإرادة لتدبير أحوالها وأوضاعها الدينية، ويسمى المتقمّص بها بالمرجع، بفتح الميم وكسر الجيم) باب مدينة علم الفقه، ص ٣٥٨.

وقد قام بدور المرجع الديني على مدى قرون عديدة، أكابر العلماء الشيعة، من كبار مجتهديها العظام، من أمثال السيد المرتضى، والشيخ الطوسي، والشيخ الأنصاري، وغيرهم العشرات من النجوم اللامعة في سماء الفكر الشيعي. وبالطبع كان شيخنا الرئيس العيثان، أحد تلك النجوم اللامعة، فهو الفقيه الكبير، والمرجع العام لعموم أهل منطقة الأحساء بكامل مدنها وقراها، ولكثير من أهالي مدن وقرى منطقة القطيف، والبحرين، ودبي، والكويت، والبصرة وإيران.

ولقد أشار الأستاذ أحمد البدر إلى بعض (آراءه الفقهية) التي تدل على مكانته العلمية، وسمو قامته الفقهية بين فقهاء الشيعة الكبار. راجع العلامة الإمام، ص١٢٤.

أما الشيخ محمد علي الحرز فقد كتب دراسة هامة عن الشيخ العيثان، وعدّه أحد الأعلام الفقهية في الفكر الشيعي، وقسم الحرز مكتبة الشيخ العيثان الفقهية إلى ثلاثة أقسام: المسائل الفقهية، والفقة الإستدلالي، والشروح الفقهية. وقد بلغت عدد مصنفات هذه المكتبة الفقهية (١٩) مصنفا. مجلة الفقاهة، ص ١٢٤.

وتناول الحرز خصائص فقة الشيخ العيثان، مشيرا إلى أن الشيخ الرئيس (فقيه عرف بملكته وقدرته على التحليل والنقض والإبرام وفق القواعد والمباني العلمية المختلفة) المصدر السابق، ص ١٢٧. ورغم الصعوبات التي واجهها عصر الشيخ الرئيس، من انعدام في الأمن، وصعوبة في التنقل، وقلة في المصادر، إلا أن الشيخ عرف عنه العلم الغزير، والإطلاع الشامل على روايات آل البيت عليهم السلام، وعرف عن الشيخ العيثان القدرة العلمية للتعامل مع مختلف الآراء.

وذهب الشيخ محمد الحرز في هذه الدراسة القصيرة والمميزة، يتلمس الأسس الفكرية التي بنى عليها الشيخ محمد آل عيثان منهجه الفقهي:

أولا: مهارة التفريع والتقنين:

ويمكن تلمس هذه المهارة عند العيثان في تناوله للمسائل الفقهية. فالشيخ العيثان ومن خلال الأبحاث التي كتبها، يظهر قدرة عالية، وعقلية جبارة على التفريع والتقنين في هذه المسائل. بل ويشبع هذه المسائل شرحا، ويذهب بها إلى مختلف فروعها. ضمن احتمالات متعددة يظهر من خلالها تشعبات وتشقيقات المسألة. وقد تجلى هذا الأمر في العديد من المسائل الفقهية مثل (في منكر الضروري للدين الذي يكفر) وفي مسألة (الكذب على المعصوم) وغيرها من المسائل التي فرع فيها وفصل.

ثانيا: التنوع في طرق الاستدلال:

ويتميز منهج الشيخ الفقهي في هذا التنوع الكبير في الاستدلال. فهو يعتمد على مختلف الأدلة الاجتهادية، والأدلة الفقهية، والأصولية الأخرى لتثبيت الحكم أو نفيه وإعطاءه مرجحية على غيره. فالشيخ العيثان استخدم الوسائل المختلفة في إثبات وجهة نظره الفقهية. مع ضغط في العبارة، وقوّة في السبك. وبهذا التنوع عند الشيخ العيثان باستخدام آليات الفقاهة، لإثبات مبناه ومسلكه الفقهي، يمكن الكشف عن قوّة الملكة الفقهية لديه، والقدرة على تطويع هذه الأدلة المتعددة بما يتناسب مع منهجه.

ويبرز ذلك التنوع عند الشيخ العيثان في مثل استخدامه للأدلة المساعده مثل (مشهور الفقهاء) و(اعتماد الذوق الفقهي) و(مطابقته ومخالفته لمذهب العامة) و(القرعة) وغيرها من القواعد المساندة لتوضيح الحكم الشرعي.

ثالثا: اعتماد الركائز الفكرية والعقلية:

وهنا يرجع الشيخ الحرز هذه الركائز الفكرية والعقلية التي اعتمدها الشيخ العيثان، لمدرسة آل البيت الحكمية، التي يتبناها الشيخ الرئيس، وهو أحد أعلامها الكبار. لذلك فإن البنية الفكرية للشيخ العيثان تجد فيها الصبغة الكلامية كعلامة

بارزة في منهجه الفكري، وطريقته في الإستدلال. وهذه الصبغة الكلامية منشؤها (المدرسة الفلسفية والكلامية التي كان ينتمي إليها وهي مدرسة الشيخ الأحسائي) المصدر السابق، ص ١٣١. بالإضافة إلى الحراك الثقافي العلمائي الذي كان يدور طبقته إبان مطلع القرن الرابع عشر الهجري.

رابعا: شرح المصطلحات الشرعية:

يتميز منهج الشيخ العيثان الفقهي، بشرح المصطلحات من الناحية الشرعية من وجهة نظره بما له من مدخلية في تشخيص الحكم الشرعي. بالإضافة إلى شرح وتوضيح هذه المصطلحات من الناحيتين اللغوية والعرفية.

فالشيخ العيثان يشرح المصطلحات من الناحية الشرعية بتوسع، حتى يتضح المراد منها، وذلك بسبب اختلاف الآراء الفقهية في تبني الحكم الشرعي سعة وضيقا، تبعا لمفهوم المصطلح الذي يتبنونه. ولذلك نجد في هذا المنهج الفقهي العديد من التعريفات في كتب الشيخ مثل معنى (الكفر) ومعنى (الناصب) ومعنى (الفرق بين النوم والموت) وغيرها من التعريفات العديدة للمصطلحات. وقد أولى الشيخ آل عيثان عناية كبيرة في شرحها من النواحي الفقهية والأخلاقية.

خامسا: مدخلية العرف في الحكم الشرعي:

وهذه المدخلية من خصائص فقة الشيخ الرئيس. ويقصد (بالعرف) هو ما اعتاد الناس وساروا عليه من كل فعل شاع بينهم. لما للعرف العام من مدخلية في نشوء الحكم الشرعي في المعاملات وشؤون الناس. والعرف هو عرف عقلاء الناس، شريطة ألا يتنافى مع الرأي الشرعي. ولهذا كان لمدخلية العرف من سمات المنهج الفقهي عند الشيخ العيثان. ونجد هذا الأساس الفقهي عند الرئيس حين يتناول العديد من بحوث المسائل مثل (انتقال الدم من ذي النفس السائلة إلى غير ذي النفس) وفي (تطهير الماء) وفي مسألة (الكذب على الله ورسوله ﷺ) وفي غيرها من المسائل. المصدر السابق، ص ١٣٣.

نهاية المطاف

في نهاية المطاف لترجمتنا للشيخ الرئيس محمد بن عبدالله العيثان لايسعنا القول إلا أن التاريخ الإسلامي عامة، وتاريخ الفكر الشيعي خاصة، يحق لهما أن يفتخرا بالشيخ الرئيس كأحد النجوم بل الشموس الساطعة في سماء الفكر الإنساني.

ويحق لأهل الأحساء تحديدا أن يفتخروا بأن الشيخ محمد العيثان منهم. فهذه الشخصية العملاقة، قد اتسمت بالعلم والزهد وسعة الأفق، وحوت علوم آل البيت عليهم السلام. شخصية تجاوزت الإطار لتيار محدد، أو لمذهب وحيد، ليشمل عطاء شخصيته الفذّة، كل التيارات والمذاهب الإسلامية.

وهو المرجع الرئيس، الذي دامت مرجعيته طوال عقدين من الزمن، وضع خلالها العديد من الرؤى، والأفكار، والأسس التي تجسد كل الخير لأهل الأحساء خاصة، وللمسلمين عامة في كل مكان.

أهم المصادر

(أ)

- أبو بكر عبد الله بن محمد الشمري، الفهرست المفيد في تراجم أعلام الخليج، الدار الوطنية، الخبر، ١٤١٣.
- أحمد البدر، العلامة الإمام محمد عبدالله العيثان، مخطوط
- أحمد عبد الهادي المحمد صالح، أعلام مدرسة الشيخ الأوحد، دار المحجة، بيروت، ١٤٢٧
- أحمد زين الدين الأحسائي، الرجعة، بيروت، ١٤١٤، ١٩٩٣.
- أحمد زين الدين الأحسائي، شرح الزيارة الجامعة، طبعة حديثة بدون تاريخ الطبع.
- . أحمد محمد بن حمد الملحم، الأحساء والكتاتيب، السعودية، ط١، ٢٠٠٩
- أحمد زين الدين الأحسائي، رسائل الحكمة، بيروت، ١٤١٤ - ١٩٩٣.
- أحمد زين الدين الأحسائي، رسائل الشيخ، الكويت، ١٤٢١ - ٢٠٠٠.
- اغابزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ١٤١٣

(ب)

- باقر موسى أبوخمسين، علماء هجر وأدباؤها في التاريخ، مخطوط.

(ج)

- جعفر آل ياسين، المدخل إلى الفكر الفلسفي، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣.
- جورج جرداق، صوت العدالة الإنسانية، دار الحياة، بيروت، ١٩٩٦
- جوستاف لوبون، سر تطور الأمم، دار النفائس،
- جواد الرمضان، أعلام الأحساء، مخطوط
- جواد الرمضان، مطلع البدرين، ١٤١٩ - ١٩٩٩
- جوان. دي. كول، رفض الذات، مجلة الساحل، عدد ٣، ٢٠٠٧
- جهاد الخنيزي، معالم من مرجعية الإمام الشيرازي في القطيف، دار العلوم، بيروت، ١٤٢٢

(ح)

- حسن كوهر، شرح حياة الأرواح، ط٢، الكويت، ١٤٢٣
- حبيب آل جميع، معجم المؤلفات الشيعية في الجزيرة العربية، مؤسسة البقيع، بيروت، ١٤٢٧.
- حسن الحائري الإحقاقي، الدين بين السائل والمجيب، الكويت، ١٤١٢.
- حسن فيوضات، المدخل إلى فلسفة أحمد الأحسائي، دار المحجة، بيروت، ١٤٢٤.
- حسن الشيخ، آخر الفلاسفة، بيروت، ١٤٢٣ - ٢٠٠٣..
- حسن الشيخ، السيدة زينب بطولة ورسالة، المؤسسة العربية، بيروت، ١٤١٢، ١٩٩٢.
- حسن الشيخ، أول المجتهدين، دار الرأي العربي، بيروت، ١٤٢٩ - ٢٠٠٨
- حسن الشيخ، فيلسوفان ثائران، دار الرأي العربي، بيروت، ١٤٢٥-٢٠٠٤
- حسن الامين، مستدركات أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، ١٤٠٦
- حسن الأمين، دائرة المعارف الشيعية، دار التعارف، بيروت، ١٤٢٦
- حسين محفوظ، إجازات الشيخ أحمد الأحسائي، بغداد، ١٣٩٠.
- حسين محفوظ، سيرة الشيخ أحمد الأحسائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٣٧٦ ١٩٥٧

- حسين محفوظ، فهرست كتب الشيخ الأوحد، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٧١
- حسن الصفار، الاجتهاد والتجديد في الفقه الإسلامي، مطابع الرجاء، ١٤٠٦
- حسن الصفار، الإمام علي وقضايا الأمة، أطياف للنشر والتوزيع، القطيف، ١٤٢٧

(خ)

- خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٠، ١٩٩٢
- خالد سعود الحليبي، الشعر الحديث في الأحساء، ط١، الدمام، ١٤٢٤

(د)

- دأويت. م. روند لسن، عقيدة الشيعة، بيروت، ١٤١٠.

(ر)

- رمزي نجار، الفلسفة العربية عبر التاريخ، دار الآفاق، بيروت، ١٩٧٧.
- رضا سعادة، الفلسفة ومشكلات الإنسان، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠.
- رضا سعادة، الفلسفة والدين، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٠.

(ك)

- كاظم الرشتي، دليل المتحيرين، الكويت، ط٢، بدون تاريخ.
- كاظم الرشتي، كشف الحق، مؤسسة البلاغ، بيروت، ١٤٢١
- كاظم الرشتي، أصول العقائد، تحقيق عبد الجليل الأمير، ط١، ٢٠٠٨

(م)

- محمد باقر الخونساري، روضات الجنات، ب ت
- محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، دار التعارف، بيروت، ١٤١١
- محمد حسن آل الطلقاني، الشيخية، الآمال للمطبوعات، بيروت، ١٩٩٩
- محمد حسين علي الصغير، السيد الشيرازي موضوعيا، بيروت، ب ت
- مرتضى المطهري، الفلسفة، دار التيار الجديد، بيروت ١٩٩٣ - ١٤١٣.

- مرتضى المطهري، علم الكلام، دار المحجة، بيروت ١٩٩٣ - ١٤١٣.
- مرتضى المطهري، الحكمة العملية، دار المحجة، بيروت، ١٩٩٣ - ١٤١٣.
- مرتضى المطهري، العرفان، دار المحجة، بيروت، ١٩٩٣ - ١٤١٣.
- محمد علي أسبر، أحمد بن زين الدين في دائرة الضوء، بيروت، ١٤١٣ - ١٩٩٣.
- محمد علي الحرز، الحياة العلمية في الأحساء، مجلة الواحة، العدد ٣٩
- محمد علي الحرز، الحياة العلمية في الأحساء، مجلة الواحة، العدد ٤٠
- محمد علي الحرز، الحياة العلمية في الأحساء، مجلة الواحة، العدد ٥٠
- محمد علي الحرز، مجلة الفقاهة، أعلام فقهية، العدد ٤، ١٤٢٨
- محمد علي امير معزي، تفسيرات الشيخية للغيبة، مجلة الساحل، العدد ٥،
- محمد علي الشرفاء، المنطقة الشرقية حضارة وتاريخ، ط١، السعودية، ١٤١٢
- محمد عرابي نخله، تاريخ الأحساء السياسي، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٠
- مجموعة من الكتاب، مجلة الواحة، عدد ٥١
- مجلة الموسم، العددان ٩ و١٠، ج ٣، ١٩٩١ م - ١٤١١
- محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣
- محمد جواد مغنية، تاريخ الفقه الجعفري، (المقدمة) بيروت، ب ت
- محمد جواد مغنية، فلسفات إسلامية، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٣
- محمد جواد الخرس، فقهاء الأحساء، مخطوط، ب ت
- محمد مهدي شمس الدين، حركة التاريخ عند الإمام علي، بنياد نهج البلاغة، ١٤٠٥.
- محمد رضا المظفر، الفلسفة الإسلامية، لبنان، ١٤١٤، ١٩٩٣.
- محمد سعيد المسلم، القطيف، مطابع جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤١٧
- محمد سعيد المسلم، ساحل الذهب الأسود، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٢
- محمد العيثان، الرد على النصارى، مؤسسة أم القرى، ١٤٠٤
- محمد سعيد المخزومي، المجدد الشيرازي الثاني، دار العلوم، بيروت، ١٤٢٣
- محمد زكي إبراهيم، المدرسة الشيخية، دار المحجة، لبنان، ٢٠٠٤.

- محمد مهدي الاصفهاني، أحسن الوديعة، دار الهادي، بيروت، ١٤١٣
- محمد هادي الأميني، معجم رجال الفكر والأدب، دار الكتاب الإسلامي، بيروت، ١٤١٢
- محمد حسن الشخص، هداية العباد للشيخ محمد العيثان، (المقدمة)، بيروت
- محسن العاملي، أعيان الشيعة، دار التعارف، بيروت، ١٤٠٦
- محمد تقي الأحسائي، رسالة شاه زادة، تحقيق عبد المنعم العمران، مؤسسة المصطفى، بيروت، ١٤٢٤
- موسى الحائري، إحقاق الحق، منشورات جامع الصادق، الكويت، ١٤٢١
- موسى الحائري، الاجازة بين الاجتهاد والسيرة، إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٢.
- محمد بن عبد الله العبد القادر، تحفه المستفيد بتاريخ الأحساء القديم والجديد
- موسى الهادي، في محراب الشيخ محمد أبي خمسين، العروة الوثقى، بيروت، ١٤٢٥.

(ن)

- نور الدين الشاهرودي، تاريخ الحركة العلمية في كربلاء، دار العلوم بيروت، لبنان، ١٩٩٩

(ص)

- صالح السليمي، أضواء على مدرسة الأحسائي، منشورات جامع الصادق، الكويت، بدون تاريخ.

(ع)

- عبد العليم خضر، المسلمون وكتابة التاريخ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة، ١٤١٥، ١٩٩٥
- عبد الجليل الأمير، الشيخ أحمد الأحسائي فكر ومنهج، دار النخيل، بيروت، ١٤١٥
- عبد الجليل الأمير، من خطى خادم الشريعة، بيروت، لبنان، ١٤٢٥

- عبد الله نعمة، فلاسفة الشيعة، مكتبة الحياة، بيروت، ب ت
- عبد الله السبيعي، الحياة العلمية والثقافية والفكرية في المنطقة الشرقية، مطابع الشريف، ط٢، ١٤٠٩ - ١٩٨٩
- عبد الله الشباط، النهضة الأدبية في المنطقة الشرقية، الدمام، ١٤٢٢
- عبد الله الشباط، الأحساء أدبها وأدباؤها المعاصرون، الدمام، الدار الوطنية للنشر والتوزيع، ط١، ب ت.
- علي أكبر بوشهري، التاريخ القديم للبحرين والخليج العربي، البحرين
- عبد الرسول الحائري، قرنان من الاجتهاد والمرجعية، مكتبة الإمام الصادق، الكويت، ١٤١١.
- علي البلادي، انوار البدرين، دار المرتضى، بيروت، ١٤١١.
- علي الحائري، الكلمات المحكمات، مكتبة العذراء، الكويت، بدون تاريخ.
- علي الحائري، عقيدة الشيعة، الكويت، ١٣٦٧.
- علي الشيخ ابراهيم اسماعيل، حقائق، دار الزمان، بغداد، ١٩٦٥.
-علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ط٢، بيروت، ١٤٢٢
-علي الوردي، هكذا قتلوا قرة العين، منشورات الجمل، المانيا، ١٩٩٧.
- علي أحمد البهادلي، الحوزة العلمية في النجف الأشرف، دار الزهراء، بيروت، ١٤١٣
- عبد المالك التميمي، الموضوعية والذاتية في الكتابة التاريخية، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٩،
- عطيات أبو السعود، الوعي التاريخي، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٩،
- عبد الرزاق الحسني، البابيون والبهائيون في حاضرهم وماضيهم، بغداد، ١٩٥٩.
- عبد الرحمن بن عثمان الملا، تاريخ هجر، مطابع الجواد، الهفوف، ط٢، ١٩٩١
- عبد الرحمن العبيد، الموسوعة الجغرافية، النادي الأدبي، الدمام، ١٩٩٣
- عبد اللطيف عثمان الملا، لمحات من الحياة التعليمية في الأحساء، الجمعية العربية السعودية، الهفوف، ب ت

- عبد العظيم المشيخص، القطيف وملحقاتها، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢

(ف)

- فرج العمران، الأزهار الأريجية في الآثار الفرجية، دار هجر، بيروت، ١٤٢٩.
- ف. ش. فيدال، واحة الأحساء، ط١، بيروت، ١٤٢٥.

(س)

- سعيد القرشي، الوعي المدرسي، بيروت، لبنان، ١٤٢٥.

(هـ)

- هاشم محمد الشخص، أعلام هجر، مؤسسة أم القرى ط٢، ١٤١٦
- هاشم محمد الشخص، دائرة المعارف الشيعية، دار التعارف، بيروت، ط٦، ٢٠٠٥
- هاشم معروف الحسني، تاريخ الفقه الجعفري، دار النشر للجامعيين، بيروت، ب ت
- هنري كور بان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، بيروت، ١٩٨٣.
- هنري كوربان، نظرة فيلسوف،
- همايون همتي، البابيون والبهائيون، دار الهادي، بيروت، ١٤١٢

(ل)

- ج.ج. لوريمر، دليل الخليج العربي، القسم الجغرافي، الدوحة، قطر، ١٩٠٨م.

الكاتب في سطور

- حسن بن محمد عيسى الشيخ
- من مواليد الأحساء - الهفوف. المملكة العربية السعودية
- بكالوريوس في الآداب - إعلام- صحافة. جامعة الملك سعود - الرياض ١٩٨٣.
- ماجستير في الاتصال الإداري- جامعة مشيجين الحكومية - أمريكا ١٩٨٨.
- دكتوراه في الإدارة العامة من جامعة إمباسدور الأهلية - امريكا - ٢٠٠٥م
- شارك بالكتابة في العديد من الصحف والمجلات المحلية والخليجية.
- عمل صحفيا غير متفرغ في العديد من الصحف السعودية والإلكترونية.
- عضو الجمعية السعودية للإدارة ١٩٩٨
- عضو الجمعية السعودية للإعلام والاتصال، ٢٠٠٤م
- عضو الجمعية العربية لإدارة الموارد البشرية ٢٠٠٥ م
- عضو مؤسس لاتحاد الكتاب العرب على الإنترنت، ٢٠٠٥ م
- مستشار التحرير لجريدة ديوان العرب الإلكترونية ٢٠٠٤ م
- - عضو هيئة التدريس بمعهد الإدارة العامة. الدمام. ١٩٨٣م
- منسق قطاع الإدارة العامة بمعهد الإدارة العامة بالدمام ٢٠٠١م
- منسق الحلقات التطبيقية العليا بالمعهد ٢٠٠٥ م
- اعد العديد من الدراسات الاستشارية الإدارية للكثير من الأجهزة الحكومية.

أولاً: مؤلفاته الإسلامية

١ - السيدة زينب، بطولة ورسالة - المؤسسة الفكرية للمطبوعات، بيروت ١٩٩٢م.
٢ - ملامح من الفكر الإداري عند الإمام علي - دار البيان العربي، بيروت ١٩٩٣م
٣ - آخر الفلاسفة، مؤسسة الفكر الإسلامي - بيروت ٢٠٠٣.م
٤ - فيلسوفان ثائران، دار الرأي العربي، بيروت، ٢٠٠٤م
٥ - أول المجتهدين، دار الرأي العربي، لبنان ٢٠٠٨ م
٦ -للرئيس العيثان دار المعرفة الأدبية، بيروت، لبنان، ٢٠١٠ / (هذا الكتاب).

ثانياً: مؤلفاته الإدارية

١ - دليل رجل الشرطة الميداني - الدمام ١٩٩٠م.
٢ - الإدارة بين يديك - الدمام ١٩٩٢.م
٣ - السلوك الإداري بين النظرية والتطبيق - الدمام ١٩٩٣.م
٤ - معجم مصطلحات الإدارة- الشركة الشرقية للصحافة، الدمام ١٩٩٧م.
٥ - التجربة المعاصرة للتنظيم الإداري بالمملكة العربية السعودية، كتيب المجلة العربية، الرياض، ٢٠٠٤ م
٦ - الحكومة الالكترونية، دراسة التجربة التقانية للملكة، الرياض ٢٠٠٦م
٧ _ الحكومة الالكترونية في دول الخليج العربي، دار الوفاء للنشر والطباعة، مصر، الإسكندرية، ٢٠٠٨ ه
٨- تقنيات إدارية حديثة، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، الإسكندرية، ٢٠١٠ م

ثالثاً: مؤلفاته الأدبية

١ - ولادة فارس قبيلة المطاريد (قصص) - الدمام ١٩٩٨.م
٢ - اختفاء قدوسة (قصص) - الدمام- ١٩٩٩م
٣- الفوارس (رواية) - دار الكنوز الأدبية، بيروت ٢٠٠٣م.
٤ - حافلة الأحساء (قصص)، النادي الأدبي بالمنطقة الشرقية، الدمام، ٢٠٠٤م.
٥ - غيمة البدري، (مجموعة قصصية) دار فراديس للنشر، البحرين، ٢٠٠٧م
٦ - المنارة، رواية، دار الكنوز الأدبية، لبنان بيروت، ٢٠٠٩ م

الفهرس

تقديم ٧
الفصل الأول: الإطارالتاريخي ٩
مفردات الترجمة ١١
فجر الأحساء: ١٢
آثار الشيخ الأوحد: ١٥
الثورة الكبرى: ١٨
الفصل الثاني: إشكالات المؤرخين ٢٧
الكتابة التاريخية ٢٩
الوعي التاريخي ٣٠
منهجية الترجمة ٣٢
حكمة المدرسة ٣٤
الإشكال الأول - الاتجاه الحكمي ٣٦
الإشكال الثاني. المنهج العقائدي ٤٠
الإشكال الثالث: فتنة البابية ٤٣
الإشكال الرابع. إشكالية التسمية ٦٠
الإشكال الخامس.إشكالية المرجعية ٧٩
الفصل الثالث: الرئيس العيثان ٩١
أولا: عصر المرجعيات ١٠١

ثانيا. شخصية العيثان ١١٣
ثالثا.مرجعية الرئيس ١٣٢
الفصل الرابع: فكر العيثان ١٥١
الفلسفة الإسلامية..... ١٥٦
منهج العيثان الحكمي..... ١٥٩
فقه الشيخ..... ١٦٨
نهاية المطاف ١٧٣
أهم المصادر..... ١٧٥
الفهرس..... ١٨٥

إن هذه الدراسة عن المرجع الكبير الشيخ محمد بن عبدالله العيثان تسعى لأن تكون دراسة جادة ، تحاكي الدراسات العلمية في منهجها ألتوثيقي، وتماثل الدراسات المنصفة في تحليلها الحيادي، متكئة على المنهج التاريخي في تحليل الحوادث التاريخية؛ حتى تكون دراسة جديرة في أن تتصدر أرفف مكتباتنا العربية، مثل غيرها من الدراسات الأخرى عن حياة علمائنا ومفكرينا و عظمائنا.

ولا بد أن نشير ونحن على عتبات البداية لهذه الترجمة لأحد أبرز علماء مدرسة آل البيت الحكمية، أن في سيرة علمائنا الأحسائيين العديد من نواحي العظمة والشموخ، ما يجعلها تقف في الصدارة إلى جنب ترجمات مراجعنا وعلمائنا الكبار في شتى أنحاء العالم الإسلامي .